THE CHILDREN
OF APOCALYPSE
أبناء القيامة
أحمد صلاح المهدي

أبناءالقيامة

المهدي، أحمد صلاح.
أبناء القيامة : رواية/ أحمد صلاح المهدي.
القاهرة : كيان للنشر والتوزيع، 2025.
242 صفحة، 20 سم.
تدمك : 978-977-820-264-9
ا- القصص العربية.
أ- العنوان : 813
رقم الإيداع : 32511 / 2024
الطبعة الأولي : يناير 2025.
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

-

كيان للنشر والتوزيع
إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

٤ ش حسين عباس من شارع جمال الدين الأفغاني- الهرم
هاتف أرضي: **0235918808**
هاتف محمول: **201000405450+ – 201001872290+**
بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com
الموقع الرسمي: www.kayanpublishing.com

• إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأى **الناشرين**.
©جميعُ الحقوق محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابيِ من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

أبناءالقيامة

رواية

أحمد صلاح المهدي

إهداء

إلى زوجتي منار، ملهمتي في كل خطوة، ومن شجعتني على إتمام هذا العمل.

إلى روح د. نبيل فاروق، فقد كانت كتاباته هي بوابتي إلى عالم الخيال العلمي.

تمهيد

توهج قرص الشمس أحمرُ قانٍ من وراء سحبٍ داكنة قد صبغتها الشمس بحمرتها فصارت كأنها دماءٌ نازفة، ومن آن إلى آخر يدوي صوت الرعد بعد أن يومض البرق بلونٍ قرمزيٍ مخيف كطبول حربٍ تنذر بنهاية العالم. قد يعتقد الناظر إلى هذا المشهد أنه يحدق إلى الجحيم بعينه، ولكن هذا كوكب الأرض، يلعق جراحه في أعقاب كارثة نووية... ومن أسفل الشمس تمتد أميال وأميال من الأطلال والخرائب والصحراء... لا أثر لنبتة خضراء إلا بقايا سوداء يابسة، ولا أثر لمخلوقٍ حي، فقد اختبأوا جميعًا في جحورٍ أسفل الأرض هربًا من الشمس؛ العدو الأول للحياة على سطح الأرض.

في مكانٍ ما بالقاهرة، بين الخرائب والأطلال والمباني المحترقة ونصف المتهدمة، يقع واحد من هذه الجحور، مكان يطلق عليه قاطنوه اسم المترو. بالأعلى لن ترى شيئًا سوى أرض ساكنة إلا من صفير الرياح المحملة بالرمال والغبار تنتقل من مكان إلى آخر في ترحال بلا وجهة أو هدف، بينما بالأسفل كان المكان نابضًا بالحياة.

ولكن بعيدًا عن هذا القلب النابض، كان هناك رجل يتسلل عبر نفق مظلم، حيث كانت الجدران المتآكلة تحتضن ظلالًا من التاريخ المدفون، تمامًا مثل التاريخ المحفور على تغضنات وجهه وندوبه. في يده كشاف كهربائي عتيق يستخدمه لمعرفة أين يخطو بقدميه. كانت خطواته هادئة، محاطة بصمت مهيب، وكأن المكان يخفي أسرارًا لا تُحصى. كلما تقدم زادت رائحة العفن والصدأ، مذكّرة إياه بأن هذه البقعة كانت يومًا ما تعج بالحياة.

بينما يتحرك بخطوات مدروسة، كان يدرك أنه على وشك الوصول إلى هدفه، بعد سنوات من البحث، استخدم فيها الحيلة والرشوة للحصول على المعلومات التي قادته إلى هذا النفق الخفي. كانت أصابعه تتحسس الجدران الباردة بحثًا عن أي علامة تدل على الباب السري الذي سمع به.

فجأة أحس بنقطة بارزة في الجدار. خفق قلبه، لقد حالفه الحظ أخيرًا. دفع بإصبعه برفق فانفتح باب سري، يكاد أن يكون غير مرئي. دفع الباب بحذر، ثم دلف إلى غرفة مظلمة مغطاة بغبار الزمن، حيث لم يكن هناك سوى صدى خطواته.

راح يتفحص الغرفة على ضوء كشافه الأصفر الشاحب فرأى أشياء عجيبة؛ تحفًا قديمة، وكتبًا بالية، وأشياء لم يعرف ماهيتها، ولكنها بالنسبة إليه كانت كنوزًا. لم يترك أفكاره تتشتت بما يراه، فلديه هدف محدد يسعى وراءه.

حرك كشافه حتى رأى ما يبحث عنه؛ خزانة معدنية فوق طاولة في ركن الغرفة، تمامًا كما سمع. اقترب منها في لهفة وفضول، وتحسسها بيده حتى أدرك أنها مغلقة بإحكام بآلية قفل. لم يسمح لهذا بتثبيط عزيمته،

وضع الكشاف على الطاولة، ثم أخرج من جيبه أداة حادة رفيعة راح يستخدمها بحذر، وقلبه يخفق بشدة، بينما أصابعه تعمل بمهارة. بعد لحظات من التركيز، سمع صوت القفل ينفتح، فتنفس الصعداء.

فتح الخزانة على الفور فتكشف له كنز مخفي؛ قطع من التكنولوجيا القديمة، وأوراق تحمل رسومات معقدة، وأخيرًا تلك القطعة التي يسعى وراءها منذ سنوات. راح يتفحصها على ضوء الكشاف، كانت تتلألأ بمزيج من اللونين الفضي والذهبي، فقال لنفسه بانبهار: «من كان يظن أن شيئًا صغيرًا وجميلًا كهذا يمكن أن يتسبب في دمارٍ لا يصدق!».

هز رأسه ليفيق من ذهوله، لم يكن لديه وقت للتردد. على الفور وضع القطعة في جيبه، ثم أسرع عائدًا إلى النفق، خطواته تتسارع كأنها تتسابق مع الزمن. اندفع نحو الضوء في نهاية النفق، حيث كان ينتظره عالم مختلف. دفع الباب الصغير وخطا إلى الخارج، حيث الأصوات التي تنبض بالحياة، وهو يفكر أن المستقبل يتشكل أمامه، محملًا بالمخاطر والتحديات.

الفصل الأول

تململتُ في الضوء الأصفر الشاحب القادم من المصابيح الصغيرة التي يضيئها مولد الكهرباء بالملجأ، ورغم كونه أسفل مني بثلاثة طوابق فإن دمدمته الخافتة كانت تصل إلى المهجع حيث أرقد، وحيث توجد عدة أسرَّة بدائية صنعت كيفما اتفق من قطع خشبية ومعدنية، مغطاة بأغطية خشنة لا تكاد تحمي الجسد من السرير الصلب أسفلها، وفوق هذه الأسرَّة ينام هؤلاء الهاربون من حرارة النهار الخانقة.

حاولت طيلة النهار أن أهرب إلى النوم ولكني لم أقدر، فرحت أتقلب يمينًا ويسارًا بلا فائدة. لطالما تمنيت أن تكون لديَّ القدرة على النوم إلى الأبد للهرب من هذا الواقع المُقبض، ولكن النوم لا يحمل لنا الرحمة دومًا، فكثيرًا ما تهاجمني كوابيس مخيفة، فأجد نفسي في الحلم بين أطلال القاهرة، فريسة لكل رعب وخطر محتمل. كل هذا بسبب حكايات الفأر عن العالم الخارجي التي يملأ بها رأسي، فهو يجوب القاهرة ويشاهد الكثير. لا أعرف هل أحسده على مثل هذه الحرية، أم أشفق عليه؟ ثم وجدت نفسي أفكر، أين هو الآن؟ ماذا يفعل يا ترى؟

أدركت أنني لن أقدر على النوم، فقررت الذهاب إلى غرفة المراقبة.

نهضت من فراشي وأنا أحاول ألا أصدر صوتًا لكيلا أوقظ أحدًا، ودسست قدميَّ في حذاء قديم مهترئ موضوع بجوار السرير، ثم رحت أسير بحذر على الأرض الأسمنتية الجافة وأنا أنصت لصوت غطيط النائمين المرتفع وأنفاسهم العميقة، حتى خرجت من المهجع إلى ممر لا تكاد تنيره المصابيح الصفراء الشاحبة، ثم قطعته بخطواتٍ حذرة حتى وصلت إلى السلم الذي يأخذني إلى الطابق العلوي حيث توجد غرفة المراقبة.

لم يكن هناك صوتٌ سوى الصمت المطبق، تلفت حولي مرةً أخيرة قبل أن أدلف إلى غرفة المراقبة. كانت منخفضة السقف ويكاد رأسي أن يلمسه، وأمام عينيَّ الستار الأسود الذي يغطي نافذة داكنة يمكنني من خلالها رؤية السماء. أزحت الستار جانبًا واختلست النظر إلى السماء فرأيت الشمس الحمراء وهي تكاد تختفي وراء الأفق، وقد كست السماء بحمرتها الداكنة، وتلقي على الأطلال والخرائب نظرة رثاءٍ أخيرة، قبل أن تعبر من وراء الأفق إلى عالم آخر تأوي إليه في المساء، لكي تطل بوجهها من جديد في الصباح. عالم مبهم لا يعلم أحدٌ عنه شيئًا، سوى أساطير قديمة يرويها العجائز.

ولدتُ في هذا الملجأ، ولم أعرف لي وطنًا سواه، ولا أعرف شكل العالم قبل الكارثة. سمعت وأنا صغير حكايات عن العالم قبل الكارثة، كيف أن السماء كانت زرقاء، والسحب بيضاء كحقول القطن، وأنَّ الشمس كانت قرصًا أصفر لطيفًا، يمد البشر والحيوانات والنباتات بالحياة ولا يعدهم بالموت كشمسنا الحمراء هذه.

يحكون عن نيل صافٍ رقراق، يمكن للناس أن يشربوا منه دون الحاجة إلى تطهير مياهه من الأشعة النووية، عن أشجارٍ خضراء يستظل الناس بظلها ويأكلون فاكهتها، عن زراعة نباتات – لا للطعام فقط بل للزينة – ذات رائحة جميلة يسمونها الزهور، عن بشر يبقون القطط والكلاب حيوانات أليفة يلعبون معها، لا يرونها وجبة تبقيهم على قيد الحياة ليومٍ آخر.

يحكون عن وظائف وشركات ومصانع وملاهٍ ونوادٍ، عن وحوش معدنية تسمى قطارات وطائرات يسافرون بها عبر أنحاء هذا الكوكب الشاسع، عن أشخاص يسافرون من دولة إلى أخرى من أجل قضاء العطلة والاستمتاع بوقتهم.

كنت أسمع كل هذا نصف مصدق ونصف منبهر، أكانت هذه هي الحياة حقًّا؟ والبشر هم من قضوا على هذه الحياة بأنفسهم؟ أم أنها حكايات عجائز قد شهدوا الحرب ونهاية العالم، وتخدعهم ذاكرتهم لتوهمهم بأن هناك سلامًا قد كان على الأرض قبل زمن الحروب الطويل؟ لم أصدق أن يبلغ البشر كل هذا ثم يختارون تدميره بمحض إرادتهم، ولكني سمعت ذات مرة من إحدى العجائز حكاية آدم وحواء وخروجهما من الجنة، وفهمت الآن كيف يمكن أن يسقط الإنسان من جنات عدن إلى جحيم الأرض بصنيع يديه.

لم يكن بمقدور من هم مثلي – ممن ولدوا في هذا العالم المتهدم – تخيل الحياة قبل الكارثة، بل لا نكاد نخرج من هذا الجحر أسفل الأرض الذي يطلق عليه اسم الملجأ، وهو مبنى يمتد لعدة أدوار تحت سطح الأرض، يمثل لنا الناجين جنة في هذا الجحيم. وحسبما سمعت فهناك ملاجئ عديدة مماثلة في أرجاء القاهرة تحمي ما تبقى من البشرية من أشعة الشمس القاتلة.

لم يكن مسموحًا لنا بالخروج من الملجأ قبل غروب الشمس، فالتعرض لأشعتها يعني المرض أو الموت، وإن خرج أحدنا في النهار فلا يخرج دون الملابس التي تغطي الجسد كله للحماية من الشمس، وقناع الغاز للحماية من الإشعاعات، والنظارات الداكنة التي تسمح لمرتديها بالرؤية لمسافات بعيدة دون أن تحرق الشمس عينيه.

لم أخرج إلى السطح من قبل، ولكني آتي من آنٍ لآخر إلى واحدة من غرف المراقبة التي تتيح لنا رؤية الخارج عبر زجاج داكن لا يسمح بولوج أشعة الشمس إلا النزر اليسير، مخبَّأة بعناية عن أعين الغرباء فلا تبدو إلا كجزءٍ من الأطلال المحيطة بها. أتذكر المرة التي جئت فيها إلى هنا وأنا صغير ورأيت بنفسي العالم الخارجي المخيف في ضوء الشمس الساخن الذي يجعل كل شيء يتماوج وأنت تنظر إليه. كان المشهد صادمًا بالنسبة إليَّ، وجعلني أعي جيدًا الدرس الأول الذي يتعلمه كل طفل بمجرد أن يبلغ سن الفهم؛ أن الشمس عدوك الأول، فحرارتها قادرة على قتلك ما لم تكن مهيأً بالملابس الواقية الملائمة. إن أشعتها قادرة على إصابتك بمختلف أنواع الأمراض، وتخدعك بسرابها فتظن أنك ترى الماء فتسير وراءه حتى تلقى حتفك عطشًا أو أن يفترسك وحش ما من تلك الوحوش التي تجوب سطح الأرض؛ الوحوش المتحورة جينيًّا القادرة على تحمل أشعة الشمس. إنها شكل الحياةِ الوحيد القادر على أن يجوب الأرض نهارًا بجانب

الكشافة، وهم البشر المؤهلون بمعداتهم الخاصة، ولكن تلك المعدات لن تنقذك إن أطبق عليك أحد الوحوش بأنيابه!

جعلني التفكير في الوحوش أرتجف رغمًا عني وأنا أحدق إلى المشهد عبر نافذة المراقبة.

كنت قد استيقظت قبل بعض الوقت ولم أقدر على العودة إلى النوم، فانتظرت سماع صوت الجرس الذي يخبر قاطني الملجأ بأن موعد الاستيقاظ قد حان. ذلك الجرس الرتيب الذي يدوي كل يوم في موعده المحدد عند غروب الشمس. يعيش الناس هذه الأيام ليلًا وينامون نهارًا، فلا أحد يمكنه العمل في حرارة الشمس التي لا تُحتمل.

هذا هو الدرس الثاني؛ الليل هو صديقك، الليل يعني الظلام الذي يمنحك الحماية من حرارة الشمس، والذي يسترك عن أعين أعدائك الذين يتربصون بك عند كل زاوية. الليل يعني البرودة والسكينة والأمان.

كم تبقى على موعد الجرس؟ لا توجد لديَّ وسيلة لأعرف الوقت سوى النظر إلى السماء لمعرفة إذا ما غربت الشمس أم لا، ولهذا جئت إلى غرفة المراقبة.

«كنت أعرف أنني سأجدك هنا يا عمر!».

أيقظني الصوت الهامس من أفكاري فجفلت وأنا ألتفت ورائي، لأرى فتاة نحيلة في مثل عمري تقريبًا أو تصغرني بقليل تقف عند باب غرفة المراقبة، شعرها أسود مموج طويل يتخطى كتفيها، وعيناها بنيتان ينعكس عليهما ضوء آخر النهار الشاحب القادم من النافذة.

سألتها بدهشة: «مريم؟ ما الذي تفعلينه هنا؟».

ابتسمت مريم وهي تقول: «كنت مستيقظة وسمعت صوت خطوات بالخارج، ثم لمحت ظلًّا يمر من أمام المهجع، وبشكلٍ ما أدركت أنه أنت، وقد كان حدسي صائبًا». ثم حدجتني ببصرها وهي تقول متسائلة: «ما الذي أيقظك من نومك؟ ليس من عادتك الاستيقاظ مبكرًا».

هززت كتفي وقلت: «أحيانًا أشعر أنني ممزق ما بين الرغبة في النوم هربًا من الواقع الكئيب، والرغبة في الاستيقاظ هربًا من الكوابيس».

هزت كتفيها بدورها وقالت: «الواقع ليس بهذا السوء، نحن نتمتع بالأمان والطعام والشراب، وهو شيء لا يتمتع به الكثيرون في أطلال القاهرة».

صمتُّ قليلًا قبل أن أقول: «لقد أمضيت في هذا العالم ثمانية عشر عامًا، لا أعرف شيئًا عن الحياة سوى العيش أسفل الأرض، والأمل في أن أجد كل يوم ما يكفيني من طعام وشراب، والخوف من القتلة والنهابين والوحوش. أعرف أنها حياة سيتمناها الكثيرون، ولكني أتمنى لو كانت مختلفة بعض الشيء، أتمنى لو كنت... حرًّا!».

ابتسمت في تفهم ولكنها لم تقل شيئًا، فأدرت ظهري وأنا أنظر عبر نافذة المراقبة إلى أطلال القاهرة والشمس الحمراء. تذكرتُ ما قاله لي الفأر عن الكارثة؛ حرب عالمية بين قوى العالم العظمى في ذلك الوقت، استخدموا فيها أشد أسلحتهم فتكًا... الأسلحة النووية. لم أفهم الكلمة حين قالها لي، ولكني فهمت أنها ما تسبب في ذلك الدمار، وذلك الشتاء المظلم البارد الطويل الذي أطلق عليه الناس اسم الشتاء الأسود. قال لي الفأر إن الغبار والدخان والسخام الناتج عن الانفجارات النووية قد تصاعد إلى طبقات الجو العليا ليحجب أشعة الشمس وتدخل الأرض في عصر الظلام والصقيع، المسمى بالشتاء النووي.

لم يكن أحد مستعدًّا لما تلا الحرب؛ اختفاء الشمس وراء حجب الغيوم السوداء الكثيفة، الصقيع الذي غلف الكون بثلجه الرمادي الكئيب، انقطاع الكهرباء والإنترنت وكل وسائل الاتصال. ولكن الحرب لم تنتهِ، فقد تلت ذلك سلسلة من الحروب القصيرة في صراع البقية القليلة من البشر على الموارد الشحيحة المتبقية، أنهكت الكوكب ودفعت بالبشر إلى حافة الانقراض.

ثم انتهى الظلام، وتبدد الصقيع، وعادت الشمس... ولكن عودتها كانت كارثة أخرى. في البداية أحس الناس بالفرح؛ الشتاء الأسود ينتهي بعد سنوات عجاف، الظلام يتبدد، ستعود الشمس، ستعود الحياة. ولكنهم لم يدركوا أنهم الآن يواجهون الصيف النووي، الشمس التي عادت كانت شمسًا قاتلة، هذا الشتاء لم يذهب بلا أثر. قال الفأر إن الشتاء النووي قد أدى إلى تآكل طبقة في الغلاف الجوي تسمى طبقة الأوزون، وهذه الطبقة تحمي الأرض من أشعة الشمس الخطيرة التي تحمل اسمًا عجيبًا؛ الأشعة فوق البنفسجية. هذه الأشعة صارت تصل إلى الأرض مسببة الهلاك للبشر الذين يتعرضون لها، أما الحيوانات والطيور فهم أسعد حظًا قليلًا بسبب الفراء والريش الذي يغطي أجسادهم، وإن كان من سوء حظهم أنهم يمثلون مصدر غذاء للبشر الناجين من الشتاء النووي.

«فيم تفكر؟».

أعادني صوت مريم إلى الواقع فنظرت إليها وقلت: «غريبة هي قدرة البشر على الاعتياد والتكيف. يتغير بهم الحال من جحيم إلى جحيم ولكنهم رغم هذا يواصلون الكفاح كل يوم من أجل النجاة ليومٍ آخر».

وكزتني في كتفي وهي تقول مازحة: «لا تكن كئيبًا هكذا، الواقع سيئ ولكنه ليس بهذا السوء، نحن ما زلنا هنا لسبب ما، ولهذا نبقى».

التفتُّ إليها بهدوء وقلت وأنا أنظر إلى عينيها: «أعتقد أنك محقة، على هذه الأرض ما يستحق البقاء من أجله».

أطرقت برأسها خجلًا وقالت: «كنت أظن أنك ستجيبني بجملة ساخرة من جملك المعتادة، لم أتوقع أن تكون جادًّا هكذا».

لاذ كلانا بالصمت وضوء آخر النهار يختفي تدريجيًّا حتى كادت الدنيا أن تظلم تمامًا، فقالت مريم: «هيا بنا، يجب أن نهبط قبل أن يدق الجرس ويستيقظ كل من بالملجأ».

أغلقت مريم الستارة السوداء فلم يعد هناك ضوء إلا ذلك القادم من المصابيح الصفراء بالخارج، ثم مشيت وراءها حتى وصلنا إلى السلم فرحنا نهبط الدرج معًا، وما إن وصلنا إلى طابق المهاجع حتى سمعت جرسًا يدوي بصوتٍ مرتفع ويتردد صداه عبر طوابق الملجأ.

أكملنا طريقنا عبر السلم إلى الطابق الأسفل حيث الجرس الكبير لا يزال يتردد صداه حتى خفت تمامًا. في هذا الطابق يوجد المطبخ الكبير الذي تُعَدُّ فيه وجبتا المساء والصباح، ومخزن توضع به معلبات الطعام المغلقة بإحكام التي نجت بعد الحرب، تلك التي يحضرها الكشافة الذين يخرجون في المساء لتمشيط المتاجر الكبيرة والمنازل المهجورة، أو ما تبقى منها. كانت هناك حجرة مخصصة لتنقية الماء الذي يحضره بعضهم من النيل في أوعية بلاستيكية كبيرة وتخزينه في صهريج كبير تخرج منه الأنابيب والصنابير.

في الركن الأبعد من هذا الطابق كان هناك باب مغلق، وهو مخزن الأسلحة، لا يحمل مفتاح هذا الباب سوى السيد مروان مدير الملجأ، الذي يُطلق عليه قاطنو الملجأ لقب القائد، وكان السلاح يخرج بأمره عند خروج بعثة من الكشافة إلى الخارج، حيث يجري تنظيف الأسلحة وتغيير أحد أجزائها إذا أصابها العطب. لم يكن الخروج آمنًا من دون سلاح، وخصوصًا بعد حلول الظلام، فلا يوجد قانون يحكم العالم بالخارج سوى قانون الغاب والفوضى، القانون الذي تفرضه العصابات المسلحة التي تبسط سيطرتها على أماكن صغيرة، وتخشى من التدخل في مناطق نفوذ إحداها الأخرى.

كان هناك أيضًا الغرفة التي يوجد بها أقنعة الغاز والمرشحات العديدة، والتي لا يستطيع أحد الخروج من الملجأ من دونها.

كان قاطنو الملجأ قد بدأوا في الاستيقاظ والهبوط إلى هذا الطابق تباعًا؛ فرادى أو في مجموعات، بعضهم لا يزال باديًا عليه أثر النعاس والبعض الآخر يبدو متحمسًا لتناول وجبة الإفطار، وهم يثرثرون فيما بينهم. وضعت يدي على معدتي وأنا أفكر في الطعام، فالطعام في هذا الزمان نادر حقًّا، والمعلبات التي يعثر عليها الكشافة تتناقص يومًا تلو الآخر، أما عن صيد الحيوانات فقد كان أكثر ندرة، واليوم الذي تعود فيه فرقة الكشافة بحيوان قد اصطادوه في أثناء رحلتهم الاستكشافية يكون يوم احتفال في الملجأ. الشيء الوحيد المتوافر طيلة الوقت في الملجأ هو عيش الغراب، فهو الشيء الوحيد الذي ينبت في الظلمة ولا يحتاج إلى الشمس، وقد اعتاد الناجون من الكارثة زراعته لسنوات، وساعدهم هذا على البقاء على قيد الحياة.

ولكني أمقت طعم حساء عيش الغراب، ولم أستطع اعتياده رغم مرور كل هذه السنوات، لذا لم أكن متحمسًا لتناول المزيد منه.

فجأة قالت لي مريم بنبرة مرحة وهي تنظر إلى ما ورائي: «حسنًا ها قد استيقظ الطاهي».

التفت ورائي فوجدتها تنظر إلى رجل في أواخر عقده الخامس، خالط بياض شعره سواده، وحفر الشقاء والهم أخاديد عميقة في وجهه، نناديه في الملجأ باسم العم سعيد، وهو المسؤول عن المطبخ والغرف الملحقة به.

قال العم سعيد: «أنا أستيقظ قبل الجميع كل يوم أيها الصغيران، فلولاي لتضور الجميع جوعًا».

قلت ساخرًا: «ماذا لدينا اليوم على قائمة الطعام أيها الطاهي؟».

قال سعيد في غيظ: «عيش الغراب أيها المتذاكي، هل ترغب في تناول بعض المقبلات معه أيضًا؟». ثم تجهم وجهه وهو يقول: «هذا ما أناله منكم مقابل تعبي لإطعام الملجأ كله، السخرية وطول اللسان».

قلت له وابتسامتي الساخرة تزداد اتساعًا: «لمَ لا تطلب من القائد أن يزيد راتبك إذن؟».

ظهر الضيق على وجه سعيد وقال: «أي راتب هذا؟ هل تمازحني؟».

تلاشت الابتسامة عن وجهي وأنا أفكر فيما قاله؛ الجميع يعملون في الملجأ كخلية النحل، مقابل النوم والطعام، حياة شاقة ولكنها - بالإضافة إلى هذا - رتيبة ومملة. أحيانًا أفكر في الانضمام إلى الكشافة هربًا من هذا الملل، ولكن القائد مروان يرفض انضمامي إلى الكشافة حتى اليوم رغم بلوغي الثامنة عشر، دون أن أعرف سببًا لهذا، وفي كل مرة يكون هناك اجتماع في الملجأ لاختيار المهام الجديدة لقاطنيها لا يختار لي دورًا سوى العمل في أنفاق عيش الغراب، ذلك العمل المرهق الذي أقضي فيه معظم وقتي منذ غروب الشمس حتى شروقها، عندما يحين موعد النوم في الملجأ كله، قبل أن نبدأ في الغد يومًا آخر، يسير بالوتيرة نفسها.

أفقت من أفكاري على صوت مريم وهي تقول: «إنه يمزح معك فقط يا عم سعيد، وهو بالتأكيد يقدر كل ما تبذله من مجهود، ليس من أجلنا فقط، ولكن من أجل الملجأ كله». ثم وكزتني بمرفقها في جانبي وهي تقول بعتاب: «أليس كذلك؟».

تأوهت مازحًا ثم قلت: «أجل، بالطبع».

صمت سعيد قليلًا وهو ينقل نظره بين كلينا ثم هز كتفيه في لا مبالاة، قبل أن يلتفت ناحية مجموعة من الفتيان والفتيات قد هبطوا من الطابق العلوي وأمارات النوم تبدو على ملامحهم. صاح فيهم قائلًا: «إلى المطبخ أيها الأشقياء».

كان المطبخ عبارة عن حجرة واسعة بها موقد كبير، وعدة آنية معدنية اكتست باللون الأسود، وأطباق وملاعق قد انثنت في عدة مواضع من فرط قدمها وكثرة استخدامها. تتصل بالمطبخ حجرتان أصغر حجمًا، واحدة يوجد بها صهريج تنقية المياه، والأخرى حجرة إذابة الشحوم الحيوانية لإعداد الزيت الذي يستخدم لاحقًا في إشعال النار. كانت النار تُشعل في الحجرات الثلاثة مرةً واحدة لعدم إهدار حرارة النار التي تستخدم في الطهي، وكان هناك العديد من الفتيان والمراهقين يعملون تحت إمرة سعيد في تلك الحجرات الثلاثة.

تعالت الأصوات من المطبخ؛ طقطقة ألسنة اللهب، قعقعة الآنية المعدنية، بقبقة الماء في أثناء غليانه، الطاهي سعيد وهو يصيح بشخصٍ ما ليفعل شيئًا ما. في تلك الأثناء جذبتني مريم من يدي لنجلس فوق مقعد معدني قد وُضع عليه بساط بدائي من صوف أحد الحيوانات ليخفف من حدة معدنه القاسي.

جلست في شرود، متأملًا الناس من حولي يتناولون حساء عيش الغراب، وجوه شاحبة كرماد الحرب، تنعكس عليها أضواء المصابيح الصفراء التي تكافح لطرد الظلام من الملجأ، ولكن الظلال كانت تكتنف كل شيء، فشعرت أن الظلام يخنقني، وأنني بحاجة إلى متنفس، إلى مهرب، ليس من الملجأ، بل من واقعي كله، أن أهرب إلى عالمٍ آخر لا حرب فيه ولا خراب، ولا شمس قاتلة.

شعرت بيد مريم على كتفي وهي تقول: «ما الأمر يا عمر؟ أخبرني».

هززت رأسي ثم قلت: «أفكر في واقعنا هذا، حياتنا بين أربعة جدران في الظلام هربًا من النور. رغم خوفي من العالم الخارجي فإنني أتمنى لو أخرج من هذا الملجأ مع فرق الكشافة، أريد أن أذهب خارج هذه الجدران الخانقة، أريد أن أستكشف العالم كما يفعلون».

لقد تحدثت في هذا الأمر من قبل مع مريم، عن رغبتي في الانضمام إلى الكشافة والخروج من الملجأ، وهي تعرف أن القائد مروان قد رفض هذا عدة مرات. شاهدتُ التردد يظهر على وجهها قبل أن تقول: «هل تود أن أتحدث مع أبي في الأمر؟».

إن مريم ابنة السيد مروان قائد الملجأ، ولكنها كانت تنظر إلى نفسها كواحدة من قاطني الملجأ، ولا تحب فكرة استغلال كونها ابنته للحصول على أي امتياز لا يحصل عليه بقيتهم. لم أرغب في أكون سبب كسرها لتلك القاعدة من أجلي، أن تتوسط لي عند أبيها بسبب إشفاقها عليّ، فقلت لها على الفور: «لا، سأقنعه بنفسي في يومٍ من الأيام».

سمعت صوتًا أجش يأتي من ورائنا يقول: «أنت تعرف أن الخروج من الملجأ ليس نزهة».

التفت على الفور لأرى السيد مروان ينظر إلينا بعينين جامدتين. كان رجلًا كهلًا، ذا لحية بيضاء وشعر رمادي، ولكنه طويل الجسد وقويُّ البنية. سمعت في الملجأ الكثير من الحكايات عن السيد مروان، عن معاركه الشرسة في شبابه بعد الكارثة قبل أن يستقر ويؤسس الملجأ مع مجموعة من رفاقه.

غممت قائلًا: «أعرف...».

قاطعني مروان وهو يصيح بنبرة اختلط فيها الغضب بالعتاب: «أنت لا تعرف شيئًا! العالم بالخارج متوحش، هناك مرتزقة ولصوص ونهابون وقطاع طرق ومتحولون وأكلة لحوم بشر وحيوانات مفترسة أعمتها أشعة الشمس، وكل هؤلاء - البشر والوحوش - يحركهم شيء واحد؛ غريزة الجوع، تلك الغريزة البدائية التي تحيل الحيوان الوديع إلى وحش كاسر، وتحيل الإنسان المسالم إلى وغد قاتل. لقد جاع البشر حتى أكل بعضهم بعضًا. انهم يتضورون جوعًا، ويسيل لعابهم على أي فريسة سائغة، وأنت لا تجيد استخدام

السلاح ولا الدفاع عن نفسك، ستقضي نحبك بمجرد أن تسير عشر خطوات خارج الملجأ، هل ترغب في هذا المصير؟».

سمعت مريم تقول على الفور: «بالطبع لا يرغب في هذا...».

قاطعها أبوها بنظرةٍ حازمة، ثم التفت إليَّ من جديد وقال: «العالم بالخارج ينقسم إلى قسمين، أقوياء وضعفاء، الأقوياء هم من يعرفون كيف يستخدمون سلاحًا – مسدسًا كان أو سكينًا – للدفاع عن أنفسهم، أو حتى الدفاع عن أنفسهم دون سلاح، أما الضعفاء فيكون مصيرهم طعامًا للوحوش. يجب أن تكون مستعدًا للبيئة القاسية بالخارج، حيث يكون كل شيء عدوك. ما زال أمامك طريقٌ طويل، وأنت لا تزال صغيرًا، بالكاد أكملت الثامنة عشرة حسبما أذكر، فالسنوات طويلة ومتشابهة، ربما بعد عامٍ آخر أو عامين يمكنك أن تصير كشافًا، أما الآن فعملك في كهوف عيش الغراب، وهو عمل مهم لبقية الملجأ كعمل الكشافة بالضبط، أدِّ دورك ودع الآخرين يؤدون أدوارهم».

كانت نبرة صوته تزداد ارتفاعًا وحدة مع كل كلمة، ولاحظت بقية قاطني الملجأ وهم يلتفتون إلى الحديث الدائر باهتمام. أحسست بمزيج من الخجل والحنق، فأشحت بوجهي لأخفي مشاعري. لم تقل مريم شيئًا رغم الضيق الظاهر على وجهها. لاذت بالصمت بدورها لكيلا يتصاعد الموقف أكثر من هذا.

أخذ مروان نفسًا عميقًا ثم قال: «وهذا يذكرني أن مهمتك اليوم هي حمل عيش الغراب إلى غرف الشمس، أتمنى أنك لم تنسَ هذا».

غممت قائلًا: «لم أنسَ».

حدق إليَّ مروان لبضع لحظات ثم قال باقتضاب: «جيد».

لم أقل شيئًا وأنا أشاهده يدير ظهره لنا، ويتوجه ناحية المطبخ ليطمئن على سير عملية إعداد الطعام وتنقية المياه. كان سعيد واقفًا أمام المطبخ ينهر أحد الفتيان بصوتٍ مرتفع ليسرع في تأدية عمله، ثم انتبه لاقتراب القائد منه فسمعته يقول على الفور: «دقائق وسيكون الحساء جاهزًا». ثم دلف إلى المطبخ ليضع لمساته الأخيرة ويتيقن من أن حساء عيش الغراب صار جاهزًا للتقديم.

أمسكت مريم بيدي وقالت: « لا تحزن، أعتقد أنه قلق عليك لا أكثر».

أومأت برأسي وأنا أحاول أن أبتسم ولكني لم أقدر، فضغطت على أصابعها برفقٍ. ابتسمت بلطفٍ وهي تسحب أصابعها في خجل.

جاءت امرأة تهبط السلم ببطء، وبطنها يمتد أمامها، بينما اثنتان من النسوة يساعدانها على الهبوط. قال لها مروان: «لمَ لمْ تبقي في فراشك يا خديجة؟ سيأتي الطعام إليك».

قالت وهي تضع يدها وراء ظهرها، بينما تضع الأخرى على بطنها: «لقد مللت البقاء في الفراش، فأردت أن أمشي قليلًا».

قال لها مروان بحزم: «هذا الطفل ثمين، ولا توجد امرأة حُبلى في الملجأ الآن سواكِ».

أطرقت خديجة بعينيها وقالت: «أعرف أيها القائد».

فهمت ما يعنيه القائد، إن مولد طفل يعني مجيء أبناء القيامة، واحتمال أن يأخذوه معهم. هذا قد يثير بهجة بعض قاطني الملجأ؛ إن أخذوا الطفل معهم فهذا يعني الكثير من الخير للملجأ، ربما يكون طعامًا هذه المرة فنرتاح لبعض الوقت من حساء عيش الغراب... أما الآخرون فيشعرون بالاستياء من هذا الأمر، وبخاصة هؤلاء الذين فقدوا أبناءهم من قبل، إنهم يشعرون أن مروان يبيع أطفالهم لأبناء القيامة، وأحيانًا ما يتحدثون عن هذا علنًا. ذات مرة كاد ليث أن يشتبك معه في شجار بسبب رفضه أن يأخذ أبناء القيامة طفله، فأمر مروان الكشافة بوضعه في غرفة منعزلة لعدة أيام حتى يعود إلى صوابه. ولكن ليث لم يُخفِ غضبه من القائد وازدراءه له منذ ذلك الحين، أما البقية فقد تعلموا وضع احتياجات الملجأ فوق احتياجاتهم... ومشاعرهم.

ما زلت لا أعرف كيف أشعر حيال الأمر، أعرف أنه يمثل مصدر خير للملجأ، ولكنه لا يريحني نفسيًّا. في كل مرة يأتي أبناء القيامة إلى الملجأ، وأنا أعرف أنهم قد يأخذون واحدًا منا، أشعر بقلبي ينقبض!

أطل سعيد برأسه من المطبخ ليقول: «الحساء جاهز». فاقترب رجل من الجرس وقرعه مرةً أخرى ليتردد دويُّه في الملجأ بطوابقه المختلفة. كان هذا النداء الثاني هو الإيذان بموعد الطعام. بدأ قاطنو الملجأ يتراصون أمام المطبخ في طابورٍ طويل، وكلما حان دور أحدهم كان يأخذ طبقًا من الحساء الساخن ثم يسرع ليبحث لنفسه عن موضع يجلس فيه كي يتناول حساءه.

كنت على وشك النهوض لكي أقف في طابور بدوري عندما لمحت وجهًا مألوفًا يهبط السلم بخطوات مسرعة، شابًّا يفوقني عمرًا ببضع سنوات، حليق الرأس حتى يكاد يكون أصلع، على وجهه ندبة بيضاء قديمة تقطع جانب وجهه بالطول.

رأته مريم فقالت لي: «ها هو مهند قد استيقظ».

ناديته وأنا أقول ساخرًا: «دومًا ما تنتظر الجرس الثاني للهبوط أيها الكسول!».

تمطَّى وهو يقول: «ما الفائدة من الهبوط قبل الجرس الثاني؟ من الأفضل للمرء الحصول على المزيد من النوم ليعينه على قضاء اليوم».

ضحكت مريم وقالت: «هل صرت شاعرًا أيضًا؟».

أما أنا فقلت له: «سيلقي بك القائد خارج الملجأ ذات يوم بسبب كسلك هذا».

ضحك وقال: «هذا ما أخشاه حقًّا».

قالت له مريم محتجة: «أبي لن يفعل هذا أبدًا!».

نظر كلانا إليها نظرة ذات مغزى، فقالت مستسلمة: «حسنًا، قد يفعل». ثم أضافت بعناد: «ولكن هذا لأن عدم الانضباط قد يؤدي إلى انهيار الملجأ بالكامل، أليس كذلك؟».

تثاءب مهند مرة أخرى ثم قال: «إنها مجرد مزحة يا فتاة». قبل أن يلتفت ناحية المطبخ ويقول بصوتٍ عالٍ: «أين الطعام؟ أنا أتضور جوعًا».

سألته وثلاثتنا متوجهون ناحية طابور الطعام: «ماذا ستفعل اليوم؟».

قال: «سنذهب اليوم لإحضار المياه من النيل».

كان مهند معتادًا الخروج مع الكشافة أو الذهاب لإحضار المياه، لذا كنت أحسده بشكلٍ ما، رغم الندبة الواضحة على وجهه التي تذكرني أنه يومًا ما كاد أن يفقد حياته في مواجهة بين الكشافة وإحدى العصابات بالخارج.

الخارج؛ الخطر الذي يحذرني الجميع منه دومًا. تنهدت بعمق.

أخذ كل واحد منا طبقًا ساخنًا من حساء الفطر وعدنا إلى موضعنا لنجلس ونأكل. كنت آكل الطعام دون شهية حقيقية وأنا ألوك قطعة فطر في فمي في شرود، حتى سمعت صوت مهند يسألني: «ما الأمر يا عمر؟».

قالت له مريم: «لقد تحدث مع أبي». توقف مهند عن تناول الحساء وهو ينظر إليها في تساؤل فأكملت قائلة: «إنه يرغب في الخروج من الملجأ».

تجرع مهند ما تبقى من الحساء دفعة واحدة فسال بعضه على ذقنه ليمسحه بكم ردائه، قبل أن يقول: «صدقني إن الخروج من الملجأ ليس نزهة، لا يوجد شيء بالخارج سوى...».

قاطعته في غضب قائلًا: «أعرف! أنتم جميعًا تكررون الحديث نفسه حتى مللت سماعه».

صمت مهند في دهشة، فقالت مريم وهي تبتسم بإشفاق: «إنهم يقولونه لسبب وجيه، وأنت تعرف بداخلك أنهم محقون. هل ترغب حقًّا في الخروج ومواجهة العالم الخارجي بكل أخطاره؟».

ظللت صامتًا لا أعرف كيف أجيبها، ومشاعر كثيرة مضطربة تعتمل بصدري، كنت أعرف أنها محقة، وأن الأمان موجود بداخل جدران الملجأ، أسفل الأرض، ولكن إلى متى؟ أخاف الشمس، ولكني سئمت الظلام.

لم أقل شيئًا في نهاية المطاف، فقال مهند: «سأذهب كي أستعد».

ثم اعتدل من مجلسه وسار مبتعدًا حتى ابتلعته الظلال، فوضعت طبقي جانبًا واعتدلت واقفًا بدوري.

سألتني مريم: «إلى أين أنت ذاهب؟».

فقلت بلا اكتراث: «إلى أنفاق الفطر». ثم سألتها: «وأنتِ ماذا ستفعلين؟».

قالت مريم ببساطة: «لا أعرف، ربما أعتني بالأطفال اليوم، العديد منهم قد حفظوا عددًا من حروف الأبجدية بالفعل».

كان جزءٌ من قاطني الملجأ متزوجين ولديهم بعض الأطفال الذين ينشغلون عنهم طيلة اليوم لأن الجميع يعملون في مهام مختلفة، وكان هناك بعض الأيتام الذين قُتل آباؤهم على أيدي بعض اللصوص أو الحيوانات المفترسة في أثناء وجودهم خارج الملجأ للاستكشاف، أو ماتوا بسبب الأمراض التي أصابت الناس بسبب الأشعة النووية والشمس القاتلة.

ولكن ليس كل الأطفال الذين يولدون في الملجأ يظلون فيه، فكلما أنجبت امرأة طفلًا في الملجأ يأتي أبناء القيامة، حاملين معهم تلك الأجهزة الغامضة المتبقية من عصر ما قبل الكارثة، ليفحصوا الطفل. أحيانًا يأخذونه معهم وفي أحيان أخرى يتركونه. ورغم حزن الأبوين حين يؤخذ طفلهما بعيدًا عنهما، يكون هذا مصدر فرح وبهجة لقاطني الملجأ، لأن أبناء القيامة يتركون لنا الكثير من المؤن نظير الطفل الذي يأخذونه معهم. لا أحد يعرف ما الذي يفعلونه بهؤلاء الأطفال، ولا أحد يسأل، هناك ما يكفي من الأطفال في الملجأ لكي يكبروا ويصيروا أيدي عاملة.

كانت مريم تحب أن تولي اهتمامها إلى هؤلاء الأطفال، تحكي لهم بعض الحكايات التي سمعتها من النساء العجائز أو جمعها الكشافة في أثناء أسفارهم خارج الملجأ، بل وتصر على تعليمهم القراءة والكتابة رغم أن أحدًا لم يعد يبالي بهذا في تلك الأوقات العصيبة المظلمة.

قلت لها بابتسامة مشفقة: «لا أعرف سر إصرارك على تعليمهم الأبجدية، سيكبرون لكي يحفروا الأنفاق ويزرعوا عيش الغراب، أو يبحثوا عن فتات الطعام بين الأطلال والخراب. أشعر بالشفقة على هؤلاء الأطفال، ربما كان الموت أفضل لهم من هذه الحياة. أعني لِمَ يكبرون؟ من أجل الكدح في هذه الحياة الشاقة، أو انتظار الموت بين الساعة والأخرى؟».

نظرت إليَّ مريم في دهشة، فشعرت كم كانت كلماتي قاسية، وانتابني إحساس شديد بالأسف فقلت لها: «أعني... أتمنى لو أنني مت كما مات أبي وأمي. أحيانًا أظن أن القيامة قد قامت وأنني قد نسيت، أود أن أصرخ في الركب المبتعد؛ انتظروني أريد أن آتي معكم. لعل من يسبقوننا في الرحيل عن العالم هم الناجون ولسنا نحن».

تمالكت مريم نفسها ثم قالت بتجلد: «أنت على قيد الحياة لسبب ما، ومهمتك هي أن تبحث عن هذا السبب. الزمن يتغير، وهذه الأوقات العصيبة ستمر كما مرت أوقاتٌ أخرى غيرها. قد يكون واحد منهم هو من سيعيد بناء الحضارة مرةً أخرى، وإذا حدث هذا حقًّا فسيكون بفضل قدرتهم على القراءة وجمع المعرفة والتعلم من أخطاء الماضي».

قلت لها: «نظرةٌ حالمة، ولكني لن أجادلك، سأهبط الآن لأباشر عملي».

تحركت بضع خطوات ثم توقفت في موضعي، قبل أن أستدير لأنظر إليها وأقول: «لا تغضبي من حديثي، لم أقصد أن أنفث عن حنقي في وجهك، لا ذنب لكِ». ثم ترددت قليلًا قبل أن أضيف: «أحيانًا تعجبني

نظرتك الحالمة، وأتمنى لو كان العالم كما تحلمين، ولكن نظرة واحدة عبر النافذة إلى العالم المحترق بالخارج توقظني من الحلم وتعيدني إلى الواقع».

رأيت مريم تجبر نفسها على الابتسام وهي تقول: «لا عيب في أن نحلم قليلًا ونحن مستيقظون، والأجمل هو أن نعطي هؤلاء الأطفال أملًا، أملًا نوشك نحن أن نفقده».

قلت لها: «أنتِ عنيدة ولن تفقدي الأمل، أنا أعرف هذا، ويعجبني كثيرًا».

هذه المرة لم تجبر مريم نفسها على الابتسام، بل ابتسمت ابتسامة واسعة.

ابتسمت بدوري قبل أن أقول: «حسنًا، لقد تأخرت بما يكفي، سأذهب قبل أن يلقي القائد على مسمعيَّ محاضرة أخرى».

لوحت لها بيدي قبل أن أوليها ظهري وأنا أتوجه ناحية السلم الذي يؤدي إلى الطابق السفلي، إلى الأنفاق.

الفصل الثاني

خطوت عبر بابٍ مفتوح يؤدي إلى سلم معدني يهبط إلى الطابق السفلي. تردد صدى خطواتي على الدرجات الحديدية الصدئة حتى وصلت إلى منطقة واسعة تسمى بمستودع الفطر، تُخزَّن فيها جوالات عيش الغراب بعد جمعه استعدادًا لطهوه لاحقًا في وجبتي الغروب والفجر. ولكن أحيانًا ما يقايضه بعض الكشافة مع أشخاص خارج الملجأ نظير أشياء مختلفة، غالبًا ما تكون معلبات من الطعام أو خزائن من الذخيرة أو حتى علب السجائر التي نجت بشكلٍ ما طوال هذه السنوات. تذكرت الفأر ذات مرة قبل بضع سنوات وهو يستنشق أنفاس سيجارةٍ ببطءٍ شديد كأنما لا يرغب أن تنتهي قبل أن يقول: «هذه هي السيجارة الأخيرة في العلبة التي عثرت عليها في ركنٍ مظلم بأحد المتاجر، ولعلها آخر سيجارة في الكوكب بأسره». ولكنها لم تكن الأخيرة فقد شاهدته بعدها بعدة أشهر وهو يحمل في جيبه علبة أخرى. لم تكن السيجارة الأخيرة، ولكني أعرف أنه سيأتي يوم تكون فيه السيجارة الأخيرة، والرصاصة الأخيرة، وعلبة الطعام الأخيرة، وكل ما صنعه البشر سينزوي ويتلاشى.

لم يكن هناك أحدٌ في المكان غيري، لقد جئت باكرًا، وكان الصمت يخيم على المكان. في نهاية المستودع كانت هناك فجوات سوداء، بدت كوحوش مظلمة تفغر أفواهها لابتلاع هؤلاء الذين يجرهم سوء حظهم إلى براثنها. هذه الفجوات في الحقيقة هي الفتحات المؤدية إلى أنفاق عيش الغراب. أتذكر عندما كنت طفلًا صغيرًا كان هناك عدد قليل من الأنفاق، ولكن الآن صار هناك عدد كبير من الأنفاق الطويلة والمتعرجة والمتداخلة أحيانًا.

كانت هناك جوالات فارغة متناثرة في المكان، هذه التي نستخدمها في جمع الفطر. أمسكت بجوالٍ منهم، ثم سرت ناحية مداخل الأنفاق التي لا يضيئها إلا الضوء الأصفر الشاحب الذي يضيء كل شيءٍ في الملجأ، ولكن الظلال تكون أكثر كثافة هنا في الأنفاق. بعض الأنفاق تغطي تربتها أشياء تبدو كخيوطٍ بيضاء، وأخرى بها ثمار فطر صغيرة لم تنضج بعد. كنت أبحث بين الأنفاق عن ثمار عيش الغراب الناضجة مكتملة النمو، وأخيرًا ظهر لي في أحد الأنفاق بعض الفطر الناضج الذي يبرز من الأرض الترابية، بسيقانه البيضاء والرؤوس البنية التي تشبه المظلة.

وضعت الجوال الفارغ بجواري على الأرض ثم بدأت روتين العمل المعتاد، انحنيت وأمسكت إحدى ثمار الفطر بإصبعين وأدرتها حول محورها قليلًا ثم جذبتها برفقٍ حتى انخلعت من التربة. تأملتها على ضوء المصباح الشاحب قبل أن أضعها في الجوال، ثم انتقلت إلى الثمرة التالية. استغرقت في العمل، ثمرة تلو الأخرى، ولكن لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى شعرت بأصوات أخرى قادمة من المستودع عبر فتحة النفق. آخرون قد جاءوا؛ البعض لجمع الثمار مثلي، وآخرون للاعتناء بالثمار التي لم تنضج تمامًا بعد، وآخرون

يعملون على توسيع الأنفاق والتيقن من أن الدعامات الخشبية تبقي كل شيء مستقرًّا في موضعه. حدث في الماضي أن انهار أحد الأنفاق في أثناء العمل على تمديده وراح الكثيرون ضحايا لهذه الحادثة، ومرة أخرى انهار أحد الأنفاق دون أن يكون به أحد لحسن الحظ. كانت حوادث الانهيار نادرة ولكنها لا تفارق مخيلتي أبدًا عندما أكون في الأنفاق.

سمعت بعضهم يلقي بالتحية وهم يقتربون مني، يحمل كل واحدٌ منهم جوالًا فارغًا، بينما أثر النوم لا يزال باديًا على وجوههم. الكل يرغب في إنهاء هذا العمل والعودة إلى النوم مرةً أخرى؛ الهرب إلى عالم الأحلام حيث يوجد واقعٌ آخر غير هذا الذي نحياه، واقعٌ أخف وطأة بعض الشيء، أو لعلها أرض الكوابيس حيث ترتع أكثر أفكارنا ظلامًا، حيث يصير العقل فريسة سائغة لأشد مخاوفنا إرعابًا، لا أعرف أيهما حقًّا.

واصلت العمل الرتيب، غارقًا في أفكاري الخاصة، حتى أنهيت ملء جوال بعيش الغراب، فحملته على كتفي وعدت أدراجي خارجًا من النفق، ثم صاعدًا السلم المعدني إلى الطابق الأول. تلفت حولي بحثًا عن مريم ولكني لم أرَ لها أثرًا، لا شك أنها مع الأطفال. اتجهت إلى السلم كي أصعد إلى الطابق العلوي مارًّا بالطابق الذي يضم مهاجع النوم التي صارت خالية إلا من بعض الأشخاص الذين يضطرون أحيانًا إلى العمل بالنهار، وكانوا يغطون الآن في نومٍ عميق.

في الطابق العلوي توجد غرف المراقبة، وغرف الشمس التي تشبه غرف المراقبة عدا أنه توجد بها فتحات صغيرة عديدة مغطاة بزجاج شبه معتم تسمح بدخول أشعة الشمس بدرجة معقولة. دلفت إلى إحدى الغرف وفتحت الجوال ثم شرعت في نشر ثمار الفطر على الأرض، في الصباح ستتسلل أشعة الشمس عبر النوافذ الصغيرة لتغرقها بضوئها.

لقد اعتدت فعل هذا مرات عديدة، في البدء لم أكن أفهم سبب فعل هذا، ولكن الفأر أخبرني أن هناك شيئًا يحتاج إليه البشر من الشمس، شيئًا اسمه فيتامين د، قال لي إن البشر اعتادوا اكتسابه بشكلٍ طبيعي من تعرضهم للشمس، ولكن مع اختبائهم من الشمس لسنواتٍ طويلة أصيب بعض الناس بالأمراض بسبب نقص هذا العنصر. لقد أخبرهم العلماء بأن عيش الغراب بجانب كونه ينمو بشكلٍ طبيعي في الظلام، فإنه عند تعرضه للشمس يمكنه تخزين كميات كبيرة من هذا الفيتامين ليستهلكها البشر لاحقًا.

هؤلاء العلماء الآن هم جزء من جماعة تسمى بأبناء القيامة، يقال إنهم كانوا جزءًا من الجيش قبل التمرد الكبير الذي اجتاح القاهرة في أعقاب الكارثة، كانوا يعملون على تعديل النباتات والحيوانات وراثيًّا لكي تستطيع النجاة في أثناء الكارثة. لم أستطع استيعاب الفكرة، ولكن الناس يصدقونهم، لا تزال لديهم بعض الطاقة القديمة بشكلٍ ما، ولا يعتمدون تمامًا على الزيت النباتي والحيواني كبقية الناجين من الكارثة. إنهم من زودوا الملجأ بفطرٍ معدل وراثيًّا كما زودوا غيرنا، وبفضلهم لا تزال العديد من الحيوانات على قيد الحياة، بعضها قد هرب إلى البرية في أعقاب التمرد. إنهم أيضًا من يزودون الملجأ بمرشحات أقنعة الغاز. لِمَ يفعلون

هذا؟ لِمَ يحرصون على نجاة غيرهم في كارثة يسعى فيها كل واحد إلى النجاة بنفسه فحسب؟ أعرف أنهم يمنحوننا كل شيء نظير أن يأخذوا من يريدونه من الأطفال من ملجأنا ومن الأماكن الأخرى، ولكني ما زلت في حيرة من أمري في محاولة فهم دوافعهم وراء هذا الأمر.

خرجت من غرفة الشمس عائدًا إلى النفق كي أملأ جوالًا آخر، ولكني سمعت جلبة بالقرب من مهاجع النوم، وصوت امرأة تصرخ، فأسرعت إلى هناك لأجد بعض النسوة يثرثرن ويسترقن السمع أمام أحد مهاجع النساء، ومن بينهن مريم، فأشرت لها أن تقترب، ثم تنحينا جانبًا.

سألتها: «ما الأمر؟».

قالت: «يبدو أن خديجة قد جاءها المخاض. القابلة معها الآن».

كان البعض ينظرون في لهفة، فقت لها: «هل أخبرتِ أباك؟».

قالت في حزن: «أجل، ولقد ذهب إلى حجرة الراديو لطلب أبناء القيامة».

تشعر مريم بالحزن في كل مرة يأخذ فيها أبناء القيامة طفلًا من الملجأ، لذا قلت لها مُطَمْئنًا: «لعلهم لا يأخذونه هذه المرة».

نظرت إليَّ مبتسمة في امتنان وقالت: «أتمنى هذا».

نظرت بعض النسوة فشعرت بالحرج وقلت لمريم: «سأذهب لإكمال عملي».

ثم أسرعت هابطًا السلم، فوجدت بعض الرجال جالسين، من بينهم عدي – زوج خديجة – ويبدو واجمًا، وليث إلى جانبه يتحدث بهمس كالفحيح، وعندما رأوني أرمقهم توقفوا عن الحديث وحدجوني بأبصارهم.

أسرعت مبتعدًا عنهم، فأنا لا أريد متاعب مع أحد. سرعان ما رأيت القائد العام واقفًا بالقرب من المطبخ مع سعيد. تناهى إلى مسمعيَّ جزء من حديثهما بينما أتوجه ناحية المدخل المؤدي إلى الأنفاق.

كان الطاهي يقول: «... ولكن ينقصنا بعض الأشياء، مخزون الحطب الذي نشعل به النار كاد ينتهي، الشحوم التي نذيبها لتحضير الزيت لم يعد هناك الكثير منها، وهنالك أيضًا...».

رفع القائد يده أمام وجهه ليسكته ثم قال: «لا تقلق، سيولد طفل اليوم، وسيأتي أبناء القيامة، وحتى لو لم يأخذوا الطفل ولم يمنحونا شيئًا فستخرج قافلة جديدة بعد بضعة أيام».

شعرت بالحماس لحديث مروان عن القافلة، ورحت أفكر أين ستذهب، هناك الكثير من الملاجئ التي نتقايض معها في أرجاء القاهرة.

أردت أن أسمع المزيد، ولكني خشيت أن يشعر بي مروان وأنا أسترق السمع، فأسرعت الخطى لجلب جوال جديد من الفطر، والعودة به إلى غرفة الشمس.

عند عودتي من جديد صاعدًا السلم حيث المهاجع كانت هناك جلبة أكبر، وقد حل محل صراخ المرأة، بكاء رضيع. ترى ما شعور الأم وزوجها في هذه اللحظة، وهما لا يعرفان إن كان أبناء القيامة سيأخذونه

منهما أم سيتركونه؟

تلفت حولي بحثًا عن مريم فلم أجدها، لعلها تهنئ المرأة بمولودها الجديد، أو تواسيها. لم تنجب خديجة أطفالًا من قبل، وسيكون من الصعب عليها أخذ طفلها الأول، ولكن ما باليد حيلة، هذا هو قانون الملجأ، القانون الذي يبقينا جميعًا على قيد الحياة.

في غضون بضع ساعات كان الليل قد انتصف، وقد أوشكت على إنهاء عملي لهذا اليوم، وبينما أخرج من غرفة الشمس رأيت باب غرفة المراقبة ينفتح وأحد المراقبين يخرج راكضًا مندفعًا فسألته: «ما الأمر؟».

قال لي دون أن يتوقف: «لقد جاء أبناء القيامة». ثم ركض ليخبر القائد مروان.

نظرت عبر الباب فلمحت أضواءً بعيدة عبر النوافذ، لا شك أنها سيارات أبناء القيامة.

ظللت في موضعي أنتظر معرفة ما سيحدث. رأيت رجالًا يصعدون السلم ويعبرون الطابق، ثم يتوجهون ناحية السلم الآخر المؤدي إلى أعلى جزء في الملجأ، حيث توجد البوابة الثقيلة التي تؤدي إلى العالم الخارجي. فكرت في التسلل واللحاق بهم لإلقاء نظرة عبر البوابة، ولكني وجدت مروان يقترب ببطء، وإلى جانبه سعيد وبعض الرجال المسلحين.

لا يوجد خطر من أبناء القيامة، فهم لا يسعون إلى سرقتنا، ويبدو أن ما لديهم من مؤن يفوق ما لدينا بكثير، وإلا لما استطاعوا تزويدنا بالمؤن في كل مرة هكذا، ولكن القائد مروان يصر على استقبالهم كل مرة برجال مسلحين، يصوبون أسلحتهم دومًا ناحية الأرض. لعل هذا يمنحه المزيد من الأمان، أو إشارة منه إلى أبناء القيامة أنه سيد الموقف في هذا المكان.

رمقني مروان ببصره حيث أقف بينهم وبين السلم الآخر، فتراجعت إلى الوراء حيث صرت أقف وراءهم، ولكني لم أعد إلى عملي، بل ظللت واقفًا مترقبًا ما يحدث.

سرعان ما جاءت مريم، فسألتها هامسًا: «كيف حال الطفل؟».

أجابتني وهي تهمس بدورها: «إنها طفلة، وتبدو بصحة جيدة». ثم نظرت ناحية أبيها نظرة ذات مغزى، كأنها تقول من الأفضل أن ننصرف، ولكني تجاهلتها، فعادة ما نرى أبناء القيامة من بعيد، وهذه هي المرة التي تُتاح لي فيها فرصة رؤيتهم من كثب. وهكذا استسلمت مريم وظلت واقفة إلى جواري، لعلها تشعر بالفضول مثلي.

لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر رجال الملجأ عند السلم، ومن ورائهم أبناء القيامة.

رغم أنني رأيتهم مرارًا من قبل لا أملك إلا النظر إليهم في رهبة كل مرة.

كان الجنود يرتدون دروعًا ثقيلة، لا تشبه أي شيء عرفته في حياتي، وأسلحتهم تبدو ثقيلة بدورها، ومعقدة للغاية، بخزانات دائرية كبيرة، لا شك أنها تحمل مئات الرصاصات، ويرتدون أقنعة غاز متطورة عن تلك التي نمتلكها في الملجأ، تجعلهم يبدون كأنهم من عالم آخر.

من وراء الجنود جاء العلماء، في ثياب بيضاء أنيقة، يتحركون برشاقة وتحيط بهم هالة من السلطة كأنما يملكون العالم بأسره، رغم أن ملامحهم محتجبة وراء أقنعة الغاز. ومن ورائهم جنود آخرون يحملون الصناديق التي تحتوي على آلات أبناء القيامة المعقدة.

اقتربت واحدة من العلماء من مروان – رغم أن القناع يخفي ملامحها بدا واضحًا من تكوينها الجسماني أنها امرأة – ثم انتزعت قناعها فانسدل الشعر الأسود حول وجهها. كانت هذه هي المرة الأولى التي تأتي إلى الملجأ ولكنها جميلة للغاية لذا فغرت فمي وأنا أنظر إليها حتى وكزتني مريم في جانبي بمرفقها.

قال مروان بشكل رسمي: «مرحبًا بأبناء القيامة».

قالت المرأة بصوت رقيق: «مرحبًا بالقائد مروان، أنا د. نادين، المسؤولة الآن عن المواليد الجدد بهذا القطاع من القاهرة».

بدا من صوتها أنها تعرفه جيدًا رغم أنها المرة الأولى التي تأتي فيها إلى الملجأ. في الواقع لم أرَ جنود أبناء القيامة يأتمرون بأمر امرأة من قبل، لذا نظرت إليها في دهشة.

صوبت المرأة – التي أسمت نفسها نادين – ناحيتي نظرة غريبة لم أفهمها وقالت: «هل هذا هو...؟».

نظر مروان ناحيتي وقال بحدة: «هذا لا أحد. ما الذي تفعله عندك يا فتى؟ اذهب إلى عملك».

شعرت بالدهشة من حدته المفاجئة. كدت أن أقول له إنني لست فتى، وإن لي اسمًا، ولكن مريم جذبتني من ذراعي لكي نبتعد. تركتها تجذبني، ولكني نظرت ورائي، فوجدت نادين لا تزال تلاحقني ببصرها.

بعدما ابتعدنا قلت لها: «ما خطب أبيك؟».

هزت كتفيها وقالت: «تعرف أنه لا يحب أن يتدخل أحد في مقابلاته مع أبناء القيامة».

راقبت الموكب من بعيد يتوجه ناحية مهاجع النوم، حيث سيفحصون الطفلة بأجهزتهم المعقدة، ويقررون إن كانوا سيأخذونها معهم أم لا.

لم يكن مسموحًا لأحد بالاطلاع على هذه الإجراءات سوى القائد مروان نفسه، أما سعيد فقد توجه إلى المطبخ ليشرف على إعداد وجبة الطعام الأخيرة لهذا اليوم قبل شروق الشمس.

جلست بصحبة مريم نتحدث عن احتمالات ما سيحدث اليوم، ولم يمضِ وقت طويل حتى هبط القائد مروان متهلل الأسارير، فأدركت حقيقة الأمر، سيأخذ أبناء القيامة طفلة خديجة معهم. نظرت إليَّ مريم نظرة ذات مغزى، ثم أسرعت صاعدة السلم، فأدركت أنها ذاهبة لمواساة خديجة. بعض من قاطني الملجأ قد بدت عليهم السعادة لمعرفة الخبر، فهذا سيعني المزيد من المؤن للملجأ في الأيام التالية.

ولكني لم أشعر بحزنٍ أو فرح، بل غرقت في أفكاري الخاصة. لِمَ يأخذ أبناء القيامة بعض الأطفال بينما يتركون معظمهم؟ لِمَ لمْ يأخذوني عند مولدي؟ هل كنت لأحب هذا؟ أن أعيش في مكان آخر بعيد عن الملجأ؟ هل كنت لأرى العالم الخارجي؟

تنهدت بحسرة وأنا أقول لنفسي: *لا أحد يعرف ما حدث لهؤلاء الأطفال. من يعرف إن كنت سأرى العالم الخارجي حينها أم سأظل حبيس سجن آخر؟*

ولكن عدي زوج خديجة، ومعه ليث، ومجموعة من الرجال كانوا واجمين، وسرعان ما تحدثوا عن اعتراضهم على أن يأخذ أبناء القيامة الطفلة معهم. بدا القائد مروان مستعدًّا لهذا تمامًا، فأمر مجموعة من رجاله بتقييد حركة المتمردين. وسرعان ما حمل أبناء القيامة الطفلة ورحلوا بها، وراح القائد مروان يلقي خطبة عصماء عن أننا جميعًا مسؤولون عن أمن هذا الملجأ، وسلامة كل واحد فيه، وأن علينا ألا نعرض الجميع للخطر بالتصرف بأنانية. لم يكن أمام الرجال فرصة كبيرة للمقاومة، فاستسلموا. قرر القائد مروان بحكمة أن يعفو عن الجميع هذه المرة، ولكني لاحظت أن ليث وعدي لا يزالان يتبادلان الهمسات، ولم أشعر أن هذا يبشر بخير.

سمعت صوتًا مألوفًا من ورائي يقول: «في أي أفكار كئيبة تغرق نفسك يا عمر؟».

نظرت ورائي فرأيت مهند. قلت له بابتسامة شاحبة: «ها أنت ذا قد عدت إذن. فاتك العرض المذهل».

قال وهو يجلس إلى جواري: «لقد عدت للتو من الخارج. ما الذي فاتني؟».

قلت وأنا أشيح بيدي: «جاء أبناء القيامة بصحبة امرأة تدعى نادين، وأخذوا معهم طفلة خديجة التي وُلِدت اليوم. ولكن عدي زوج خديجة ومعه ليث ومجموعة من الرجال حاولوا الاعتراض. لحسن الحظ أن الأمر قد مر على خير».

كتم تثاؤبًا بيده ثم قال: «لا أعرف ما سبب إثارة الجميع لهذا الضجيج في كل مرة يأخذ فيها أبناء القيامة طفلًا. يمكنهم دومًا إنجاب طفل جديد».

هززت رأسي وقلت: «لا تعجبني طريقتك في النظر إلى الأمر يا مهند».

ربت على كتفي وقال: «هذه تسمى طريقة تفكير عملية يا فتى. ستنفعك لاحقًا إن كنت تريد حقًّا الخروج إلى السطح».

سألته في لهفة: «هل تظن أنني سأخرج إلى السطح حقًّا؟».

ضحك مهند ثم قال:» لا أعرف سر لهفتك للخروج إلى السطح. كم مرة سأقول لك لا يوجد بالعالم الخارجي ما يستحق أن تراه». تلفت مهند حوله قبل أن يكمل: «هاجمنا اليوم قطيع من الكلاب، كلاب عمياء تمامًا بسبب أشعة الشمس ولكن حاسة الشم لديها مذهلة، وكذلك قدرتها على العَضِّ بأنيابها. لحسن الحظ لم يصب أي منا بخدش واحد، كان لدينا ما يكفي من الذخيرة».

اقشعر بدني وأنا أفكر في الأمر، ثم قلت له: «كم أحسدك على قدرتك على استخدام السلاح!». ثم قلت في رجاء: « لمَ لا تعلمني إطلاق النار؟».

نظر إليَّ مهند بعينين متسعتين ثم قال: «هل جننت؟ لو عرف القائد بهذا...».

قاطعته قائلًا: «لا داعي لأن يعرف، فليكن هذا بيني وبينك».

هز مهند رأسه ثم قال وهو يجول بعينيه في المكان ليتيقن من أن أحدًا لا يسترق السمع: «الحديث عن السلاح خطر في الملجأ يا عمر، أنت تعرف أنه كانت هناك محاولات للانقلاب في الماضي، لذا فإن القائد مروان يتصرف بصرامة حيال كل ما يتعلق بالسلاح والذخيرة. الرصاص الذي نستلمه محسوب بالرصاصة الواحدة، أي نقص سيكون ملحوظًا، كما أن الأمر سيلفت انتباه الجميع بالتأكيد».

في هذه اللحظة ظهر القائد مروان، فلاذ كلانا بالصمت. على الأرجح قد جاء ليتحقق مع الطاهي سعيد من تجهيزات الوجبة الأخيرة لهذا اليوم.

عندها جاء أحد رجال المراقبة مسرعًا وهو يقول: «لدينا زائر يا سيدي، نطلب الإذن لفتح البوابة».

قال مروان وهو يعقد حاجبيه: «من سيأتي في هذه الساعة قبل شروق الشمس بقليل؟».

قال الرجل: «إنه الفأر يا سيدي».

فقال مروان: «افتحوا له على الفور».

أسرع الرجل لتنفيذ الأمر، بينما مهند يلكزني بمرفقه ويقول: «لقد جاء صديقك».

شعرت بالبهجة لسماع الخبر، فجلست في ترقب وأنا أنظر ناحية السلم المؤدي إلى الأعلى.

بينما أترعرع في الملجأ عرفت الفأر، الذي قال لي إنه صديق والديّ، عرفهما قبل مولدي، وحزن كثيرًا لموتهما. كثيرًا ما سألته عن الأمر، ولكنه لم يقل أكثر من أنهما قد ماتا في أثناء إحدى المهام خارج الملجأ.

يخرج الفأر في مهام كثيرة، ويعرف الكثير من الأشخاص والجماعات ومنهم أبناء القيامة أنفسهم. يغيب أحيانًا لأيام أو شهور قبل أن يعود للملجأ، وغالبًا ما يجلب لي معه عند عودته هدية أو شيئًا من العالم الخارجي، لقد كان أقرب شيء بالنسبة إليَّ يمكن أن أسميه بالعم.

سألته ذات يوم: «ألن تخبرني لماذا اسمك الفأر؟».

قال لي حينها: «إنه اسمٌ اكتسبته بعد الكارثة، يقولون إنني ماهر في العيش تحت الأرض، ومعرفة خبايا الطرق والأنفاق المظلمة. لقد احتفظت بالاسم ونسيت اسمي القديم أو تناسيته. لم يعد لديَّ شيء يربطني بالحياة القديمة. لقد صارت الكارثة هي واقعنا، أحيانًا أظن أننا ولدنا فيها ونعيش فيها منذ البداية، وأن ما قبل الكارثة كان مجرد حلم استيقظنا منه على الانفجارات النووية. النسيان نعمة يا عمر، وكلما نسيت أسرع، ازداد تأقلمك على الحياة الجديدة».

رأيت الفأر أخيرًا يهبط السلم، وقد نبتت لحيته، ويبدو شعره أشعث، ويحمل على ظهره حقيبة جلدية. أسرعت لأحضن الفأر بمجرد أن خطا الخطوات الأخيرة، ثم قلت له: «لم أرَك منذ وقتٍ طويل يا عماه».

شعرت بيد الفأر تربت على ظهري وهو يقول: «اعذرني يا عمر، لقد انشغلت كثيرًا الفترة السابقة».

سمعت صوت القائد مروان من ورائي يقول: «مرحبًا بالفأر، لقد جئت أخيرًا».

فنظر إليه الفأر وقال: «أجل لقد جئت أخيرًا، هل كل شيء جاهز؟».

قال مروان: «نحتاج إلى بضعة أيام أخرى لتكون كل كمية الفطر المطلوبة جاهزة».

فتنهد الفأر ثم قال: «فلتعجل من الأمر إذن، إنهم بانتظارنا».

نقلت نظري بينهما ثم قلت: «ما الأمر؟».

بدا على مروان عدم الرغبة في الإجابة، ولكن الفأر قال: «مروان يتحدث عن القافلة التالية».

نظرت للفأر بدهشة وقلت: «ولكنك قد عدت للتو من غياب طويل!».

في هذه اللحظة جاء مهند ليرحب بالفأر فنظرت له وقلت: «هل أنت ذاهب معه؟».

سألني في حيرة: «ذاهب إلى أين؟».

قلت في ضيق: «القافلة التالية».

قال مروان في حدة: «لا تتدخلا في هذه الأمور أيها الشابان». ثم نظر إلى الفأر وقال: «لِمَ تتحدث عن الأمور المهمة أمام من لا يهمه الأمر؟».

هز الفأر كتفيه، فنظرت إليه وقلت بتصميم: «حسنًا، لا أعتقد أنك ستغيب كثيرًا هذه المرة ما دمت ستخرج في قافلة من الملجأ. لِمَ لا تأخذني معك، أريد أن أرى العالم الخارجي».

قال مروان في ضيق: «ألن تكف عن الإلحاح في هذا الأمر مرارًا وتكرارًا؟».

قلت باحتجاج: «لِمَ لا يمكنني الذهاب؟».

بدا أن مروان على وشك أن يقول شيئًا ولكن الفأر التفت إليه وقال: «سنتحدث لاحقًا أيها القائد، أحتاج إلى الحديث مع عمر قليلًا».

أومأ مروان برأسه ثم أدار ظهره وسار مبتعدًا، وكذلك فعل مهند بعد أن تبادل معي إيماءة قصيرة.

راح الفأر يتأمل الملجأ، الآلات القديمة الصدئة، الوجوه الغارقة في ظلال المصابيح الصفراء الباهتة، الأصوات المتداخلة التي تشي بحياة تحاول الاستمرار رغم كل الظروف. تأمل الفأر كل هذا طويلًا ثم قال: «لم يتغير الملجأ كثيرًا، أليس كذلك؟».

قلت له: «لا أعتقد أنه يتغير مطلقًا».

اقترب الفأر من إحدى الطاولات المعدنية، ووضع حقيبته عليها، ثم جلس على كرسي قبل أن يشير إليَّ لأجلس على الآخر، ثم أخرج من حقيبته علبة سجائر نصف فارغة يبدو عليها أثر الزمن، أشعلها بقداحة قديمة يكاد ينفد ما بها من وقود. أخذ من طرف السيجارة نفسًا عميقًا لتملأ المكان رائحتها النفاذة فالتفتت إليه الأعين ولكن أحدًا لم يقل شيئًا.

راح الفأر يستنشق أنفاس السيجارة ببطءٍ شديد كأنه لا يرغب في أن تنتهي، قبل أن يقول: «لقد كلفتني علبة السجائر هذه ثروة، ولكنها تستحق».

سألته بفضول: «كم كلفتك؟».

هز الفأر كتفيه وقال: «عدة طلقات رصاص، ولكن لا يزال لدي بعضها لحسن الحظ». ثم أشار إلى الجزء المنتفخ في جانبه، فأدركت أنه يشير إلى مسدسه.

قلت له: «بهذه المناسبة، أريد أن أطلب منك شيئًا».

نظر إليَّ الفأر ونفث دخان سيجارته قبل أن يقول بنبرة متسائلة: «ما هو؟».

قلت بحماس: «أريدك أن تعلمني إطلاق النار».

توقفت أصابع الفأر التي تحمل السيجارة في منتصف الطريق إلى فمه ثم نظر إليَّ بدهشة وقال: «إطلاق النار؟ لماذا؟».

زفرت بحرارة ثم قلت: «أعتقد أن الطريقة الوحيدة للخروج إلى السطح هي أن أتعلم كيف أدافع عن نفسي». ظل الفأر صامتًا، فقلت في ضيق: «القائد مروان يرفض مغادرتي الملجأ تمامًا، رغم أن هناك من هم في مثل عمري قد تعلموا حمل السلاح ويخرجون بصحبة القافلات، أنا لا أفهم».

توهج طرف السيجارة مع نفسٍ عميق ثم سمح الفأر للدخان بأن يتسلل من أنفه وفمه قبل أن يقول: «هناك شيء يجب أن أخبرك به».

سألته بحيرة: «أي شيء هذا؟».

قال الفأر وهو يتأمل طرف سيجارته المشتعل: «السبب الذي يجعل القائد مروان يرفض خروجك من الملجأ هو أنني طلبت منه هذا».

صحت في غضب ممتزج بالدهشة: «أنت؟ لماذا؟». شعرت بالأعين تلتفت إلينا مرة أخرى ولكني لم أبالِ، كان الغضب وعدم الفهم لا يزالان يتصارعان بداخلي.

ظل الفأر صامتًا حتى استنشق النفس الأخير من سيجارته وما إن تلاشى الدخان حتى دهس عقب السيجارة بحذائه ليسود الصمت للحظات بعدها قبل أن يقول بحزن: «كان والداك من أعز أصدقائي، وكنت أنت أكثر من يحبانه في هذه الدنيا، ما كنت لأسمح بفقدانك بعد أن فقدتهما».

قلت له بمرارة: «ولكني أحيا في سجن، بينما تخرج أنت وغيرك كما يحلو لكم، هذا ليس عدلًا».

قال الفأر بابتسامة شاحبة: « العالم الخارجي قاسٍ. لا يوجد شيء بالخارج لتراه. الخروج إلى الأطلال ليس آمنًا، ولكني اعتدته. أنت هنا بأمان، ولا تزال أمامك حياة طويلة لتعيشها».

في هذه اللحظة لم أستطع كبح جماح غضبي، فوجدت نفسي أصيح: «من سمح لك أن تتحكم في حياتي؟ ومن قال لك إن البقاء داخل هذا السجن هو ما أرغب في فعله ما تبقي لي من حياة؟».

كان قلبي يخفق بعنف، ومشاعر عديدة تعتمل داخل صدري الذي يغلي كالمرجل. كل الغضب الذي كنت أشعر به تجاه القائد مروان صرت أشعر به الآن تجاه الفأر. إن الرجل الذي أحببته كثيرًا، ونظرت إليه كأبٍ

روحي، هو من يسجنني هنا، بحجة أنه يحميني، ولكن هل يحميني حقًا؟

بينما الأفكار تتنازعني وتكاد تمزقني، وضع الفأر يده على كتفي برفق وقال بحزن: «لا تغضب مني، لم أرغب في أن تشعر يومًا بالغضب أو الحزن، لقد أردت حمايتك، ولكني ربما كنت مخطئًا».

سالت دمعة ساخنة من عيني رغم محاولتي لكبحها، إنني ناضج الآن، لا يجب أن أبكي كما كنت أفعل عندما كنت طفلًا صغيرًا، ولكني لا أستطيع منع نفسي.

شعرت بصوت الفأر يتهدج وهو يقول: «لا تحزن يا بني، سأفعل كل ما تريده، سأعلمك إطلاق النيران».

نظرت إليه في دهشة وقلت: «حقًّا؟».

ابتسم الفأر وقال: «أجل، ليس هذا فقط، بل وستخرج بصحبتنا في القافلة التالية، سترى العالم الخارجي بنفسك، وأتمنى ألا تندم على هذا».

***

جلست أتناول الوجبة الأخيرة في اليوم بمرحٍ، ثم تجرعت ما تبقى في طبقي دفعة واحدة قبل أن أمسح فمي بيدي وأقول ببهجة: «أليس حساء الفطر رائعًا؟».

نظر سعيد ناحيتي وهو يقول: «هل فقد عقله؟ لم أسمعه يمدح حساء الفطر من قبل». قبل أن يذهب للإشراف على الفتيان بينما يوزعون الطعام على قاطني الملجأ.

نظرت إليَّ مريم بتساؤل وقالت: «سعيد محق، لطالما كرهت حساء الفطر». ثم نظرت إلى الفأر وقالت: «هل فقد عقله حقًّا؟».

تناول الفأر حساء الفطر ثم ارتسم الامتعاض على وجهه فضحكتُ ضحكة عالية، جعلت مريم تنظر إليَّ في تعجب. هنا قال لها الفأر: «لا لم يفقد عقله، ولكنه قد يفقد رأسه إن لم يحترس لنفسه بالخارج».

تساءلت مريم بقلق: «بالخارج؟ ماذا تعني؟».

قلت لها: «هل تذكرين ما كنا نتحدث فيه قبل مجيء الفأر؟ أعني رغبتي في الخروج إلى العالم الخارجي. لقد اتفقنا أن يعلمني إطلاق النار، وحينها لن يكون لدى أبيكِ حجة لمنعي من الخروج من الملجأ، كما أنني سأخرج معهم في القافلة التالية؟».

وضعت مريم يدها على قلبها وقالت: «هل أنت واثقٌ بهذا القرار؟».

وضعت طبقي الفارغ جانبًا وقلت: «تمام الثقة». ثم التفتُ إلى الفأر وقلت: «متى سنبدأ تدريبنا؟».

قال لي الفأر: «لقد أوشكت الشمس على الشروق، ربما يمكننا فعل هذا في مساء الغد».

اعتدلت واقفًا وتمطيت ثم قلت: «حسنًا لقد انتظرت طويلًا، يمكنني الانتظار بضع ساعاتٍ أخرى».

***

استيقظت في مساء اليوم التالي، بعد نهارٍ طويل تخللته الأحلام والكوابيس، ولكني استيقظت بحماس بسبب وعد الفأر لي في اليوم السابق. بعد أن تناولت الفطور بصحبة مريم ومهند، أسرعت إلى غرف الشمس لكي أنهي عملي المخصص لي هذا اليوم، وهو جمع فطر عيش الغراب الذي نشرته في اليوم السابق. لم أكن وحدي هناك، فقد كانت هناك مجموعة من الفتيان والفتيات يجمعون الفطر في جوالات قماشية.

شاركتهم العمل بحماس وأنا أنظر عبر زجاج الكوات المعتم، فأرى الأطلال وهي تمتد أمامي، في أمواج من الظلمة المتلاطمة، وبعض الأضواء الخافتة تومض هنا وهناك، مجهولة المصدر. أي حياة توجد بالخارج؟ قريبًا سأخرج وأرى بنفسي.

ما إن أنهيت عملي حتى هبطت من جديد إلى الطابق السفلي، حيث وجدت الفأر والقائد مروان جالسين معًا ويتبادلان الحديث وهما يحتسيان مشروبًا ساخنًا، فلم أرغب في مقاطعتهما، وقررت أن أجلس جانبًا، ولكن الفأر رآني فلوح لي، ثم قال شيئًا لمروان وهو يعتدل واقفًا، قبل أن يقترب مني ويقول: «هل أنهيت عملك؟».

أومأت برأسي وقلت: «أجل، أنهيته». ثم نظرت إليه في ترقب.

أومأ الفأر برأسه ناحية القائد مروان وقال: «كنت أتحدث إليه بشأن تدريبك على إطلاق النار، وخروجك معي في القافلة التالية، ولم يمانع الأمر».

شعرت بارتياح شديد، ونظرت ناحية القائد مروان بامتنان، ولكنه لم ينظر ناحيتي، بل اكتفى باحتساء شرابه.

قلت وأنا أفرك يديَّ معًا في حماس: «حسنًا، كيف سنبدأ؟».

قال وهو يشير بيده جانبًا: «هناك مكان واسع في هذا المصنع، مخصص الآن لتدريب الشبان في الملجأ على حمل السلاح، وقد أذن لي مروان في استخدامه لتدريبك».

ثم تحرك فمشيت وراءه مبهور الأنفاس، غير مصدق أنني سأتدرب حقًّا على استخدام السلاح، وأنني قد أخرج أخيرًا إلى العالم الخارجي.

وقف الفأر أمام باب حديدي وأخرج من جيبه مفتاحًا، وضعه في القفل، وأداره جانبًا، فانفتح الباب. كان المكان مظلمًا بالداخل، ولكن يد الفأر وجدت مفتاح الإنارة.

كانت هناك رائحة عطنة تفوح من المكان سيئ التهوية، وعلى الضوء الأصفر الشاحب القادم من المصباح وجدت مجموعة من البراميل عليها علب من الصفيح مثنية في زوايا غير منتظمة.

مد الفأر يده داخل ثيابه، ثم أخرجها وهو يمسك بمقبض مسدسٍ. كانت فوهة المسدس بها ماسورة رفيعة أومأ إليها الفأر برأسه وقال: «هذا المسدس مزود بكاتم صوت فلن نزعج الملجأ كله بتدريبك».

قلت بتساؤل: «من أين حصلت على شيء كهذا؟».

لوح الفأر بيده وهو يقول: «من مكان ما خلال تنقيبي بين الأطلال».

ثم قال بجدية: «والآن اسمعني جيدًا، سنبدأ أولًا بالجزء النظري». وراح يشرح لي كل شيء عن المسدس وحشو السلاح وصمام الأمان، ثم قال وهو يمد إليَّ بالمسدس: «والآن الجزء العملي».

شعرت بيدي ترتجف قليلًا وأنا أمسك بالمسدس، وقد انتابني إحساس بالرهبة، ولكني حاولت ألا أبين هذا للفار لكيلا يظنني خائفًا.

قال الفأر وهو يومئ ناحية البراميل: «هل ترى هذه العلبة؟ أريدك أن تصوب عليها. أمسك المسدس جيدًا بيدك اليمنى، ضع سبابتك على الزناد، استخدم يدك اليسرى للدعم. يفضل في أثناء استعدادك لإطلاق النار أن تكون قدمك اليسرى إلى الأمام، وأن تثني ركبتيك قليلًا. مد يديك للأمام وأنت متشبث بمسدسك جيدًا. أنظر عبر المسددتين لكي تصوب طلقتك بشكلٍ صحيح تجاه الهدف. والآن أنت مستعد لإطلاق النار».

كنت أفعل كل شيء يصفه لي، بينما أحاول تخزين كل شيء في عقلي لكيلا أنساه لاحقًا. أخذت عدة أنفاس عميقة وأنا أنظر إلى الهدف عبر المسددتين، ثم كتمت أنفاسي، وأطلقت النار.

شعرت بارتداد السلاح في يدي وكتفي والرصاصة تطلق أزيزًا حادًا وهي تشق الهواء قبل أن ترتطم بالجدار فنظرت إليها في خيبة أمل ولكن الفأر قال: «لا تبتئس، إنها محاولتك الأولى».

مددت يدي اليسرى لأفرك كتفي الأيمن فقال لي الفأر: «هذا ارتداد الرصاصة، ستعتاد هذا الشعور».

فجأة شعرت بشخص آخر يدخل عبر الباب، فنظرت لأرى مهند يقف عند المدخل وهو يلوح لي مشجعًا قبل أن يقول: «جئت للمشاهدة فحسب».

نظرت ناحية الفأر متسائلًا فقال مبتسمًا: «لا بأس». ثم أمرني بتصويب المسدس مرةً أخرى ناحية العلبة.

أخذت نفسًا عميقًا مشبعًا برائحة البارود من أثر الطلقة الأولى، ثم خيم صمتٌ تام، قبل أن تضغط إصبعي الزناد مرةً أخرى. شاهدت العلبة وهي تطير في الهواء قبل أن تهوي أرضًا بدوي معدني مرتفع، وسمعت صوت مهند يصيح: «مرحى يا فتى!».

ارتسم الفخر على وجه الفأر ثم قال وهو يربت على كتفي: «لقد نجحت من الرصاصة الثانية، هذا مثير للإعجاب حقًّا». ثم تلفت حوله وقال: «فلتجرب رصاصة أخرى، ولكن ليس أكثر من ذلك، فالرصاص ثمين حقًّا هذه الأيام».

هذه المرة تركني أستعد بنفسي دون أن يرشدني. أخذت نفسًا عميقًا آخر، وشعرت أن الزمن تجمد حولي لثوانٍ وأنا أفكر، هل سأقدر على إصابة الهدف مرة أخرى؟ أم أن المرة الأولى كانت مجرد صدفة؟ نحيت الفكرة جانبًا وأنا أركز على هدفي. تحركت إصبعي ضاغطة على الزناد، فشقت الرصاصة الهواء بأزيزها المعتاد، ثم تطايرت العلبة في الهواء قبل أن تسقط أرضًا، فشعرت بنفسي أبتسم ابتسامة عريضة.

الفصل الثالث

انتابني حماس شديد بينما أستعد للخروج من الملجأ مع القافلة. أحكمت ربط قناع الغاز حول رأسي وتيقنت من أن المسدس الذي أعطاه لي مروان في حزامه. قال لي القائد: «اليوم ستخرج من الملجأ كجندي يا عمر، ولكن تذكر ما قلته لك دومًا عن الحياة بالخارج».

أومأت برأسي وأنا أقول: «شكرًا لك أيها القائد، سأتذكر نصائحك دومًا».

أما مريم فقد ارتسم الحزن على وجهها وهي تودعني وتقول: «انتبه لنفسك، وعد إلينا سالمًا».

ابتسمت وقلت بلهجة مُطَمْئِنَة: «لا تقلقي، أنا لست وحدي، سأعود بالتأكيد». ثم التفتُّ إلى باب الملجأ المفتوح وضوء الغروب يتسلل منه وقلت: «تعرفين كم اشتقت إلى هذه اللحظة».

قالت بابتسامة مشجعة: «أعرف يا عمر».

عند الباب كان هناك مجموعة من الشبان يحملون جوالات فطر عيش الغراب إلى الخارج، والبعض يعود إلى الداخل ليحمل المزيد.

كنت متفهمًا لمخاوفها، فقد شعرت بدوري بالقلق من مواجهة المجهول، ولكن شعرت بالاطمئنان أيضًا لأن الفأر سيكون بجواري، وكذلك صديقي مهند.

في تلك اللحظة شعرت بيدٍ تضربني على كتفي لتنتزعني من شرودي، وصوت مهند يقول: «هل أنت مستعد لنزهتك الأولى خارج الملجأ يا صديقي؟».

جفلت، ثم ابتسمت له، أما مريم فصاحت باستنكار: «نزهة؟».

ضحك مهند بصوتٍ عالٍ ثم قال: «لا تقلقي، سيكون بأمانٍ معي». ثم التفت إليَّ وقال بجدية: «هل أنت مستعد؟».

أومأت برأسي وقلت: «مستعد».

فقال مهند وهو يسير نحو الباب: «إذن هيا بنا».

نظرت إلى مريم نظرة أخيرة ولوحت لها مودعًا، فلوحت لي بيدها اليمنى وقد ضمت يدها اليسرى إلى صدرها.

ترددت وأنا أفكر في قول شيء ما، ثم صمتُّ وتوجهت ناحية الباب لأغادر مع مهند.

شعرت بالحماس يجتاح جسدي بأسره، بينما ترتجف ساقاي، ولكنني بذلت قصارى جهدي لأخفي هذا، لا أريد أن يظن أحدٌ أنني خائف. أنا لست خائفًا، أنا مستعد.

نظرت ناحية الأفق برهبة وأنا أخطو خارج الملجأ، المرة الأولى التي أخرج فيها منذ مولدي. كانت الشمس قد غربت ولكن الظلام لم يكن قد حل بعد، فصبغ الشفق الأحمر السماء بلونه الدامي وقد انعكس

اللون الأحمر على الأطلال والخرائب من تحته.

كانت هناك أربع سيارات نقل تقف أمام الملجأ، والشبان يضعون جوالات الفطر في صناديقها المعدنية. كان الفأر يتبادل الحيث مع القائد مروان بصوت خافت وعندما انتبه لوجودي نظر إليَّ مبتسما وقال: «هل أنت مستعد؟».

قلت ساخرًا: «لقد سمعت هذا السؤال عدة مرات اليوم، ولكن أجل، أنا مستعد».

نظر الفأر إلى سيارات النقل التي أوشكت صناديقها على الامتلاء وقال: «حسنًا، لقد شارفنا على أن نكون مستعدين بدورنا».

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى كان الجميع قد أنهوا وضع جوالات الفطر في صناديق عربات النقل، ثم وجدت نفسي أجلس بجوار الفأر في إحدى العربات، بينما جلس الأخير أمام مقود السيارة، ثم أدار المحرك فراح يهدر كوحشٍ عتيق قد استيقظ من سباته، وشعرت بالسيارة وهي ترتجف. لم أركب واحدة من هذه السيارات من قبل وإن كنت قد سمعت صوتها من داخل الملجأ عند خروجها في الرحلات السابقة. قيل لي إنه في الماضي كانت السيارات تتزاحم في الطرقات ويذهب بها الناس إلى كل مكان، ولكنها الآن مجرد بقايا من عصرٍ قديم، حتى الوقود صار نادرًا ويتقاتل عليه الناس. جالون واحد من الوقود يكلف الملجأ الكثير للحصول عليه.

حرك الفأر ناقل الحركة فبدأت السيارة تتحرك ببطء، ثم تسارعت حركتها بالتدريج، ومن ورائها تحركت العربات الثلاثة الأخرى. حرك ناقل الحركة مرةً أخرى فزادت السرعة، ثم قال لي مازحًا: «ربما أعلمك قيادة واحدة من هذه العربات في المستقبل، وإن كنت أشك أنك ستحتاج إلى هذه المهارة، فهذه الأشياء على وشك الانقراض».

ثم راح يشرح لي نظريًّا كيف يعمل ناقل الحركة، والدواسات المختلفة، لم يبدُ الأمر صعبًا، ولكني شعرت بالرهبة من أن أحرك بنفسي هذه الكتلة المعدنية الضخمة بمثل هذه السرعة.

كانت الشمس قد اختفت تمامًا، والشفق الأحمر ذاب في ظلام الليل، فأشعل الفأر مصابيح السيارة الأمامية. كان هناك بعض الطرق الأسفلتية التي لا تزال ممهدة، ولكن البعض الآخر كان محطمًا تمامًا وكانت السيارة ترتجف وتتمايل عند السير عليها. كان ضوء السيارة يقع على بعض المباني المتهدمة والمحترقة، بقايا حرب ما بعد الكارثة، فتأملتها في فضول بينما أحاول تخيل شكل الحياة في الماضي.

قلت له فجأة: «لماذا تخرج أنت بالقافلة هذه المرة؟».

نظر إليَّ الفأر بطرف عينه وقال: «ماذا تقصد؟».

هززت كتفيَّ وقلت: «أعرف أنك شخص كثير الأسفار خارج الملجأ ولا تحب أن تستقر في مكان واحد لوقت طويل، ولكنك لم تتحمل مسؤولية قافلة من قبل، لطالما كنت تحب أن تكون وحدك».

ابتسم الفأر وقال: «ربما لكسر الملل. لكل شيء مرة أولى، أليس كذلك؟».

لم تبدُ إجابته مقنعة، وكنت على وشك أن أسأله سؤالًا آخر عندما وقع ضوء السيارة فجأة على شيء آخر، شخص شبه عارٍ يقف في منتصف الطريق، كان جسده ممتلئ بالبثور والبقع الحمراء، ينظر إلى السيارة وهي تقترب منه، ولكن أكثر شيء مخيف به كان حدقتيه البيضاوين تمامًا وهو يحدق مباشرةً إلى الضوء. أطلق الفأر نفير السيارة ثم أدار المقود جانبًا ليتفادى الرجل، وظننت أنه سيصدمه ولكن الرجل قفز جانبًا بحركة غريزية حادة.

صحت في هلع: «ما هذا؟».

قال الفأر وهو ينظر عبر مرآة السيارة: «هذا واحدٌ من المتحولين؟».

لقد سمعت عن المتحولين من قبل، هؤلاء الذين تعرضوا لتشوهات جينية بسبب الأشعة النووية، أو بسبب أشعة الشمس المهلكة. الغلاف الجوي لم يعد صالحًا لحماية البشر والمخلوقات الحية من آثار الشمس الضارة. سألته: «ولكن عينيه... هل رأيتهما؟». أومأ الفأر برأسه فسألته: «ما الذي حدث له؟».

قال الفأر: «إنه أعمى. الشمس دمرت عينيه. بعض المتحولين ليس لديه القدرات العقلية الكافية لمعرفة كيف يحمي نفسه من الشمس. ولكنهم يتصرفون بغريزة حيوانية عند الخطر».

كانت الفكرة مرعبة بالنسبة إليَّ، أسوأ حتى من الموت ذاته.

ساد الصمت بيننا لبعض الوقت، لا يقطعه سوى صوت هدير المحرك. تشاغلت بالنظر إلى الظلمة بالخارج، بينما آمل أن نصل إلى وجهتنا سريعًا.

غرقت في أفكاري الخاصة لفترة من الوقت، حتى أفقت منها على صوت جديد اختلط مع صوت محركات عربات النقل. أصغيت السمع فأدركت أنه صوتِ نباحٍ أو عواء. فجأة رأيت قطيعًا من الكلاب يركض ناحية السيارة، أفواهها مفتوحة يتطاير منها اللعاب، أعينها بيضاء قد أعمتها الشمس، تطارد الصوت والرائحة. قفز بعضها أمام السيارة فصدمتها بسرعتها الكبيرة لتتحول الكلاب إلى جثث مفرومة من الدماء واللحم. مالت العربة إلى جانبها قليلًا حين داست فوق إحدى الجثث فصرخت في رعب ولكن العربة اعتدلت مرة أخرى وأكملت طريقها.

نظرت عبر المرآة فرأيت السيارات الأخرى قد ارتبكت بعض الشيء مع ظهور قطيع الكلاب البرية، ولكنهم حذوا حذو الفأر ودهسوا الكلاب بإطارات السيارات الثقيلة، وسرعان ما تجاوزت السيارات بسرعتها عدو قطيع الكلاب، فراحت تختفي في الأفق حتى ابتلعتها الظلمة، وإن ظل صوتها يصل إليَّ ويتردد صداه في عقلي.

نظر الفأر بقلق إليَّ، ثم قال محاولًا أن يُطمئنني: «لم تكن تظن أن الأمر نزهة حقًّا، أليس كذلك؟».

هززت رأسي، ربما لأنفض عن نفسي المشاعر المضطربة التي اجتاحتني كالإعصار، ثم قلت: «أعرف أنها ليست نزهة، ولكني لم أكن مستعدًّا لـ... لكل هذا». أدركت في هذه اللحظة كم كان عنادي طفوليًّا، الرغبة في الخروج قد أعمتني حقًّا عن التفكير في الأخطار. ولكن هل أنا مستعد للتراجع الآن؟ هل أنا مستعد للاعتراف بخطئي؟ هززت رأسي وأنا أقول لنفسي؛ كل هذه دروس سأتعلم منها عن الحياة بالخارج.

لم أبُح بأفكاري بصوتٍ عالٍ، ولكن الفأر قال لي: «ستعتاد الأمر سريعًا، هذه هي الحياة».

أكملت القافلة رحلتها عبر طرق القاهرة المتعرجة، وقد لذت بالصمت، غارقًا في أفكاري الخاصة، ومن آن لآخر ألمح شيئًا ما في الظلام، ربما هو أحد المتحولين يسرع متتبعًا غريزته للهرب من الخطر المجهول بالنسبة إليه، أو لعله حيوانٌ بريٌّ سلبته الشمس بصره، وسرعان ما ستسلبه حياته، ولكني لم أشاهد شيئًا آخر مخيفًا كقطيع الكلاب البرية.

فجأة أدركت أن السيارة تسير بمحاذاة النيل، كانت مياهه سوداء في ظلمة الليل، تعكس صفحته على استحياء ضوء القمر والنجوم الباهت الذي يكافح ليشق السحب الكثيفة، ثم شعرت بالسيارة تبطئ سرعتها قبل أن ينعطف الفأر ليعبر جسرًا من الجسور القديمة التي لم تنهدم بعد الكارثة وظلت تؤدي وظيفتها في ربط ضفتي النيل ببعضهما. لم يبد الجسر آمنًا، وقد امتلأت أرضيته بالشروخ، فحبست أنفاسي والسيارة تعبر ببطء إلى الجانب الآخر، بينما السيارات الثلاثة الأخرى تنتظرها، وما إن وصلت العربة إلى الجانب الآخر حتى تحركت سيارة أخرى. لم يمض وقت حتى عبرت السيارات جميعها الجسر ثم أكملت طريقها عبر أطلال القاهرة وخرائبها.

سألته فجأة: «ألم نقترب بعد؟».

ابتسم الفأر وقال: «اقتربنا أكثر مما تظن».

أكملت السيارة طريقها لبعض الوقت ثم أبطأت حركتها، وقد لاحظت عبر زجاج السيارة الأمامي وجود بعض البراميل المشتعلة، وعلى ضوئها رأيت بعض الرجال المسلحين بالبنادق، الذين أشاروا إلى السيارات المقتربة لكي تتوقف. ضغط الفأر على مكابح السيارة حتى توقفت أمام أقرب الرجال إليه، كان يرتدي قناع غاز فلم أستطع تبين ملامحه.

قال الرجل للفأر: «إلى أين أنتم ذاهبون؟».

قال الفأر: «الشحنة الجديدة، لديك خبر بشأنها بالتأكيد». ثم أخرج من جيبه شارة معدنية مميزة، عرفت منه لاحقًا أن كل ملجأ له شارة محددة تميزه، ولا تُمنح إلا لأشخاص مهمين للغاية يتمتعون بالثقة في ذلك الملجأ.

نظر الرجل إلى الشارة ثم نظر إلى صناديق العربات الأربعة فرأى جوالات الفطر. أومأ برأسه، ثم التفت إلى الوراء وقال: «أفسحوا الطريق».

أطاع المسلحون الأمر مفسحين الطريق للسيارات، التي واصلت طريقها لمسافة قصيرة، قبل أن تتوقف مرة أخرى بجوار مبنى ليس كبيرًا، فأطفأ الفأر محرك السيارة قبل أن يهبط منها، ففعلت مثله، ثم سألته: «ألن تخبرني إلى أين نحن ذاهبون؟».

ابتسم الفأر وقال: «لقد وصلنا بالفعل».

تلفت حولي في حيرة، لم يكن أمامي سوى مبنى صغير، لا يمكن أن تكون هذه هي وجهتنا.

شاهدت مهند صديقي يهبط من إحدى العربات الأخرى. لوحت له بيدي، فصاح مهند قائلًا: «سألحق بكما بعد قليل. استمتع بوقتك».

قلت لنفسي: *ما الذي يقصده؟* ثم التفتُّ إلى الفأر الذي قال لي وهو يسير نحو باب المبنى الصغير: «هيا بنا».

نظرت مرة أخيرة ناحية السيارات فرأيت رفاقي من الملجأ ينزلون الجوالات من العربة، بينما مهند يمسك بسلاحه دون أن يتخلى عنه، وبعض المسلحين - الذين ينتمون بالتأكيد إلى وجهتنا الجديدة - يحيطون بالعربات ويتابعون ما يحدث باهتمام.

خطا الفأر عبر البوابة التي فتحها له رجل مسلح آخر، فلحقت به على الفور هابطًا عبر سلم ضيق يودي إلى بوابة أخرى، وما إن عبرتها حتى وجدت نفسي في مكانٍ مظلم، وأصوات عديدة مختلطة تأتي من مكانٍ أعمق. كان هناك العديد من السلالم المتجاورة التي تؤدي إلى أسفل، وبوابات أخرى، ولكن هناك ضوء ينبعث منها، والصوت يزداد علوًّا وصخبًا، وما إن عبرت البوابة الأخيرة وراء الفأر حتى شعرت أنني قد انتقلت إلى حياةٍ أخرى.

تجمدت في موضعي وأنا أنظر إلى مكان واسع مضيء صاخب يضج بالحياة؛ بشر بهيئات مختلفة، موسيقى غريبة تصدر من مكان ما والبعض يهزون رؤوسهم على أنغامها، بينما بعض النساء يتمايلن مع اللحن، روائح طعام مختلفة تأتي من اتجاهات عديدة، وقد اختلطت بها روائح أخرى أجهل طبيعتها، بعضها روائح طيبة، وبعضها ليس كذلك. لم تكن الأضواء تنبعث من نيران، ولكنها كانت مصابيح كهربائية صفراء وبيضاء متناثرة في أماكن عديدة، وإن كانت بعض الأركان تكتسي بالظلال، وبعض الأشخاص يجلسون في تلك الأركان المظلمة يتصاعد الدخان من حولهم.

كان المشهد أغرب من قدرتي على استيعابه دفعة واحدة، فرحت أجول بعينيَّ في المكان مرة تلو الأخرى، وفي كل مرة أنتبه لتفاصيل جديدة، وفي النهاية انتزعني من ذهولي صوت الفأر وهو يخلع قناع الغاز: «مرحبًا بك في المترو».

«المترو؟». كررت الكلمة وراءه وأنا أحاول ربطها بما أراه أمام عينيَّ ولكنها بدت كلمة مبهمة. راح عقلي يموج بالأسئلة، ثم خلعت قناع الغاز بدوري وأنا أفكر في طرح أول أسئلتي بالفعل، ولكن جذب انتباهي

رجلٌ خرج فجأة من بين الزحام، وهو ينظر إلينا مباشرةً. كان عجوزًا، ربما في العقد السابع من العمر، وجهه المليء بالتجاعيد قد حفرت فيه السنوات أخاديدَ عميقة، وشعره طويل أبيض اللون، ولكن عينيه حادتان. كان يرتدي معطفًا جلديًّا طويلًا، ويحمل في يده عصا سوداء، لوح بها ناحية الفأر وقال: «إذن ما أخبرني به رجالي صحيح؛ الفأر قد جاء بنفسه!».

ضحك الفأر وقال: «الاتفاق هو الاتفاق يا زعيم». بينما يضع قناع الغاز في حقيبته ويشير إليَّ أن أفعل المثل.

لوح الرجل بيده وقال: «دعك من هذه الألقاب». ثم التفت إليَّ قائلًا: «ومن هذا الفتى؟».

ربت الفأر على ظهري وقال: «هذا ابني الروحي».

قال الرجل باستنكار: «ابنك؟ لم أعتقد أنك تبالي في هذه الحياة المقيتة بأحد سوى نفسك!». ثم مد يده إليَّ وقال: «أنا منصور، مرشد الأرواح الضائعة».

تعجبت من حديثه، ثم انتبهت لليد الممدودة إليَّ فصافحته على الفور وأنا أقول: «أنا... عمر».

كانت قبضة منصور قوية ولا تعكس سنوات عمره. نظر منصور إليَّ مليًّا ثم قال: «هذه هي المرة الأولى لك خارج الملجأ، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي فضحك منصور وقال: «حسنًا، أنا متشوق إلى سماع حكاية هذا الابن الروحي أيها الفأر فأنت لم تخبرني عنه من قبل، ولكن دعنا لا نتحدث هنا في هذا الزحام والضجيج، اتبعاني».

سرنا وراء الزعيم منصور، ولاحظت أن هناك رجلين مفتولي العضلات يسيران على مسافة قريبة من ثلاثتنا، فنظرت إليهما بقلق، ولكن منصور قال: «لا تشغل بالك بهما، إنهما من حرسي الخاص. لا أحتاج إلى الحرس حقًّا داخل المترو، ولكن أن تكون حذرًا خيرًا من أن تكون ميتًا».

أومأت له برأسي ولكن عقلي كان لا يزال مشغولًا بمحاولة استيعاب الحياة الغريبة في هذا المكان. إنه يختلف تمامًا عن الملجأ الذي لا يوجد فيه كل هذا الصخب والضجيج، والكثير من الناس الذين يتصايحون. رأيت حينها مصدر الموسيقى؛ بعض الطبول والدفوف والآلات الوترية الصغيرة. كان هناك رجل يداعب جسد إحدى الراقصات فصفعَته على وجهه ليضحك بعض الرجال ثم أكملت الرقص كأن شيئًا لم يحدث. لاحظت أن بعضهم يمسكون في أيديهم بكؤوس زجاجية تحتوي على سائل بني اللون لا أعرف كنهه، ويحركون رؤوسهم كأنها ثقيلة على أكتافهم. مررت بجوار إحدى العربات تعرض لحمًا مشويًّا للبيع مقابل الثمن المناسب. كانت الرائحة شهية بالفعل فقلت للفأر بصوتٍ عالٍ لكي يسمعه في هذا الضجيج: «ما مصدر هذا اللحم؟».

هز الفأر كتفيه وقال: «ربما من الأفضل لك ألا تسأل، وألا تعرف». لم تعجبني الإجابة، وشعرت في هذه اللحظة أن شهيتي ناحية هذا اللحم قد تلاشت.

اقتادنا منصور عبر الزحام حتى بدأ يتلاشى قليلًا ووصلنا إلى بابٍ مغلق، فتحه منصور ودلف إلى الداخل وهو يشير إلينا للحاق به. خطا الفأر أولًا ثم خطوت من ورائه مترددًا، وأخيرًا لحق بنا واحد من حرس منصور الشخصيين. كان بالحجرة مصباح كهربائي، وكانت مؤثثة بشكلٍ جيد، بمكتب خشبي ووراءه مقعد جلدي أسود، وأمامه كرسيان خشبيان. جلس منصور وراء المكتب وأشار إلينا بالجلوس فجلسنا، بينما ظل الحارس واقفًا في ركن الحجرة صامتًا.

فتح منصور أحد أدراج المكتب وأخرج منه علبة معدنية فتحها لأرى أن بها عددًا من السجائر. مدها منصور إلينا فأخذ الفأر واحدة، ثم نظر منصور إليَّ فقال الفأر: «إنه لا يدخن».

أومأ منصور برأسه متفهمًا وهو يشعل لنفسه سيجارةً ويقول: «الأجيال الجديدة لا تعرف شيئًا عن التدخين، كما أنه لم يعد هناك الكثير من السجائر على أي حال. ولكن شخصًا مثلي في سنواته الأخيرة يرغب في الاستمتاع بكل لحظةٍ منها».

قال الفأر وهو يشعل سيجارته: «سنوات؟ هل يمكن أن أقول إنك متفائل أكثر من اللازم؟».

نفث منصور دخان سيجارته في وجهه وهو يقول متجهمًا: «وهل يمكن أن أقول إنك وغدٌ سليط اللسان أكثر من اللازم؟».

حينها قال الفأر بارتباك: «لم أقصد أيها الزعيم...».

قاطعه منصور بضحكة عالية قبل أن يقول: «أعرف، أعرف، أنا أمزح معك».

حينها زفر الفأر قبل أن يقول: «لا يمكن لأحد أن يتحمل سخط زعيم المترو».

ضحك منصور من جديد وقال: «كنت سأقول إنك تبالغ، ولكني أعرف أنك محق».

في تلك اللحظة دخل أحد الرجال وهو يحمل زجاجة شفافة بها سائلٌ بني، وثلاثة أكواب زجاجية صغيرة، فقال لي منصور وهو يمسك بالزجاجة وينتزع سدادتها: «أنت لا تدخن، ولكن هل لك ببعض الشراب إذن؟».

كنت على وشك أن أقول شيئًا ولكن الفأر قال: «ولا يشرب هذه الأشياء أيضًا».

ضحك منصور وهو يصب بعض الشراب البني في كوب من الأكواب: «أنت تجبره على عيش حياة مملة يا رجل».

ثم مد بالكوب إلى الفأر الذي أمسك به وقال: «أنا لا أجبره، هذا اختياره». ثم قرب الكوب من أنفه ليشم رائحته قبل أن يأخذ منه رشفة ويقول: «لا بأس به. فطر؟».

صب منصور كأسًا لنفسه وهو يقول: «ذائقتك حادة كالمعتاد. أجل إنه فطر من أجود الأنواع». ثم التفت إليَّ وقال: «ليس عيش غراب مثل الموجود في ملجئكم ولكنه نوعٌ آخر أكثر ندرة نستخدم الكلاب للبحث عنه في الظلام».

شعرت بالدهشة لسماع هذا، وتذكرت الكلاب البرية المخيفة التي كانت تلاحق القافلة، فقلت في حيرة: «الكلاب؟ كيف؟».

قال منصور: «الكلاب لديها حاسة شم قوية، يمكن تدريبها للبحث عن أشياء كثيرة، وخصوصًا تلك التي فقدت بصرها؛ تزداد حاسة الشم لديها وتصير أكثر حدة».

تلفتُّ حولي ثم قلت: «ما هذا المكان بالضبط؟».

رفع منصور ذراعيه وقال: «هذا المكان هو مملكتي الصغيرة؛ المترو».

قلت: «لقد سمعت هذه الكلمة، ولكني لا أعرف ما تعنيه».

قال الفأر: «المترو في الماضي كان وسيلة لانتقال الناس من محطة إلى أخرى، شبكة معقدة من المحطات أسفل الأرض».

أما منصور فقد شرد بعينيه كأنما ينظر عبر حاجز الزمان إلى سنوات مضت. «لقد كانت حياة أخرى، وزمنًا مختلفًا». ثم سادت عدة لحظات من الصمت قبل أن يفيق من شروده ويقول: «ولكنه الآن ملاذٌ للناس من الشمس القاتلة، العيش أسفل الأرض هو أفضل شيء ممكن في هذه الآونة، هذه ليست هي المحطة الوحيدة، ولكنها المحطة المركزية التي أبسط من خلالها نفوذي على المحطات الأخرى. هناك شبكة من الأنفاق تربط بين المحطات كما قال الفأر، لذا فبإمكانك الانتقال من محطة إلى أخرى بالسير تحت الأرض دون الحاجة إلى الصعود إلى السطح ومواجهة الشمس أو أي من الأخطار الأخرى».

سألته: «ألا توجد أخطار في محطات المترو أو أنفاقها؟».

أشعل منصور سيجارة أخرى، ثم قال وهو ينفث دخانها: «بالطبع هناك أخطار أخرى، وهذا ما يجعل وجودي ورجالي ضروريًّا لحماية هؤلاء البشر بالخارج. إنها معركة بقاء، وأنا من أمنحهم الشعور بالأمان».

قلت في حيرة: «لم أفهم، هل تمنحهم الأمان؟ أم الإحساس بالأمان؟».

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه منصور وقال: «هل يوجد فارق؟».

تدخل الفأر قائلًا: «دعنا نتكلم عن الصفقة التي بين يدينا الآن».

قال منصور وهو ينفض رماد سيجارته: «حسنًا، أخبرني ما الكمية التي أحضرتها، وما الذي ترغبون فيه في المقابل؟».

وبعد هذا استغرق الفأر ومنصور بعض الوقت في التحدث في تفاصيل الصفقة، بينما أنصت إليهما صامتًا. كان نصف عقلي يتابع الحوار الدائر، والنصف الثاني يفكر في عالم المترو الغريب الواقع وراء باب الحجرة التي أجلس فيها، فقد كان الصوت لا يزال يصل إليَّ ضعيفًا مكتومًا من وراء الباب.

في النهاية سمعت منصور يقول: «حسنًا، كل ما ترغبون فيه موجود لديَّ بالفعل، ولكن ترتيب الأمر سيستغرق بعض الوقت، مما يعني أنكم ستبيتون في محطتنا هذه الليلة».

قال الفأر: «في الواقع كنت أتمنى أن ينتهي الأمر سريعًا ونعود اليوم إلى الملجأ قبل شروق الشمس».

قال له منصور: « لم يتبقَّ على شروق الشمس سوى بضع ساعات. لا يوجد وقت كافٍ لإنزال حمولتكم من السيارات ووضع الحمولة الجديدة ثم قطع طريق العودة إلى الملجأ». ثم لوح بيده وقال: «لا تقلق، كل ما ترغبون فيه من طعام وشراب بلا مقابل، فأنتم اليوم ضيوفي».

ابتسم الفأر وقال: «في الواقع لم يكن هذا ما يدور في ذهني، ولكن شكرًا على كرم ضيافتك يا زعيم».

ابتسم منصور وقال: «على الرحب والسعة».

أشار منصور إلى الحارس وقال: «فلتبلغ الرجال بأن الفأر ورجاله في ضيافتي حتى مغادرتهم».

قال الحارس بصوت أجش: «كما تأمر أيها الزعيم».

حينها نظر منصور إلى الفأر وقال: «فلتقضِ وقتًا ممتعًا في المترو».

قال الفأر وهو يعتدل واقفًا من جلسته: «سأفعل بالتأكيد».

ثم أشار إليَّ فلحقت به على الفور خارجين من حجرة منصور، عائدين إلى عالم المترو الغريب الصاخب.

الفصل الرابع

مشيت بجوار الفأر وبعض الأعين الفضولية تتبعنا أينما سرنا. كان هناك رجال مسلحون في كل مكان، هؤلاء الذين يحافظون على الأمن في المكان كما خمنت من حديث منصور، ولكني لم أستطع أن أشعر بالأمان، تمنيت أن ننتهي من هذه الصفقة سريعًا ونعود إلى الملجأ مرةً أخرى. لم يقل الفأر شيئًا وإن كان يتلفت حوله كأنه يبحث عن شيءٍ ما أو شخص ما. سرعان ما رأيت بعض الوجوه المألوفة، من بينهم وجه صديقي مهند، فناديته بصوتٍ عالٍ.

لوح مهند بيده إلينا بابتهاج لكي ننضم إلى رجال الملجأ الآخرين. ولكن الفأر قال لي: «اذهب واقضِ بعض الوقت مع أصدقائك يا عمر، لدي أمر آخر لأهتم به».

سألته: «أين ستذهب؟».

ابتسم الفأر وقال: «لا تقلق، لن أغادر المترو، سأكون بالجوار».

شاهدته وهو يشق طريقه عبر حشد البشر متعمقًا أكثر في المترو، وما إن ابتلعه الزحام، حتى التفتُّ من جديد إلى صديقي مهند الجالس مع رفاقنا واقتربت منه. كانوا يجلسون على كراسي صغيرة أمام طاولة ملطخة بآثار سوائل مختلفة، وأمام كل واحد منهم كوب زجاجي ممتلئ بسائل بني داكن كهذا الذي قدمه منصور للفأر. كانت هناك أصوات موسيقى تأتي من مكان ما حيث يجلس رجل أمام مجموعة من الطبول صنعها من آنية قديمة، يطرق عليها بمهارة شديدة مما يجعل هذه الخردة تطلق ألحانًا جميلة، وبعض الناس يهزون رؤوسهم مع أنغامها.

سمعت مهند يسألني وأنا أجلس على الكرسي المجاور له:» أين ذهب الفأر؟».

هززت كتفيَّ وقلت: «لا أعرف». ثم نظرت إلى الكأس الزجاجية التي يمسك بها مهند وسألته: «ما هذا الذي تشربونه؟».

قال مهند وهو يمد لي بالكأس: «هذه جعة. هل ترغب في بعضها؟».

هززت رأسي وقلت: «لا أعتقد أنني يجب أن أفعل، لقد قال الفأر إن هذه الأشياء ضارة».

مط مهند شفتيه وقال: «لقد رأيت الفأر يشرب من قبل، ربما يجب عليك أن تجرب».

ترددت ولكن مهند وضع الكأس في يدي، فرفعت الكأس إلى شفتيَّ ببطء، وتناولت منها رشفة. شعرت على الفور بموجة حارقة تجتاح فمي وأنفي وعينيَّ، وتلوى وجهي في امتعاض شديد.

ضحك مهند وقال: «الإحساس ليس سارًّا في المرة الأولى، ولكنك ما أن تعتاد طعمه المر ستجد أنه يمنحك إحساسًا رائعًا بالسعادة».

أعدت الكأس إليه وأنا أقول باشمئزاز: «لا، شكرًا لك، لا أريد». لم تكن الموجة الحارقة قد انحسرت بالكامل من فمي.

أخذ مهند الكأس مني وتناول منها جرعة كبيرة بانتشاء ثم قال: «هذه هي مرتك الأولى في المترو، هناك الكثير من الأشياء لتجربها، لهذا أحب المجيء إلى هنا. هذا أفضل من نوبات الحراسة الطويلة المملة أو جلب الماء من النيل».

ثم التفت إلى الرجل الجالس وراء الطاولة وقال له: «أحضر له مشروبًا غير كحولي».

أفرغ الرجل بعض محتويات زجاجة في قدح فارغ، ثم قدمه لي. ارتشفت منه رشفة مترددة، ولكن الطعم لم يكن سيئًا فأخذت جرعة كبيرة لأروي العطش الحاد الذي أشعر به في تلك اللحظة.

قال مهند: «أتعرف، هناك طريق آخر مختصر إلى السعادة ولكني لم أجربه بنفسي؛ نوعٌ من عيش الغراب، يطلقون عليه اسم الفطر السحري، يمكنه أن يأخذك إلى عوالم أخرى. أتمنى أن أجربه يومًا ما، ولكنه باهظٌ ونادر، ولا يوجد الكثير منه في تلك الأنحاء».

تنهدت ثم تناولت جرعة أخرى من مشروبي، لطالما حدثتني مريم عن الانتقال إلى عوالمَ أخرى، ولكنها تفعل هذا بقراءة الكتب، تقول إن القراءة تأخذ المرء إلى أزمنة مختلفة وأماكن متعددة، إنها وسيلة للسفر عبر الزمان والمكان. لقد حكت لي ذات مرة عن رواية تحكي عن آلة زمن، أخذت البطل إلى المستقبل، ولكنه وجده مستقبلًا كئيبًا ففضل العودة إلى زمنه، فقط لتأخذه الآلة إلى مستقبلٍ أبعد حيث تحتضر الأرض. تمنيت لو أن لي آلة الزمن كهذه، ولكني لا أريد الذهاب إلى المستقبل، بل سأعود إلى الماضي، قبل موت والديَّ، فقط لأحظى بنظرة واحدة منهما، حضنٍ واحد، أن أعيش تلك اللحظة الدافئة إلى الأبد.

فرقع مهند إصبعيه أمام عينيَّ وقال: «مرحبًا، أين ذهبت؟».

التفت إليه ثم ابتسمت ابتسامة شاحبة وقلت: «في رحلة عبر الزمن».

قال مهند في حيرة: «عبر... ماذا؟».

قلت له: «لا تهتم، مجرد خاطرة سخيفة». ثم تجرعت ما تبقى في كأسي قبل أن أسأله: «ألم تلاحظ أن الجميع يعاملون الفأر باحترام شديد؟ لم أكن أعرف أنه يحظى بمثل هذه الشعبية!».

قال مهند: «الفأر يرفض الارتباط بمكانٍ محدد ويحب التجول بين أطلال القاهرة وخرائبها، إن له علاقات خاصة للغاية، لن أتعجب إن كان على علاقة بأبناء القيامة ذاتهم».

هززت رأسي وقلت: «أستبعد هذا». ثم صمتُّ قليلًا قبل أن أسأله: «وماذا عن منصور؟ ماذا تعرف عنه؟».

وضع مهند سبابته على شفتيه وقال على الفور: «هششش! أخفض صوتك». ثم همس: «لا أحد يتحدث عن زعيم المترو هكذا».

تلفتُّ حولي بقلق. لم يكن هناك أحد ينظر إلينا أو ينتبه لحديثنا، ولكني قلت بصوتٍ هامسٍ بدوري: «لماذا؟».

نظر مهند ناحية الساقي ولكنه كان مشغولًا بتقديم المشروبات إلى زبائن آخرين، فعاد بنظره إليَّ وقال: «منصور يمتلك سلطة رهيبة. محطات المترو تمثل نقطة تمركز عسكرية واقتصادية؛ المحظوظون فقط هم من يملكون فرصة العيش في المترو والعمل تحت راية منصور. إنه القطب الثاني للقوة بعد أبناء القيامة. ولكن على عكس الملاجئ الأخرى فإن العلاقة متوترة ما بين المترو وأبناء القيامة، فهم لا يستقبلون الفطر المعدل جينيًّا من أبناء القيامة، وفي المقابل لا يمكن لأبناء القيامة التدخل في شؤون المترو».

شعرت بالدوار مما أسمعه، لم أتخيل أن أجد هذا الكم من التعقيد عندما أخرج من الملجأ. كنت أعرف أن الحياة بالخارج عبارة عن محاولة يائسة للنجاة في بيئة قاسية، ولكن يبدو أن البشر يصرون على تعقيد الأمور حتى في أسوأ الظروف!

تذكرت شيئًا فقلت: «لقد قال منصور للفأر إن كل ما نأكله أو نشربه هنا على حسابه، لا يبدو شخصًا سيئًا».

تجرع مهند ما تبقى في كأسه دفعة واحدة فاحتقنت عيناه، قبل أن يقول: «هراء! إن هذا ما يحدث كل مرة، هذا يعتبر جزءًا من الصفقة بين الملجأ والمترو بشكلٍ ضمني، رغم أنه ليس اتفاقًا معلنا. إن المترو بشكل أساسي غير صالح لزراعة الفطر، لذا فهم يحتاجون إلى عيش الغراب الذي توفره لهم الملاجئ الأخرى «. ثم بصق قبل أن يكمل: «الطعام هنا ليس أفضل حالًا من الملجأ، فهو يتكون بشكلٍ أساسي من الفطر، أما اللحم والخضراوات والفاكهة فهي أشياء باهظة الثمن لا يقدر الكثيرون على ثمنها، لهذا فأنا لا آتي هنا لكي آكل ولكن لكي أشرب». ثم كأنما تذكر، نادى الساقي ليملأ قدحه من جديد.

شعرت بالحيرة، فقال مهند: «لا تشغل بالك كثيرًا، نحن هنا من أجل مهمة محددة، سننهيها ثم نعود إلى الملجأ حيث حياتنا الرتيبة المعتادة. صدقني من الأفضل لك أن تتناول كأسًا من الجعة، ستجعل رأسك خفيفًا ولن تفكر في الكثير من الأشياء».

ثم وضع يده على وجنته وقال بنبرةٍ حالمة: «أو لعلنا نحصل على بعض هذا الفطر السحري».

قلت له: «هل يمكن أن نجد كتبًا هنا؟ أفكر في إحضار كتاب كهدية من أجل مريم. إنها تحب هذه الأشياء».

ابتسم مهند بخبث وقال: «هدية من أجل مريم؟ ما المناسبة؟».

لكمته في كتفه وقلت: «من دون مناسبة يا خفيف الظل». ثم قلت بجدية: «ولكن أخبرني حقًّا؛ هل يمكن أن نجد كتبًا هنا؟».

هز مهند رأسه وقال بتثاقل: «لا أعتقد هذا. فحتى لو عثروا على كتبٍ هنا سيستخدمونها في إشعال النار... إنها بلا قيمة بالنسبة إليهم. ولكنك إن كنت تبحث عن كتب فستجدها عند أبناء القيامة... يقال إنهم يجمعون هذه الأشياء... ولكنك لا تستطيع أن تأخذ كتابًا منهم، إنهم يحتفظون بها... يقولون إنها من أجل الأجيال القادمة، أو هراءً من هذا القبيل». ثم قهقه بسخرية وقال: «أي أجيال قادمة؟ البشر يقبلون هذه الأرض قبلة الوداع».

قلت له: «أعتقد أن ما تشربه قد بدأ ينال من عقلك، لِمَ لا نذهب ونعثر على مكان لنريح فيه جسدينا؟ لقد كانت الرحلة طويلة».

وضع مهند القدح على الطاولة وقال: «أنت محق». ثم التفت إلى رفاقنا وقال: «هل أنتم قادمون يا رفاق؟».

قال له أحدهم: «لا، سنبقى هنا لبعض الوقت».

لوح له بيده وقال بلسانه الثقيل: «كما تشاؤون... أراكم لاحقًا».

وبعد ذلك بدأ يسير إلى جواري بخطوات غير متزنة، فسألته: «كم كأسًا تناولت من هذا الشيء؟».

عقد مهند حاجبيه مفكرًا ثم قال: «لا أتذكر... ربما خمسة... أو ستة كؤوس... ربما أكثر».

قلت له وأنا أمسكه من يده لكي يتوازن في سيره: «لقد تناولت الكثير».

فقهقه مهند وقال: «هذا لا شيء، عادةً ما أشرب حتى أفقد الوعي».

قلت باستياء: «أي متعة في هذا؟».

قال له مهند: «لن تعرف حتى تجرب».

قلت بامتعاض: «لن أجرب».

فهز مهند كتفيه وقال: «كما تشاء، أنت الخاسر».

وفجأة مال مهند إلى الأمام وبدأ يتقيأ، فبدأ الناس القريبون منه يصرخون فيه في احتجاج، فرفع رأسه وقال: «أعتذر... أعتذر».

قلت له وأنا أساعده على الاعتدال: «لا يبدو أن الكثير يفوتني».

وضع مهند يده على كتفي وقال: «لا بد من بعض التضحيات لكي تنال السعادة. لا شيء مثالي في هذا العالم».

تنهدت وقلت: «أعتقد أنك محق بشكلٍ ما».

سرنا جنبًا إلى جنب عبر زحام المترو. كان مهند يسير مترنحًا بينما أشعر بالحرج، ولكني أدركت أنه لا أحد يعير هذا اهتمامًا. لاحظت أن بعض الأشخاص يحملون أسلحة في أثناء سيرهم في المترو. قلت لنفسي: ***لا شك أنهم رجال منصور.*** كنت أتلفت بعينيَّ طيلة الوقت بين الوجوه بحثًا عن الفأر ولكني لم أجد له أثرًا.

سألت نفسي: *تُرى أين ذهب؟* لم أكن أعرف إلى أين يأخذني مهند. كنا نتعمق أكثر في المترو، ممرات متقاطعة تنتهي أحيانًا إلى بهو واسع، ثم اكتشفت أن هناك سلالم تؤدي إلى مستوى آخر أسفل الأرض، كان مزدحمًا بدوره. بدأت أعتاد الازدحام، ولكني شعرت بالاشمئزاز من رائحة العرق الكريهة التي تفوح من بين الزحام، لا يبدو أن الناس هنا تستحم أو تحرص على نظافتها الشخصية. صحيح أن الاستحمام ليس شيئًا يمكن للمرء فعله كل يوم أو كل أسبوع في تلك الآونة، ولكنهم في الملجأ يستحمون مرة في الشهر على الأقل، بحرص شديد لكيلا تضيع قطرة واحدة عبثًا. ولكن هؤلاء الناس يبدو أن معظمهم لا يستحم... على الإطلاق!

سرعان ما تغير مشهد الممرات والأروقة لأجد نفسي أنظر إلى أرصفة قديمة، قال لي مهند إن الناس كانوا يقفون عليها في الزمن الماضي من أجل انتظار القطار الذي سيحملهم إلى وجهتهم. كانت هناك أنفاق مظلمة من الجهتين تؤدي إلى المحطات الأخرى، وعلى القضبان تستقر قطارات المترو عتيقة وقد كساها الصدأ، معظم النوافذ قد تكسرت نوافذها الزجاجية واستعاضوا عنها ببعض الستائر القماشية أو الورقية.

أشار مهند ناحية أحد القطارات لكي أساعده على السير نحوه، فسألته: «إلى أين أنت ذاهب؟».

قال مهند: «أين تظن أننا سنبيت النهار بربك؟».

سرت بجواره وأنا أتساءل ما الذي سأجده داخل القطار. كانت الأبواب مفتوحة، فساعدت مهند على أن يدلف عبر أحدها. بالداخل كانت عربات القطار مظلمة تقريبًا، لا يضيئها إلا ضوءٌ باهت يتسلل إليها عبر بعض النوافذ التي تُرِكت مفتوحة. لم يكن هناك مقاعد داخل المترو كما توقعت، لقد تخلصوا منها جميعًا، وبدلًا من هذا كانت العربات تمتلئ بالأسرة التي صنعت كيفما اتفق، والتي ذكرتني بالأَسِرَّة في الملجأ، ولكنها أكثر بدائية بشكلٍ ما.

كانت العربة لا تزال فارغة لأن الليل لم ينتهِ بعد، فألقى مهند بجسده على السرير وهو يشير إليَّ كي أستلقي على السرير المقابل، ففعلت هذا ثم خلعت حذائي، فشعرت بارتياح شديد عندما تحررت قدماي وداعبهما الهواء بعدما سُجِنتا لساعات طويلة داخل هذا الحذاء الثقيل.

ساد الصمت لبعض الوقت وكلٌّ منا غارقٌ في أفكاره الخاصة، قبل أن يقول مهند فجأة: «لِمَ لا تذهب وتحضر لنا شيئًا لنأكله؟».

قلت: «أنا جائع بالفعل، ولكني لا أعرف شيئًا عن المترو».

قال مهند: «لا تقلق لن تضل الطريق، لا تبتعد كثيرًا عن هذا القطار وستجد من يبيع طعامًا، أحضر أي شيء، لا يهم».

ترددت، ثم ارتديت حذائي من جديد على مضض، وتوجهت ناحية باب القطار لأخرج منه. اعتمدت على حاسة الشم لكي تجذبني إلى أقرب مكان يبيع طعامًا. جذبني أنفي إلى ركنٍ صغير قريب من رصيف

القطار، تتصاعد منه رائحة ليست سيئة، كانت امرأة تعد نوعًا من الخضراوات المقلية. اقتربت منها فسمعتها تخاطب رجلًا وتقول له: «ماذا تملك مقابل هذا الطعام؟».

شاهدت الرجل يخرج من جيبه بعض الرصاصات التي لم تستخدم بعد وهو يقول: «هل هذه كافية؟».

مطت شفتيها وقالت: «لا بأس». قبل أن تمد له بطبق بلاستيكي به الطعام وهي تقول له: «لا تنسَ أن تعيد الطبق». فأومأ الرجل برأسه.

اقترب منها شخصٌ آخر وهو يقول: «أريد بعضًا من هذا الطعام».

قالت له: «كل شيء بمقابل، ماذا تملك؟».

قال الرجل متوسلًا: «أنا لا أملك شيئًا ولكني أتضور جوعًا».

هزت المرأة كتفيها وقالت: «هذه ليست مشكلتي، النظام هنا هو لا شيء دون مقابل. والآن فلتفسح الطريق من أجل الزبائن».

انقض الرجل عليها وهو يقول بعينين مسعورتين: «سآخذ بعض هذا الطعام». كان يمد يديه المتلهفتين ناحية الشطائر، وفجأة ظهر - كأنما من الفراغ - رجل ضخم الجثة يمسك بعصا غليظة هوى بها على رأس الرجل وجسمه فراح يصرخ في ألم حتى همد صوته تمامًا.

بصق الضخم جانبًا وقال: «هؤلاء المتسولون، يظنون أن المترو مأوى للشحاذين أمثالهم». ثم بدأ يجذب الرجل فاقد الوعي بين زحام الناس الذين بدوا كأنهم لا يبالون بما حدث، حتى اختفى الرجل الضخم والرجل الذي يجذبه.

كنت أحدق إلى ما يحدث في ذهول قبل أن تنظر المرأة ناحيتي وتقول بحدة: «وأنت! ماذا تريد؟».

أفقت من ذهولي وقلت: «أنا... لا أريد شيئًا». كنت أفكر في العودة إلى القطار.

قالت: «حسنًا فلتفسح الطريق لغيرك».

ترددت، لم أرغب في العودة إلى مهند من دون طعام، فقلت لها: «في الواقع كنت أريد طبقين من الطعام».

زفرت وقالت: «يبدو من ترددك أنك لا تملك ما تدفعه».

قلت لها: «في الواقع لا، ولكن الزعيم منصور أخبرني أن كل ما آخذه على حسابه».

ضحكت بسخرية وقالت: «الزعيم منصور بنفسه أخبرك بهذا؟ لِمَ لا تختار كذبة يمكنني تصديقها؟».

شعرت بيدٍ توضع على كتفي وصوتٍ مألوف يقول: «لِمَ لا تعطينه ما يريده؟».

التفت لأجد مهند يقف بجواري فزفرت بارتياح شديد، ثم سمعت المرأة تقول: «آه، إنه معكم إذن».

قال مهند: «أجل، إنه واحد منا».

سألته: «لِمَ أتيت؟».

قال: «لم أكن أفكر بشكل سليم عندما أرسلتك لجلب الطعام وحدك، ثم سمعت صخبًا وصراخًا فخشيت أن يكون مكروهًا قد حدث لك». ثم أضاف مازحًا: «ستقتلني مريم إن لم أعد بك سالمًا».

ناولتنا المرأة طبقي الطعام وهي تنظر إلينا شزرًا، فغمز لها مهند بعينه وهو يأخذ طبقًا بينما آخذ الطبق الآخر، فقالت لنا بغضب: «أغربا عن وجهي». قبل أن تولي اهتمامها للزبون التالي.

ضحك مهند ثم سار بجواري عائدين إلى القطار، وهو يقول: «اللعنة، إن الخوف عليك قد جعلني أستفيق، ربما أعود لتناول بعض الجعة مرةً أخرى».

دلفنا من باب عربة القطار ففوجئت عندما رأيت رجلًا شابًا وامرأة شابة يتبادلان القبلات ويتعانقان على أحد الأَسِرَّة، وعندما انتبها لوجودنا التفت الشاب إلينا وقال: «هذه العربة مشغولة، ابحثا عن مكانٍ آخر».

قال له مهند: «لقد كنا هنا قبلكما وذهبنا لإحضار الطعام».

قال الشاب: «هذه مشكلتكما، ابحثا عن مكانٍ آخر». ثم عاد إلى تقبيل الفتاة.

هز مهند كتفيه وقال: «حسنًا، يوجد الكثير من الأسرة في العربة، فلتفعلا ما يحلو لكما، فنحن لن نغادر».

ترك الشاب الفتاة مرة أخرى وهو يستل من جيبه مدية ضغط على زرٍ صغيرٍ بها ليخرج منها نصل حاد، ثم قال: «أظن أنكما ستغادران الآن».

شعرت بالتوتر، ولكن مهند ناولني طبقه لأمسك به، ثم استل مسدسًا من حزامه وقال: «أظن أنكما من سيغادر الآن بهدوء».

نظرت الفتاة إليه في توتر، بينما قال الشاب في غضب: «ما هذا بحق الجحيم؟».

أومأ مهند إلى المسدس وقال ساخرًا: «أتقصد هذا؟ هذا مسدس كولت إم 1911 عيار 45 ملي».

قالت الفتاة: «على الأرجح المسدس ليس به طلقات».

صوب مهند المسدس ناحيتهما من جديد وقال: «صدقاني هذا ليس سلاحًا فارغًا كتلك الأسلحة التي يستخدمها الآخرون للتهديد الأجوف؛ هذا المسدس به ثماني طلقات».

ظهر التردد على وجهيهما فقال مهند بحزم: «أنصحكما ألا تغامرا».

أغلق الشاب مديته وأعادها إلى جيبه وقال بغضب: «هيا بنا». ثم جذب الفتاة من يدها وتوجها ناحية باب العربة ومهند يواصل تصويب مسدسه ناحيتهما، ولكنهما قبل أن يخرجا التفت الشاب إلى مهند وقال: «ستندم على هذا». قبل أن يدير ظهره ويغادر.

ظل مهند مصوبًا مسدسه لبضع ثوانٍ ناحية الباب، ثم أعاده إلى حزامه من جديد وقال: «هيا نتناول الطعام قبل أن يبرد».

قلت له في توتر: «أكان من الضروري تهديدهما؟ كان من الممكن أن نذهب إلى عربة أخرى دون أن نصنع مشكلة».

نفخ مهند في قطعة خضراوات ساخنة لكي تبرد قبل أن يضعها في فمه ثم قال وهو يلوكها: «لا يمكن الهرب دومًا من المشكلات، كلما حاولت الهرب منها طاردتك أكثر، إنها كالكلاب البرية تشم رائحة الخوف. إذا خفت مرة فسيعتاد الناس خوفك، أما إذا أظهرت لهم أنك لا تخاف منهم فهم من سيهابونك ويتحاشونك».

جلست أتناول طعامي في صمت وأنا أفكر في حديث مهند، ثم قلت أخيرًا: «أتمنى لو أنني أعرف أين الفأر الآن، لِمَ يتركنا وحدنا في وقت كهذا؟».

وضع مهند طبقه الفارغ جانبًا وقال وهو يلقي بجسده على السرير: «لا تشغل بالك، لا شك أننا سنراه في الغد في أثناء عودتنا إلى الملجأ».

ألقيت بجسدي على السرير المقابل وقلت: «ولكني أتساءل أين هو الآن، وماذا يفعل؟».

قال مهند: «أنت أقرب إليه منا، إن لم تعرف أنت فلن يعرف أحد. يمكنك أن تسأله عندما نراه في الغد، ولكني أشك أنه سيخبرك؛ هذه هي طبيعة الفأر».

خيم الصمت من جديد لبعض الوقت، وفجأة سمعنا صوت ضجة خارج القطار، أصوات حديث وضحك، أصواتًا مألوفة، تبعتها بعض الوجوه المألوفة تظهر عند باب القطار، لقد كانوا بعض رفاقنا من الملجأ. قال أحدهم ضاحكًا: «أنتما هنا إذن؟ كنا نبحث عنكما في القطارات».

امتلأت أسرة العربة بالأشخاص الراغبين في النوم، وهؤلاء الذين لم يتبقَّ لهم مكان ذهبوا للبحث عن عربة أخرى. أخذوا جميعًا يتبادلون أطراف الحديث، وواحدًا تلو الآخر بدأوا يغرقون في النوم، حتى شعرت بالنوم يناديني بلطف، فسمحت له أن يمسك بيدي ويجذبني إلى عالم الأحلام.

الفصل الخامس

كان القطار يتحرك بسرعة عبر النفق المظلم، بينما أنظر خارج النوافذ بخوف، والقطار يهتز وهو يركض فوق القضبان الحديدية. كنت أرغب في الصراخ أو طلب المساعدة ولكني شعرت بصوتي يختنق في حلقي. لم يكن هناك أثر للفأر أو مهند في العربة معي. حاولت أن أخترق الظلام خارج القطار ببصري ولكني لم أرَ سوى أمواج الظلام المتلاطمة. وفجأة لمحت ضوءًا يأتي من بعيد، القطار سيخرج من النفق، أدركت هذا في أعماقي.

خرج القطار من النفق كطلقة مسرعة وهو يطلق نفيرًا مرتفعًا. أغمضت عينيَّ إثر الضوء الباهر، ثم فتحتهما ببطء لأنظر خارج النوافذ. كانت الشمس حمراء وحارقة في كبد السماء، وأسفلها يسير المشوهون وهم يجرون أقدامهم ويصرخون، بعضهم تمزقه الكلاب البرية. شعرت كأنهم يمدون إليَّ أيديهم طلبًا للنجدة. وفجأة تجمعت سحب سوداء في السماء حجبت الشمس، وراحت تمطر أمطارًا سوداء لزجة غطت أطلال القاهرة أسفلها. كانت هناك حرائق تشتعل وتنطفئ في اللحظة ذاتها، ومبانٍ أخرى شاهقة الارتفاع تذوب في المطر الأسود.

فجأة بدأت الأمطار السوداء اللزجة تذيب سقف القطار وتتسلل إلى الداخل، فشعرت أنني مغطى بالطين. حاولت أن أركض ولكن قدميَّ غاصتا في ذلك الطين الأسود، فرحت أركض ببطءٍ شديد. وفجأة خرج القطار عن مساره وراح يهوي في هوةٍ سوداءَ عميقةٍ بلا قرار، فأخذت أصرخ وجسدي يرتجف بقوة.

من قلب الظلمة تسلل صوت مألوف يناديني: «عمر! عمر!».

فتحت عينيَّ فجأة لأجد نفسي راقدًا في السرير، في عربة القطار الذي لم يتحرك من موضعه منذ سنواتٍ عديدة. كان مهند ينادي باسمي وهو يهزني بقوة كي أستيقظ، فاعتدلت في فراشي ووضعت يديَّ على عينيَّ أضغطهما بقوة كأنما أحاول طرد الكابوس من عقلي.

قال مهند بنبرة قلقة: «لقد كنت تصرخ في نومك. هل أنت بخير؟».

قلت بابتسامة شاحبة: «لا تقلق، مجرد كابوس آخر».

قال مهند: «حسنًا، لا تفكر في الأمر كثيرًا. هل أنت مستعد للعودة إلى الملجأ؟».

قلت: «أجل، بالتأكيد، لقد افتقدته بالفعل».

قال مهند مداعبًا: «لم أتوقع أن أسمع هذه الجملة منك».

تنهدت ثم قلت: «صدقني، ولا أنا كنت أتوقع أن أقولها».

فربت مهند على كتفي وقال: «حسنًا، هيا بنا، لقد سبقنا البقية، سنلتقيهم خارج المترو».

ارتديت حذائي ثم قلت: «أنا مستعد. هيا بنا».

سرت بصحبة مهند قاطعين الطريق نحو السلم المؤدي إلى الطابق العلوي من المترو، كان النهار في آخره والناس ما زالوا نائمين إلا من عدد قليل، فلم يكن الزحام والضجيج كالليلة السابقة. سرعان ما يحل المساء ويستيقظ الناس ويعود الزحام والضجيج، ولكن كل ما فكرت فيه هو أنني سأترك كل هذا وأعود إلى الملجأ.

قال مهند: «دعنا نتناول شيئًا سريعًا ليعيننا على تحمل الطريق».

قلت: «فلتتولَّ أنت المهمة هذه المرة، سأنتظرك هنا».

أومأ لي مهند برأسه، ثم توجه ناحية ركنٍ فيه شخصٌ يبيع طعامًا ويبدو أنه قد استيقظ من نومه ولم يطرد النعاس من عينيه تمامًا بعد. تبادل معه مهند بضع كلماتٍ سريعة، ثم شاهدت الرجل يبدأ في إعداد الطعام. وبينما أنا واقف في موضعي لمحت شخصًا يقترب عبر أحد الممرات، ملامحه مألوفة، فرحت أعتصر ذهني لأتذكر أين رأيته من قبل. اقترب الرجل من مهند، وفجأة أخرج الرجل من جيبه مدية لمع نصلها، فتذكرت في تلك اللحظة أين رأيته؛ إنه الشاب الذي كان بصحبة الفتاة في الليلة السابقة.

صرخت: «مهند! احترس!».

التفت مهند ليرى الرجل يهجم عليه بالمدية فقفز إلى الوراء على الفور، وامتدت يده لتستل مسدسه ولكن رجلًا آخر ضخم الجثة ظهر فجأة ليقيد يديه في حركة سريعة متمرسة.

تجمدت في موضعي عاجزًا عن التدخل لإنقاذ مهند، ثم سمعت الشاب ذي المدية يقول وهو يلوح بنصلها اللامع بشكلٍ ينذر بالخطر: «لم يكن يجب عليك أن تعبث مع من لا يمكنك العبث معهم».

كان مهند يقاوم بضراوة بينما بعض الموجودين بالمترو يسرعون الخطى مبتعدين عن المشهد أو يتظاهرون بأنهم لا يرونه. شاهدت بعينين مذهولتين النصل وهو يلمع في الهواء، يشق طريقه ناحية قلب صديقي، وفجأة شق الهواء أزيز رصاصة وشاهدت المدية تطير بعيدًا والدماء تتطاير معها، وإصبعين ممزقتين. تتبعت بعينيَّ الموضع الذي جاءت منه الرصاصة، فرأيت شخصًا واقفًا في الظلال يمسك بمسدس، ثم خطا بضع خطوات فوقع الضوء عليه لأرى وجهًا مألوفًا... وجه الفأر.

قال الفأر وهو يلوح بمسدسه متجاهلًا الشاب الذي يصرخ متألمًا: «والآن يكفي عبثًا، فلتنصرفا قبل أن تجد الرصاصة التالية هدفًا آخر لها».

استل الرجل الضخم الممسك بمهند المسدس البارز من حزامه وصوبه الناحية الفأر وهو يقول: «اللعنة عليك! لقد مزقت يد صديقي! سأقتلك!».

شاهدت الفأر يقفز جانبًا متفاديًا الطلقة التي انطلقت من فوهة المسدس وتردد دوي صوتها في الممر الضيق لترتطم بالجدار على بعد بضعة سنتيمترات من رأسه، فتطايرت الشظايا من الجدار الأسمنتي لترتطم بعنقه، وفي اللحظة ذاتها انطلقت رصاصة من فوهة مسدسه المزود بكاتم الصوت فشقت الهواء بأزيزها قبل

أن تخترق رأس الرجل الذي لم يجد وقتًا حتى ليشهق في دهشة قبل أن تتطاير الأجزاء المتناثرة من دماغه ويهوي أرضًا ميتًا.

شعرت كأني أشاهد مشهدًا من كوابيسي؛ الرجلان أحدهما جثة دامية حولها بقعة دامية آخذة في الاتساع، والآخر يركض عبر ممر المترو وهو يعوي ألمًا كالكلب المسعور. مال مهند ليلتقط المسدس من يد الجثة في اشمئزاز واضح، بينما أنظر إلى الفأر وفي رأسي آلاف الأسئلة المتداخلة، ثم قلت له أخيرًا: «أين كنت طيلة الليلة السابقة؟».

قال الفأر وهو يجذبني ويشير إلى مهند كي يلحق بنا في الوقت ذاته: «سأخبرك بكل شيء لاحقًا، أما الآن فلنسرع، القافلة في انتظارنا من أجل رحلة العودة. صوت الرصاصة التي أطلقها هذا الوغد ستجذب رجال منصور إلى هنا كأسماك القرش التي تجذبها رائحة الدماء، وأنا لا أملك رفاهية البقاء وتفسير كل شيء لمنصور، إنه لا يحب أن تحدث فوضى في المترو، ويحب المحافظة على النظام هنا لأقصى درجة. سأعتذر إليه بطريقتي في المرة الثانية التي أقابله فيها».

كان يتحدث بلهجة متعجلة وهو يجذبني من منعطف إلى آخر في طريقنا إلى خارج المترو ومهند يلحق بنا. شاهدنا بعض رجال منصور يسرعون في الاتجاه المعاكس على الأرجح متوجهين ناحية موضع إطلاق الرصاصة كما قال الفأر. لحسن الحظ أنهم يعرفون الفأر فلم يحاولوا توقيفه وهو يومئ إليهم برأسه في أثناء مروره متظاهرًا بأنه لا يعرف ما حدث.

سرعان ما خرجنا من المترو وارتدينا أقنعة الغاز بينما رفاقنا من الملجأ بمساعدة بعض رجال منصور يضعون آخر ما تبقى من الشحنة في إحدى سيارات النقل، بينما آخر ضوء للنهار يختفي في الأفق. بدا الفأر متعجلًا وتعجبت من هذا، من المستحيل أن يكون قلقًا إلى هذا الحد من قتل رجل حاول قتلنا. ***هل سيغضب منصور إلى هذا الحد***؟ لقد قال إنه سيتعامل مع الأمر لاحقًا.

سرعان ما جلس الفأر وراء المقود وبدأت السيارة في الحركة، فاسترخت عضلات الفأر قليلًا ولكنه مع ذلك بدا متوترًا.

جلسنا في صمتٍ لفترة من الوقت حتى حل الظلام وأنا غارق في أفكاري الخاصة قبل أن أسأله أخيرًا: «هل يقلقك ما حدث في المترو؟ أعني أنك قتلت رجلًا وما إلى ذلك؟».

صمت الفأر قليلًا، ثم قال: «لا، لقد حدث هذا من قبل. القتل جزءٌ من حياتنا».

صمتُّ بدوري لبعض الوقت، قبل أن أسأله: «ألن تخبرني إذن أين كنت طيلة الليل؟».

هذه المرة لم يجبني وهو يحدق إلى الطريق أمامه، ومن آنٍ إلى آخر ينظر إلى المرآة الجانبية، فقلت في ضيق: «حسنًا، لا تخبرني».

تنهد الفأر من وراء القناع ثم قال: «سأخبرك لاحقًا، ولكن المهم الآن هو أن نعود إلى الملجأ في سلام».

لا أعرف ما يقصده الفأر، رغم كل ما أخبرني به عن أخطار العالم الخارجي فإننا قطعنا الرحلة من الملجأ إلى المترو في أمان، لا أعتقد أن العودة ستختلف كثيرًا.

فجأة سمعت صوتًا يأتي من ورائنا، أشبه بمحركات سيارات، فأخرجت رأسي من النافذة ونظرت ناحية الأفق، فرأيت بعض الأضواء في ظلمة الليل. هناك سيارات تقترب منا. نظرت إلى الفأر في تعجب وأنا على وشك إخباره بالأمر، لأجد قبضتيه متيبستين على مقود السيارة. يبدو أنه قد لاحظ الأمر وأصابه بالتوتر.

فجأة أدركت أن السيارات التي تقترب منا أصغر حجمًا من سياراتنا، وبالجزء الخلفي منها صناديق صغيرة يوجد بها بعض الرجال يحملون أسلحة، وفجأة بدأوا يصوبون الأسلحة ناحيتنا ويطلقون النار!

أدخلت رأسي من النافذة على الفور وأنا أصرخ في ذعر، ثم بدأ بعض رجال الملجأ يبادلون المعتدين إطلاق الرصاص.

توترت يدي على مسدسي وأنا أفكر فيما يجب عليَّ فعله، لم يأمرني الفأر بشيء. فجأة أطفأ أنوار سيارته وانعطف بها جانبًا، محاولًا الهرب أو الاختباء في الظلمة، ولكن هدير المحرك كان عاليًا في سكون الليل ويفصح عن موضعها.

فجأة وقَّف الفأر السيارة وقال لي بلهجة آمرة: «اهبط».

قلت في ذعر: «هل سنتخلى عن السيارة؟».

ولكنه كرر كلمته في حزم: «اهبط!».

هبطت على الفور وبدأت في الركض إلى جانبه، بينما لا يزال يصل إلى مسامعنا تبادل إطلاق النار في الأفق.

انعطفت سيارة أخرى من السيارات التي تهاجمنا، وبدا أنها تفتش عنا في الظلام، حتى عثروا على السيارة التي تخلينا عنها.

رفع أحدهم عقيرته قائلًا: «إنهم هنا في مكان ما، ابحثوا عنهم!».

ركضت أنا والفأر في الظلام على غير هدى وهو يمسك بيدي، وأحيانا ما أتعثر ولكن يده القوية تجذبني دومًا لأكمل الركض، وعندما تحدث الفأر أخيرًا قال: «اللعنة! لم أتوقع أن يكتشفوا الأمر سريعًا!».

هنا وجدت نفسي أقول في هلع: «من هم؟ من هؤلاء؟».

قال الفأر: «رجال المترو».

أصابتني كلماته بالذهول، *ما الذي يحدث؟*

فجأة سمعت صوتًا آخر، عواء كلاب. فقال الفأر: «لقد جلبوا معهم كلابهم أيضًا».

تذكرت ما قاله منصور عن قوة حاسة الشم لدى الكلاب، سيعثرون علينا! كانت الأصوات تقترب منا، وهناك أنوار تتحرك في كل الاتجاهات؛ يبدو أن لديهم كشافات يدوية.

تجمدت الدماء في عروقي عندما سقط علينا ضوء وسمعت شخص يقول: «ها هما ذان». ثم تلا ذلك صوت رصاصة ارتطمت بالأرض في موضع غير بعيد عنا.

تعالت الصيحات تخبر عن موضعنا، فتوقف الفأر وهو يستل مسدسه، ثم التفت وراءه وبطلقة صامتة أصاب الرجل ليسقطه أرضًا.

ولكن رصاصات أخرى تلت ذلك، ولم تكن بعيدة عنا. ظهر رجلان يحمل كل منهما كشافًا، وأمامهما كلب يركض ولسانه يتدلى من فمه. أطلق الرجلان الرصاص ناحيتنا، ولكن بثلاث طلقات سريعة أسقط الفأر الكلب والرجلين صرعى.

ولكن الأصوات لم تتوقف، المزيد سيلحقون بنا. أسرعنا نحاول الاستتار بالظلمة، حتى ابتعدنا قليلًا عن الأصوات، والفأر يحثني بصوت هامس كي أسرع في ركضي.

كنت ألهث وأنا أشعر أنني على وشك فقدان الوعي، فقلت بصوت متقطع: «لا... يمكنني... المواصلة».

توقف الفأر فجأة فتوقفت معه وكدت أن أتعثر، كان صدره يعلو ويهبط وهو يلهث بدوره، ثم وضع يده في جيبه وأخرج شيئًا فضيًّا مستطيلًا به خطوط ذهبية، مد به إليَّ وقال: «أريدك أن تحافظ على هذه بأي ثمن، وإن حدث لي شيء سيكون عليك أن توصلها إلى نادين من أبناء القيامة، هل تفهمني؟».

قلت في ذهول وأنا أتأمل هذا الشيء الغريب: «ما هذا؟».

ولكنه وضعها في جيبي وهو يقول: «عليك أن تواصل الركض بمفردك فهم لن يبحثوا عنك، سألتقيك بعد قليل؟».

ظللت متجمدًا في موضعي، ولكنه ضربني على كتفي وقال: «اذهب!».

مع كلمته اقتربت أصوات عواء وأضواء كشافات، فوجدت نفسي أركض في خوف، ولكن ما إن ابتعدت بضع خطوات حتى وجدت نفسي أنظر ورائي.

كان الفأر يقف متأهبًا وهو يحمل مسدسه، ثم رأيت رجالًا وكلابًا يقتربون منه. لن يستطيع مواجهتهم وحده. أمسكت مسدسي وفكرت في العودة إليه، ولكنه صرخ وكأنما يراني دون أن يلتفت إليَّ: «لا تعد إليَّ! تذكر ما قلته لك!».

ثم صرخ صرخة عالية عندما وقع ضوء الكشافات عليه وراح يطلق النار.

أسرعت راكضًا وأنا أمسح دموعي بينما لا أزال غير قادر على استيعاب ما يحدث وطلقات النيران تتعالى من ورائي. كنت متعبًا للغاية، ومذهولًا إلى أقصى حد، وأشعر مع كل خطوة أنني أكاد أتعثر وأنكفئ على وجهي.

فجأة وجدت مبنى قديمًا نصف متهدم، أسرعت ناحيته، ثم اختبأت في الظلام. ألقيت بجسدي أرضًا ورحت أعبُّ الهواء عبًّا من وراء قناع الغاز. ***من المستحيل أن يكون هذا ما يحدث، يجب أن أعود***

إلى الفأر. ولكني لم أجد حتى القوة الكافية للنهوض واقفًا.

بعد بضع دقائق، شعرت بشيء من الطاقة يعود إليَّ من جديد. فتسللت خارجًا من المبنى وبدأت أمشي عائدًا إلى الموضع الذي جئت منه، على أمل أن أجد الفأر لا يزال حيًّا. ***إنه حي بالتأكيد!***

ولكني رأيت ضوءًا في الأفق، وسمعت زمجرة كلاب. هنالك كان الفأر ساقطًا أرضًا، مضرجًا في دمائه.

قال أحد الرجال: «فتشوا جسده، لا شك أن الشريحة معه».

قال آخر: «لقد فتشناه وليست معه».

قال الأول: «حسنًا، لقد فعلنا ما أمرنا به الزعيم، فلنعد بجثته إلى المترو».

ثم شاهدت أحدهم يحمل جسد الفأر على كتفه، ويخطو به عائدًا عبر الظلمة من وراء الرجال الآخرين والكلاب.

ظللت في موضعي متجمدًا في ذهول، لقد مات الفأر!

الفصل السادس

لا، لا، لا! من المستحيل أن يموت الفأر! وجدت نفسي أتراجع إلى الوراء بخطوات متعثرة، وأنا أشعر بالدوار والغثيان، والاختناق في قناع الغاز الذي أرتديه. لقد نجا الفأر من أخطار كثيرة وعاد ليحكيها لي، من المستحيل أن يموت بهذه البساطة!

كنت أرغب في الإسراع إلى الأمام، أن أستل مسدسي وأقتل هؤلاء الأوغاد الذين قتلوا الفأر. ولكن جسدي لم يطيعني، بل كان راغبًا في الهرب والاختباء والانكماش على نفسه.

عدت إلى المبنى المهجور واختليت بنفسي، لا يزال هناك بعض الأصوات في الأفق، ولكنها آخذة في الابتعاد، حتى حل الصمت تمامًا، وشعرت لأول مرة منذ خروجي من الملجأ بالوحدة التامة.

جلست أرضًا واتكأت برأسي إلى الوراء، محاولًا السيطرة على الإحساس بالدوار الذي اعتراني وأنا أتساءل عن مصيري الآن بعد أن صرت وحدي، وهل سأتمكن من العودة إلى الملجأ؟ هل نجا شخص آخر من رفاقي أم أنهم جميعًا قد...؟ لم أستطع إكمال الفكرة، ثم وجدت عقلي رغمًا عنه ينجرف إلى أسئلة أخرى؛ لمَ قد يفعل رجال المترو هذا؟ لمَ يقتلون الفأر؟ وأيضًا... ما هذه الشريحة التي تحدثوا عنها؟ تذكرت الشيء الذي وضعه الفأر في جيبي، هل هو تلك الشريحة التي تحدثوا عنها؟

بأصابع مرتجفة أخرجت ذلك الشيء من جيبي. كان شكلًا مستطيلًا صغيرًا، يشبه تلك الأشياء التكنولوجية القديمة من عصر ما قبل الكارثة التي أحيانًا ما يجلبها الرجال إلى الملجأ. عادة ما تكون أشياء عديمة النفع وينتهي الأمر بالتخلص منها، وبعض الأشياء التي لا تزال تعمل يمكن مقايضتها مع أماكن أخرى، وخصوصا أبناء القيامة الذين يولون اهتمامًا خاصًّا لمثل هذه الأشياء.

ولكن ما أهمية هذه الـ... شريحة؟ لمَ قد يقتلون الفأر من أجلها؟ وأيضًا لمَ طلب مني أن أوصلها إلى أبناء القيامة؟ أعدتها إلى جيبي وأنا أقول لنفسي: ***يجب أن أفكر في العودة إلى الملجأ أولًا!***

أعدت الشريحة إلى جيبي وقد قررت تأجيل التفكير بشأنها إلى وقت لاحق، ثم أخذت نفسًا عميقًا عبر قناع الغاز، قبل أن أخطو خارجًا من ملاذي المؤقت إلى العالم الخارجي، العالم الذي لطالما اشتقت إلى رؤيته. هل كان الأمر يستحق كل هذا العناء؟ راودتني الشكوك وأنا أمشي بساقين مرتجفتين عبر أطلال القاهرة. *ربما يمكنني تتبع الطريق شبه الممهد الذي سلكته السيارات كي أعود إلى الملجأ؟* لم أكن متيقنًا ولكن ليس لدي خيار آخر.

كان الإحساس بالوحدة غير متحمل بالنسبة إليَّ، فأنا لم أعتده من قبل، وكذلك لم أعتد مثل هذا الإحساس بالخوف الشديد. لطالما كنت في الملجأ، محاطًا بالآخرين، يغلفني إحساسٌ بالأمان. كنت أتلفت

طيلة الوقت في أثناء سيري بين الأطلال بحثًا عن أي وجه مألوف، أي شيء مألوف، حتى سمعت أخيرًا شيئًا ما، شيئًا جمد الدماء في عروقي... زمجرة حيوان مفترس!

تلفت حولي سريعًا لأرى كلبًا يسير بخطوات حذرة بين الأطلال وهو يتشمم الهواء، لعله من كلاب المترو، ولكنه كان وحده بدون شخص مسلح يصحبه، لعله كلب شارد إذن، لا شك أنه يبحث عما يأكله. كانت عيناه مظلمتين وتنظران إلى الخواء، لقد دمرتهما أشعة الشمس فلم تعودا تريان شيئًا، ولكن أنفه حاد، وقد يستطيع التقاط رائحتي.

نظرت إلى الكلب واللعاب يسيل من شدقيه وهو يكشر عن أنيابه الحادة ويزمجر بخفوت، لو أطبقت هذه الأنياب عليَّ سينتهي أمري.

فجأة نظر الكلب ناحيتي بعينيه المظلمتين وقد نصب أذنيه وتوقف عن الزمجرة، مستحيل أن يكون قد رآني، ولكن ربما قد استطاع تمييز رائحتي من بين الروائح الأخرى. تجمدت في موضعي، والكلب ثابت في وقفته، فصرنا كتمثالين بين الأطلال. ببطء امتدت يدي لأستل مسدسي من حزامه، ولكنه بدأ يتقدم ناحيتي فتجمدت يدي في خوف.

نفضت الخوف عن نفسي وأصابعي تتشبث بمقبض المسدس أخيرًا، فانتفضت عروق يدي ونبضت بالدماء. توقف الكلب مرة أخرى، وكل واحدٍ منا يقيم خصمه. كان كلانا يستخدم غرائز النجاة البدائية التي تدفعه للبقاء على قيد الحياة. كشر الكلب عن أنيابه، وأطلق زمجرة متوعدة، ثم قفز ناحيتي وفي هذه اللحظة ضغطت على الزناد أخيرًا لتنطلق رصاصة بدوي كالرعد في سكون الليل، أصابت الكلب في عنقه لتنفجر منه الدماء، فأطلق حشرجةً خشنة ثم هوى على الأرض وقد فارقته الحياة.

رحت أراقب المشهد وقلبي ينبض في عنف، إنها المرة الأولى في حياتي التي أسلب فيها مخلوقًا روحَه. كان صوت الرصاصة لا يزال يتردد صداه في عقلي، ثم انتبهت فجأة لشيء آخر، هذا الصوت قد يجذب مخلوقات أخرى إلى موضع الصوت. تلفت حولي على الفور فوجدت هيكلًا صدئًا لسيارة قديمة، أسرعت ناحيته لأختبئ وراءه وقلبي يخفق في صدري.

مر بعض الوقت دون أن أسمع صوتًا فتنهدت في ارتياح. ثم بدأت أفكر في أن اختياري لقطع الطريق الممهد لم يكن خيارًا صائبًا، لو جاء مسلحون آخرون لإكمال المهمة التي بدأوها فسيكون ذلك عبر الطريق الممهد بالتأكيد. ولكن أي طريق آخر يمكنني أن أسلكه للعودة إلى الملجأ؟

بينما أنا غارق في أفكاري سمعت صوتًا يقترب مني، صوت خطوات أقدام، فتدفق الأدرينالين في عروقي من جديد، وسمعت صوت الدماء في أذني كدويّ الطبول. لقد جذب الصوت شخصًا ما – أو شيئًا ما – كما توقعت.

ظللت في مخبئي وراء هيكل السيارة، حتى توقف الصوت أخيرًا. ظللت متجمدًا في موضعي للحظات وأنا أصغي للصوت، ولكن لم يكن هناك سوى الصمت المطبق. غامرت بإلقاء نظرة من وراء السيارة، فرأيت على ضوء القمر الهيئة الشبحية لشخص ما يحمل مسدسًا، فعدت للاختباء على الفور.

سمعت صوتًا يقول في خوف: «من هناك؟». *ولكن مهلًا! هذا الصوت مألوف.*

خرجت من وراء السيارة بحذر وأنا أشهر مسدسي، ثم قلت في دهشة: «مهند؟».

تنهد مهند الصعداء ثم قال: «حمدًا للسماء أنه أنت. كاد قلبي أن يتوقف من الرعب. هل أنت بخير؟».

قلت له: «أنا بخير، ولكن... الفأر... لقد قتلوه!».

اتسعت عينا مهند دهشة، ثم قال في حزن: «لقد قتلوا العديد من رفاقنا، لا أعرف إن كان هناك سوانا على قيد الحياة. لقد استطعت الهرب بأعجوبة، وطاردني أحدهم لفترة من الوقت قبل أن يعود أدراجه، يبدو أنهم كانوا يبحثون عن شخص ما، ولم أكن أنا المطلوب». ثم تهدلت كتفاه قبل أن يكمل: «عندما عدت إلى السيارات كان هناك الكثير من الجثث، ولم تكن السيارات في حالة صالحة لتشغيلها بعد أن أصيبت بالكثير من الطلقات وقد انقلبت إحداها. لقد بحثت عنك بين الجثث ولكني لم أجدك، فبدأت أمشي وحدي باتجاه الملجأ حتى سمعت صوت الرصاصة فجئت لأعرف ما حدث». ألقى نظرة ناحية جثة الكلب قبل أن يومئ برأسه كأنما فهم ما حدث، ثم نظر إليَّ وسألني: «هل تعرف ما الذي كانوا يبحثون عنه؟».

ترددت قليلًا، هل يجب أن أحكي له ما حدث؟ إنه صديقي، وليس هناك أحد غيره لأثق به. ولكن هذا ليس الوقت المناسب، يجب أن أعرف أولًا ما طبيعة هذا الشيء.

هززت رأسي وقلت: «لا أعرف!». شعرت بوخزة من تأنيب الضمير عندما كذبت على صديقي، ولكنها سرعان ما توارت وراء إحساسي الطاغي بالحيرة والضياع.

شاهدت مهند يتلفت حوله فسألته في قلق: «ما الذي تقترح فعله إذن؟».

هز رأسه وقال: «لا أعرف، ولكن من الأفضل أن نعود إلى الملجأ أولًا، ثم نفكر لاحقًا فيما يجب فعله، لا أعتقد أن هذا الأمر سيمر مرور الكرام، بل ستكون له تبعات أخرى».

قبل أن أفكر فيما يعنيه بهذا بدأ السير وهو يقول: «أتمنى أن نكون قادرين على العودة إلى الملجأ قبل حلول الصباح».

أصابتني الفكرة بالقشعريرة، أن أكون خارج الملجأ بالنهار، تحت أشعة الشمس...

نفضت الفكرة عن رأسي وأنا أسير إلى جانبه. لقد استطعنا قطع المسافة من الملجأ إلى المترو في ساعات قليلة، ولكن كان هذا باستخدام السيارات، لن تكون سرعة مشينا مماثلة لسرعتها.

سألت مهند: «هل قطعت هذه المسافة مشيًا من قبل؟».

هز رأسه وقال: «هذه فكرة جنونية لم يفكر فيها أحد من قبل، فالعالم مليء بالأخطار، ولكن أتمنى أن يحالفنا الحظ».

لذنا بالصمت وأنا أمشي إلى جانبه، أجفل مع كل صوت، وكل إحساس بالحركة. كانت الرياح تحرك بعض أوراق الشجر الجافة، وبعض المهملات من بقايا العصر القديم. ولكن لم يظهر كلب مسعور آخر، أو أي شيء يمكن أن يمثل خطرًا حقيقيًّا. كانت هناك بعض الحيوانات الصغيرة للغاية التي تسرع للفرار عند الشعور بخطواتنا، فتختبئ في الظلال بين الأطلال قبل حتى أن نتبين ماهيتها.

كانت بقايا المباني القديمة المتهدمة من حولنا، والشوارع التي تؤدي إلى عمق الظلام، ولكننا واصلنا السير عبر الطريق الممهد، مهتدين بضوء القمر الشاحب، بينما نتلفت حولنا في حذر طيلة الوقت. وفجأة شق الظلام صوت حشرجات حلقية قادمة من أحد المباني القريبة، فتوقفنا في موضعنا في خوف، وكل منا يوجه مسدسه ناحية المدخل المظلم المؤدي إلى هذا المبنى.

فجأة خطا عبر الظلمة ثلاثة أشخاص، يمشون ببطء وهم يتقدمون ناحيتنا. أخرج مهند من حزامه كشافًا وجهه ناحية المدخل، وعندما سقط عليهم الضوء رأيت البثور التي تميز المتحولين، وكذلك أعينهم البيضاء تمامًا. وكأنما شعروا بالضوء رغم أعينهم العمياء فقد راحوا يطلقون زمجرات حلقية مخيفة.

قلت في خوف: «سيعرفون موضعنا بهذا الضوء».

رفع إصبعه إلى شفتيه ليحثني على التزام الصمت، ثم قال هامسًا: «إنهم لا يرون، بل يستخدمون حاستي الشم والسمع الفائقتين لديهم».

صوب مسدسه باليد الأخرى التي لا تمسك بالكشاف، وبدقة أطلق رصاصة استقرت في رأس أول المتحولين لتتناثر جمجمته ويسقط أرضًا بحشرجة أخيرة.

صرخ المتحولان الآخران صرخات متحشرجة شقت سكون الليل، ثم أسرعا الخطى ناحيتنا.

أطلق مهند رصاصة أخرى ليصيب أحدهما في رأسه، فأطلقت النار بدوري ناحية الآخر، ولكن الرصاصة أصابته في كتفه فسقط أرضًا وهو يصرخ، قبل أن يقف على قدميه، ولكن مهند عاجله برصاصة في رأسه جعلته يسقط مرة أخرى جثة هامدة.

تأملت الجثث الثلاثة الساكنة، وبرك الدماء التي تتجمع حولها، ثم نظرت ناحية مهند بعينين متسعتين، ولكنه قال وهو يطفئ الكشاف: «هذه مشكلة، سيجذب الصوت مخلوقاتٍ أخرى. يجب علينا الابتعاد عن هنا».

بدأ يمشي بخطوات مسرعة وأنا أمشي بمحاذاته بينما التعب يتملك من أوصالي، لم أسترح منذ هجوم رجال الملجأ على قافلتنا، ولا يبدو لي أنني سأتمكن من الاستراحة قريبًا.

بعد أن قطعنا شوطًا كبيرًا وصلنا إلى الجسر الذي يعبر النيل إلى الناحية الأخرى. كانت المياه متلألئة تحت ضوء القمر، مما حرك بداخلي الإحساس بالعطش، ولكني أعرف أن الشرب من هذه المياه لن يكون قرارًا صائبًا، لذا تجاهلت هذا الإحساس وأنا أجبر ساقيَّ على التحرك إلى الأمام بمحاذاة مهند، بينما عضلاتي كلها تئن وتشتكي.

ما إن عبرنا النيل إلى الناحية الأخرى حتى توقفت في موضعي وأنا ألهث، ثم قلت لمهند: «هلا توقفنا قليلًا لالتقاط أنفاسنا».

نظر مهند ناحية الأفق، ثم ناحية مجموعة من المباني الخربة على الناحية المقابلة من الطريق، قبل أن يقول: «لا بأس».

ثم انتزع حقيبته وأخرج منها زجاجة مياه وهو يقول: «من الجيد أنني جلبت هذه معي من بين المؤن». ثم خلع قناعه وارتشف بعض المياه قبل أن يناولني الزجاجة.

خلعت قناعي بدوري وتجرعت المياه من بين أنفاسي اللاهثة، وما إن أسكتُّ الشعور بالعطش بداخلي حتى قرقرت معدتي في جوع. ***لا وقت لهذا الآن.***

بدأنا نمشي ببطء بمحاذاة النيل، والأطلال على الناحية الأخرى تبدو في الظلمة كوحوش رابضة تستعد للانقضاض علينا. لم تبدُ هذه الرحلة وكأنها بلا نهاية! أرغب في أن أستريح بجسدي في مهجع الملجأ، لا أريد شيئًا آخر الآن. ***ربما بعضًا من حساء الفطر، سأرحب به في هذه اللحظة.***

فجأة تجمد مهند في موضعه، فتوقفت بشكل غريزي. قلت له في قلق: «ما الأمر؟».

قال لي: «هل تسمع هذا الصوت؟».

تلفت حولي محاولًا أن ألتقط السمع، ولكني لم أسمع شيئًا، فتحت فمي لأقول له هذا، ولكن حينها وصل إلى مسمعيَّ هدير محركات بعيد، وفي الأفق ناحية الجسر الذي قطعناه قبل دقائق ظهرت أنوار... سيارات!

جذب مهند يدي وأسرعنا ناحية أقرب المباني إلينا. بدا أنه مبنى مهجور، ولكن من يعرف أي أخطار قد تكون كامنة فيه، لذا استل مهند مسدسه، وفعلت مثله، ونحن نخطو عبر الظلمة. لم يغامر مهند بإشعال كشافه اليدوي، خشية أن يكشف النور عن موضعنا. خطونا بحذر عبر المدخل وتلفتنا حولنا في ضوء القمر الخافت الذي يتسلل إلى الداخل، لم يكن هناك شيء، ثم نظرنا ناحية الظلمة القاتمة التي لا تلمسها خيوط الضوء الواهنة، ثم ازدردت لعابي. قد يكون أي شيء كامنًا في الظلمة.

يبدو أن هذا كان فيما مضى بيتًا، فقد رأيت على الظلمة أثاثًا قديمًا تكومت عليه طبقات من الغبار، وعبر فتحة نافذة استطعت أن أرى العربات وهي تقترب. فانحنيت خشية أن يراني أحد في النافذة.

أوليت ظهري للحائط وجلست أرضًا تحت النافذة، أحدق إلى الظلمة، بينما صوت العربات يقترب أكثر، تهدر في سكون الليل كوحوش غاضبة. لاحظت أن مهند لا يزال يمسك مسدسه بإحكام، وكأن مسدسه

قادر على فعل شيء لو اكتشف هؤلاء المقتربون - أيًا من كانوا - أننا نختبئ في هذا البيت.

في هذه اللحظة وجدتني أسأل نفسي، *هل هم من المترو؟ هل عادوا للبحث عن ناجين؟ إلى أين هم متوجهون؟*

لم أستطع أن أنطق بأسئلتي بصوتٍ عالٍ، ولكني خمنت أن أسئلة مثلها تدور في عقل صديقي.

اقترب الصوت أكثر، ستمر السيارات الآن من أمام البيت، لم تمضِ لحظات حتى تسلل ضوء مصابيحها عبر فتحة النافذة من فوقي، ليبدد شيئًا من الظلمة القاتمة، وفي هذه اللحظة تجمدت الدماء في عروقي، لم نكن وحدنا في البيت، هناك أشخاص معنا!

لقد تحركوا عندما وقع عليهم الضوء وأصدروا صوتًا أشبه بالأنين، فصوب مهند مسدسه ناحية الأشكال التي تتراقص عليها الظلال بفعل السيارات المارة عبر الطريق. ولكني أعرف أنه لن يجرؤ على إطلاق النار، فسيجذب الصوت أشخاصًا غير مرغوب فيهم.

حاولت تأمل هيئتهم عبر الضوء المتراقص، خُيل إليَّ أنني أرى امرأة منكمشة على نفسها، وتضم إليها ثلاثة أطفال. كانوا جميعًا عراة بلا أي ثياب تغطيهم على الإطلاق، ويبدو على أجسامهم البثور التي تميز المتحولين. ولكنهم لم يكونوا عدوانيين بل بدوا خائفين، ويحاولون قدر الإمكان ألا يصدروا صوتًا.

ظل المشهد متجمدًا لدقائق بدت كالدهر، حتى ابتعدت آخر السيارات وخيم الظلام من جديد على المكان، حينها أخرج مهند كشافه، وأضاءه لننظر بوضوح إليهم، ثم رفع مسدسه وصوبه ناحية المرأة، فقفزت واقفًا على قدمي وقلت له في فزع: «ماذا ستفعل؟».

قال دون أن ينظر إليَّ: «إنهم متحولون».

نظرت ناحيتهم، كانوا خائفين حقًّا، يرتجفون، ويئنون، وأعينهم متسعة في ترقب. قلت له في ضيق: «ألا ترى أنهم خائفون منا؟ إنها مجرد امرأة، وهؤلاء على الأرجح أطفالها».

بدا التردد على مهند، ثم خفض مسدسه وقال: «أنت محق».

نظرت من النافذة إلى الخارج، لم يكن هناك أثر لأي شخص آخر، فقال لي مهند: «ولكن من الأفضل أن نبتعد عن هنا، إن كانت هذه أم، فعلى الأرجح هناك أب، وقد يكون عدوانيًّا».

وافقته على هذا الأمر، فتراجعنا ببطء ناحية الباب دون أن نبعد أعيننا عنهم، حتى خرجنا من الباب.

قال مهند وهو يطفئ كشافه: «هذا أغرب شيء أراه في حياتي، وقد رأيت الكثير في أطلال القاهرة. لم أعتقد أن هناك متحولين لديهم مشاعر مثل الخوف».

قلت له: «وأنا أعتقد أنه ما زال هناك الكثير أمامي لأتعلمه».

بعد أن ابتعدنا عن البيت قال مهند: «ربما من الأفضل ألا نمشي بمحاذاة الطريق هكذا، قد تعود منه السيارات».

قلت متسائلًا: «ولكن هل ستعرف مسار العودة إلى الملجأ إن ابتعدنا عن الطريق؟».

صمت قليلًا ثم قال: «سنمشي بمحاذاته محتمين بالأطلال».

اقشعر بدني كثيرًا وأنا أنظر إلى المباني المتهدمة في الظلمة، وهياكل السيارات القديمة الصدئة، وكأن الأطلال يمكن أن توفر لنا أي حماية، ولكني لم أعترض.

مشينا بمحاذاة الطريق والنيل، قاطعين الأطلال والخرائب، ونحن نتلفت حولنا طيلة الوقت، ونجفل مع كل صوت، ولكن لحسن الحظ لم يعترض طريقنا متحولون أو حتى كلاب. كانت هناك بعض الحيوانات الصغيرة، العمياء بدورها، ولكنها كانت تختبئ على الفور عند الإحساس بنا.

مضى وقت طويل، لعلها ساعة أو اثنتين، وكان التعب قد نال مني، وتمنيت أن أستلقي في موضعي وأنام، ولكن خوفًا آخر كان يخامرني؛ أن تشرق الشمس ونحن لا نزال بين الأطلال، وقبل أن أستغرق كثيرًا في الفكرة قال مهند: «لقد اقتربنا من الملجأ».

شعرت بسعادة غامرة لكلماته، وتبخر التعب من أوصالي، وكدت أن أسرع السير للأمام، ولكني بدلًا من هذا تجمدت في موضعي، كانت هناك أضواء تقترب منا، من الاتجاه الآخر، ربما تكون السيارات نفسها عائدة.

استلقى مهند مختبئًا وراء جدار شبه متهدم، وفعلت مثله، لحسن الحظ أننا لم نكن على الطريق نفسه، فربما كانوا ليرونا هذه المرة.

تعالى هدير السيارات وهي تقترب حتى صارت على الناحية الأخرى منا، وخُيِّل إليَّ أنني أسمع أصوات صرخات ممتزجة بصوت المحركات، فتسارعت نبضات قلبي في خوف، وحبست أنفاسي رغمًا عني حتى ابتعد الموكب المخيف مرة أخرى، وقد ترك بداخلي الكثير من التساؤلات. ***من هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟ وإلى أين يذهبون ويجيئون؟***

قبل أن أطرح أيًّا من هذه الأسئلة على مهند وجدته ينهض مسرعًا مع اختفاء آخر سيارة في الأفق وهو يقول: «يجب أن نتحرك على الفور».

سرت وراءه بوتيرة متسارعة، ونحن نتلفت يمينًا ويسارًا عبر الطريق، حتى قال مهند أخيرًا: «ها هو الملجأ هناك».

ثم تجمد في موضعه، فلحقت به ووقفت إلى جانبه، وأنا أسأله: «ما الذي...».

اختنقت الكلمات في حلقي وأنا أحدق إلى ما ينظر إليه مهند. كان الدخان يتصاعد من الملجأ.

الفصل السابع

أسرعت أنا ومهند ناحية الملجأ، وقلبي يخفق في عنف، كانت البوابة محطمة، وهناك آثار انفجارات يتصاعد منها الدخان، وبعض رجال الملجأ يقفون هناك مرتدين أقنعة الغاز وهم يتفحصون الأضرار.

صحت فيهم: «ما الذي حدث؟».

ولكنهم أسرعوا ناحيتنا وأمسكوا بنا، مما جعلني أشعر بحيرة شديدة، ثم دفعونا عبر البوابة. كان هناك آثار معركة ما، طلقات نارية، لطخات دماء هنا وهناك. هبطنا السلم إلى المهاجع، كانت هناك أصوات ألم متعالية من بعض الأَسِرَّة. *أي جنون قد عصف بالمكان!*

كان هناك شخص جالس على مقعد حديدي متهدل الكتفين ومطرق برأسه أرضًا، ومن ورائه شخصان يحمل كل منهما سلاحًا، أدركت في دهشة أنه القائد مروان، وأدركت في دهشة أكبر أن الاثنين يصوبان السلاح ناحيته!

صاح مهند: «ما تفسير كل هذا؟».

رفع مروان رأسه، كانت هناك كدمات دامية على وجهه كأنه قد تعرض للضرب. نظر إلينا للحظة، ثم اتسعت عيناه في دهشة ببطء. قال: «مهند؟ عمر؟ لقد عدتما! ظننت أننا قد فقدنا كل من كان في هذه القافلة المنحوسة».

أدركت أن الرجلين الواقفين وراء مروان هما ليث وعدي. خلعت قناعي وأنا أتلفت حولي بحثًا عن مريم ولكني لم أرها في أي مكان، سألت في حيرة: «ما الذي حدث هنا؟».

قال ليث بصوت أجش: «خذوهم إلى حجرة الاحتجاز».

وجدت الرجال يدفعون ثلاثتنا عبر الممرات، وقاطنو الملجأ الآخرون إما يحملون سلاحًا، وإما مكومون على أنفسهم في الظلمة، لا يجرؤون على رفع أبصارهم ناحيتنا.

سرعان ما وجدت نفسي أُدفع إلى غرفة مظلمة، لا يضيئها إلا مصباح كهربائي صغير شاحب، أشبه بغرفة المراقبة، ولكنها بلا نوافذ. لم أدخل هذه الغرفة من قبل، ولكني أعرف أن القائد مروان كان يستخدمها لمعاقبة الخارجين عن قانون الملجأ باحتجازهم لبعض الوقت.

سرعان ما انصرف الرجال، وأغلقوا الباب وراءهم، ليتركونا نحن الثلاثة وحدنا في الغرفة.

خيم الصمت للحظات، ثم جلسنا نحن الثلاثة على الأرض، وقد بدا القائد مروان في حالة مزرية.

سألته في قلق وحيرة: «ما الذي حدث؟».

قال مروان في مرارة: «إنهم رجال منصور».

رجال الملجأ! إذن فقد كانت هذه هي قافلتهم! صحت: «ما الذي فعلوه؟».

صمت مروان للحظات وهو يتأملنا، ثم قال في حزن ممتزج بالغضب: «لقد فجروا الباب الأمامي، وأطلقوا النار على كل من اعترض طريقهم من رجالي. كانوا يبحثون عن ناجين من قافلتكم، ويسألون عن شيء ما... قالوا إنها شريحة أو شيء من هذا القبيل، أخبرتهم أنني لا أعرف عم يتحدثون». ثم أضاف في مرارة: «لو كان لدي ما يبحثون عنه لأعطيته لهم، ولما حدث ما حدث».

سأله مهند وهو يخلع قناعه أخيرًا: «ما الذي حدث؟». وقلت أنا: «أين مريم؟».

دفن مروان وجهه بين كفيه وقال: «لقد أخذوها، وأخذوا معها مجموعة من أطفال الملجأ. قالوا إن مصيرهم البيع عبيدًا إن لم أعِد إليهم ما يبحثون عنه». بدا عليه أنه يبذل مجهودًا كبيرًا لمقاومة الرغبة في البكاء. ***لن يهين قائد الملجأ نفسه أكثر من هذا.***

تجمدت في موضعي مع كلماته، متخيلًا الرعب الذي تشعر به مريم الآن، وكل هذا بسبب... بسبب ذلك الشيء الموجود في جيبي! هل يجب عليَّ أن أخبر القائد بأن معي ما يبحثون عنه؟ ما الذي يجب أن أفعله الآن؟ أي حمل ثقيل قد تركه الفأر على عاتقي؟

سأله مهند: «وما هذا الجنون الذي يفعله ليث ورجاله؟».

أطلق مروان زفيرًا حارًا، ثم قال: «أنت تعرف أنه لطالما اعترض ليث على سياسة الملجأ، وخصوصًا فيما يتعلق بأبناء القيامة، ويبدو أنه كان يجمع أتباعًا بين رجال الملجأ طيلة هذا الوقت، وما فعله رجال منصور كان القشة التي قسمت ظهر البعير. لقد استغلوا الفوضى التي حدثت للاستيلاء على قيادة الملجأ. لقد حملوني بشكل ما مسؤولية ما حدث للقافلة، والأطفال الذين اختطفهم رجال منصور».

تجمدت في موضعي للحظات وعقلي يموج بالأفكار. شعرت بيد مهند تربت على كتفي، ولكنني كنت مشوشًا للغاية لأستجيب. نظرت إلى مروان، الرجل الذي كان دائمًا صلبًا لا ينكسر، وهو الآن مهزوم، يغلبه إحساسه بالغضب والحزن.

بدأ صوت في داخلي يهمس: ***إذا قلت لهم... إذا أعطيتهم الشريحة، قد تنتهي هذه الكارثة... قد تعود مريم، قد يعود الأطفال.*** ولكن الجزء الآخر من عقلي راح يصيح: ***ولكن هل تثق بهم؟ ماذا سيحدث بعد أن يحصلوا عليها!***

أفقت من أفكاري على صوت مروان وهو يسألنا في حزن: «هل صحيح أن الفأر قد مات كما أخبروني؟».

قال مهند: «حسب علمي لم ينجُ أحد سواي وعمر».

أخذت نفسًا عميقًا قبل أن أقول: «ما الذي سنفعله الآن؟».

رفع القائد مروان رأسه وقال: «لا يوجد شيء بأيدينا لنفعله الآن».

فاجأتني إجابته، قلت له: «هل تقصد أنك لن تفعل شيئًا؟ لن تواجه ليث ورجاله؟ لن تنقذ مريم والأطفال المخطوفين؟».

زفر بيأس ثم قال: «لا يوجد شيء بأيدينا لنفعله الآن، لا أعرف كيف أواجه ليث، أما منصور فلا شك أنه سرعان ما سيدرك أنه مخطئ وأننا لا نعرف شيئًا عن هذه الشريحة التي يبحث عنها».

شعرت بذلك الشيء في جيبي ثقيلًا للغاية. *لن يدرك منصور أنه مخطئ، بل يعرف أنه محق تمامًا!* لم أقدر على قول أي من هذا للقائد مروان.

قلت في حنق: «ماذا لو أدرك أنه مخطئ، ولكنه قرر بيعهم عبيدًا على أي حال، فهو لن يخسر شيئًا».

اتسعت عينا مروان، ثم قال ببطء: «ربما تكون محقًّا، ولكن لا قبل لنا بمواجهة منصور وحدنا».

قلت في ضيق: «يجب علينا أن نفعل شيئًا».

قال مهند: «بالتأكيد سنفعل شيئًا ما، ولكن يجب علينا التفكير مليًّا».

هز مروان رأسه وقال: «لم أشعر بمثل هذا العجز في حياتي، عندما كنت جنديًّا أقاتل في صفوف المتمردين كنت أشعر أنني حر، لم أخشَ الموت، ولكن الآن هناك شيء أخاف عليه أكثر من حياتي؛ ابنتي مريم. لو أعرف أن ذهابي الآن إلى المترو لإنقاذها سيؤدي إلى موتي ونجاتها لما ترددت لحظة واحدة، ولكني لا أعرف حتى أين هي الآن».

هززت رأسي وقلت: «ربما يمكننا استخدام العقل، إن استطعنا الهرب من الملجأ، والتسلل خلسة إلى المترو لاستطعنا تحرير مريم».

سألني مهند: «وماذا سنفعل بعدها؟ لا يمكننا العودة إلى الملجأ!».

زفرت وقلت: «لا شك أن هناك مكانًا آخر، القاهرة واسعة». ثم ترددت قبل أن أقول: «ربما يمكننا الذهاب إلى أبناء القيامة!».

زفر مروان، بينما قال مهند: «أبناء القيامة لا يتدخلون في الصراعات ما بين الملاجئ المختلفة، لا مصلحة لهم في الأمر».

تحسست جيبي وأنا أقول: «ربما هناك ما يمكنه تغيير رأيهم؟».

قال مهند في ريبة: «ما الذي تحاول أن ترمي إليه؟».

قلت في جمود: «أقول إن علينا الخروج ومواجهة الخطر بأنفسنا بدلًا من انتظاره هنا».

قال مروان في حنق: «تخرج من الملجأ مرة واحدة والآن تعتقد أن باستطاعتك فعل كل شيء. ألم تعلمك رحلتك هذه شيئًا؟ ألم تدرك حتى هذه اللحظة مدى الخطر الموجود بالخارج؟».

فاجأني غضبه، فاتسعت عيناي دهشة، ثم قلت: «ربما أكون أقلكم خبرة، ولن أكذب وأقول إنني لست خائفًا، بل إنني مرعوب من فكرة العودة إلى الخارج الآن. أتمنى أن يعود كل شيء كما كان بالأمس، الفأر معي، ومريم، و...». صمتُّ لحظة ثم قلت: «ولكن كل شيء قد تغير، ولم يعد حتى البقاء في الملجأ آمنًا، لذا ربما من الأفضل أن نخرج لمواجهة الخطر بدلًا من انتظاره هنا».

خيم الصمت على الغرفة، ثم قال مروان: «أنت محق، لقد نفثت عن غضبي في وجهك بلا ذنب لك، ولكني لم أشعر من قبل بمثل هذا العجز! أتمنى على الأقل أن أعرف إلى أين أخذ منصور ابنتي والأطفال الآخرين».

قال مهند فجأة: «أعتقد أنه قد أخذهم إلى معسكر العبيد».

عقدت حاجبيَّ وقلت: «ما هذا المعسكر؟».

قال مهند: «هناك عدد من محطات المترو غير المحطة الرئيسية، وإحداها يستخدمها منصور معسكرًا يحتفظ فيه بالعبيد حتى بيعهم، الاحتمال الأقرب أنه قد أمر بأخذ مريم والأطفال إلى هناك».

قال مروان وهو يفرك ذقنه: «تبدو فكرة معقولة».

لا أعرف لمَ لمْ أخبرهما بشأن الشريحة التي تركها معي الفأر، ربما لإحساسي أنهما سيفكران على الفور في إعادتها إلى منصور، وقد يكون هذا هو القرار الصائب، ولكني لا أعرف ما تحمله هذه الشريحة من أهمية حتى الآن، كما أنني تذكرت كلمات الفأر الأخيرة لي قبل موته؛ ***إن حدث لي شيء سيكون عليك أن توصلها إلى نادين من أبناء القيامة***. لقد كانت... وصيته الأخيرة قبل موته. شعرت بطعنة حزن في قلبي مع هذه الفكرة، لم أعتد بعد فكرة أن الفأر قد مات.

قال مهند: «يجب علينا الآن أن نفكر في طريقة للخروج من الملجأ، وبعدها نفكر في بقية الأشياء».

تردد مروان قليلًا، ثم قال: «هناك شيء في الملجأ لا يعرفه أحد سواي». نظرنا إليه في فضول فقال: «هناك ممر سري يؤدي من الملجأ إلى الخارج، وفي آخره توجد سيارة صغيرة خفيفة الحركة، يمكننا أن نستقلها هربًا من هنا».

قال مهند وهو يفرك ذقنه بسبابته وإبهامه: «المهم الآن هو كيف نصل إلى هذه السيارة!».

نظر مروان ناحية الباب وقال بمرارة: «المهم أن ينفتح هذا الباب اللعين أولًا».

خيم علينا الصمت بعد هذه الكلمات، ولم ينطق أيٌّ منا بشيء آخر، وغرق كل واحد منا في أفكاره الخاصة. سرعان ما غلبني النوم، نوم مضطرب مفعم بالكوابيس، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أستيقظ منه على صوت فتح الباب.

فتحت عينيَّ ببطء حتى اعتادتا الضوء الأصفر الشاحب، فرأيت ليث يكشر عن أنيابه في ابتسامة شرسة ومن ورائه اثنان من رجاله. بدت هذه اللحظة كأنها مشهد كابوسي قد خرج من نومي المضطرب إلى الواقع.

قال ليث بنبرة متعجرفة وهو يتقدم للأمام: «كنت دائمًا الرجل الذي لا ينكسر يا مروان، ولكن حتى أقوى الرجال يصيبهم الضعف في نهاية المطاف، أليس كذلك؟».

شعرت بمهند يمسكني من ذراعي، في إشارة إلى أن أبقى هادئًا.

رغم التعب الذي كان باديًا على وجه مروان فإنه حدج ليث بنظرة ثابتة، وقال ببرود: «أنت أحمق إذا ظننت أنني سأستسلم بهذه السهولة».

اتسعت ابتسامة ليث وهو يقول: «لم آتِ من أجلك الآن يا مروان. كل ما أريده هو ما يبحث عنه منصور، وبما أن هذين الشابين هما الوحيدان العائدان من القافلة فلا شك أنهما يعرفان شيئًا عن الأمر».

شعرت بقلبي ينبض بسرعة. ***الشريحة، الشيء الذي تركه لي الفأر قبل موته، الشيء الذي يبحث عنه الجميع. لا يمكنني أن أسمح لهم بأخذها!***

تحرك مهند بسرعة البرق وبشكل غير متوقع، وكأن عقله قد رسم كل شيء قبل أن يحدث. بحركة خاطفة استل مدية حادة من جيبه وانقض على أحد رجال ليث الواقفين بجواره. بدقة مذهلة غرز المدية في ساق الرجل، الذي أطلق صرخة ألم مدوية وسقط على ركبتيه ممسكًا بساقه.

في تلك اللحظة كانت الأنظار كلها على مهند، الذي لم يضيع ثانية واحدة، فانتزع سلاح الرجل المصاب بحركة سريعة، وبدون تردد وجهه نحو الرجل الآخر الذي حاول التحرك للدفاع عن نفسه. ضغطة واحدة على الزناد كانت كافية لإسقاطه أرضًا، خرجت من حلقه صرخة قصيرة قبل أن يرتطم جسده بالأرض بلا حراك.

كل شيء قد حدث بسرعة كبيرة، فتجمد ليث وهو يراقب المشهد بعينيه المذهولتين، مدركًا أن الوضع خرج عن السيطرة. فجأة تراجع ليث بخطوات سريعة ثم استدار ليهرب عبر الباب المفتوح قبل أن يختفي في الظلام خارج الغرفة.

في تلك اللحظة خيم الصمت من جديد على المكان. لم يكن من صوت إلا أنفاس مهند المتلاحقة، وقلوبنا التي تخفق بشدة.

قال مهند: «هيا! لا يوجد وقت لإضاعته».

أسرعنا خارجين من الغرفة، وتحركنا في اتجاه معاكس للاتجاه الذي سلكه ليث، ثم سمعنا صيحات رجال تلحق بنا ولكننا لم نتوقف. أطلق بعضهم رصاصات تحذيرية من مسافة بعيدة، ولكن مهند بادلهم إطلاق النار مما جعلهم يترددون.

قال مروان في لهفة: «لقد اقتربنا من الممر السري».

تابعنا الجري بسرعة وأصوات خطواتنا تتردد على أرضية الممر، بينما أصوات الصيحات والرصاصات تلاحقنا. كنا نشعر أن نهايتنا قد تحين في أي لحظة ولكننا لم نتوقف. كان مروان في المقدمة يقودنا بثقة نحو الممر السري الذي لا يعرف بشأنه أحد سواه، وأنا ألحق به، ومن ورائي مهند يطلق النار إلى الوراء من آن إلى آخر، محاولًا كبح جماح تقدم رجال ليث الذين يحاولون اللحاق بنا.

أخيرًا وصلنا إلى باب معدني قديم مخفي خلف أكوام من الصناديق المهملة. اندفع مروان نحو الباب وبدأ في فتحه بسرعة بينما كنا نراقب الممر، وقلوبنا تكاد تتوقف مع كل ثانية تمر.

بمجرد أن فتح الباب، سمعنا أحد رجال ليث يصيح: «إنهم هناك!».

تلا ذلك صوت رصاصات وسمعت مروان يتأوه وهو يمسك بصدره. اتسعت عيناي في جزع! لقد أصيب القائد. ولكنه لم يتوقف، بمجرد أن عبرنا الباب إلى الناحية الأخرى، حتى صاح فينا: «أسرعا! لا وقت لنضيعه!».

كانت أنفاسنا متلاحقة، وقلوبنا تنبض بقوة وكأنها ستخرج من صدورنا. نظرت إلى مروان، والدم يسيل من بين أصابعه وهو يضغط على جرحه.

قلت بصوت مرتجف: «أنت تنزف أيها القائد!».

لكنه تجاهلني، وهو يحدق إلى الأمام بوجه مليء بالإصرار رغم الألم الذي أراه في عينيه. ضغط مهند على مفتاح صغير، فظهر ضوء أصفر في الممر، ثم قال بصوت متقطع: «أسرعا... السيارة ليست بعيدة... يجب أن نخرج من هنا قبل أن يتمكنوا من فتح الباب».

وضع مهند ذراعه تحت كتف مروان، بينما وضعت ذراعي تحت الكتف الأخرى لأدعمه. تحركنا بسرعة عبر الممر الضيق، حتى رأينا على الضوء الأصفر سيارة صغيرة في نهاية الممر، وأمامها باب معدني آخر.

أشار مروان إلى ذراع في الجدار وقال: «هذا هو... مفتاح الباب الخارجي. فليفتحه أحدكما... بسرعة!».

تحركت على الفور، ويداي ترتجفان من التوتر ثم أمسكت بالذراع الحديدي ورفعته لأعلى بقوة. سمعت صوت تروس تصدر صريرًا حادًّا، ثم بدأ الباب المعدني يرتفع ببطء، ليكشف عن ضوء النهار بالخارج، لم تغرب الشمس بعد!

في تلك اللحظة هوى مروان أرضًا، فأسرعت ناحيته في جزع، بينما مهند يجثو على ركبتيه إلى جواره. قال مروان: «لن أستطيع... الاستمرار... أرجوكما... أنقذا... مريم...».

ومع كلماته الأخيرة غاب الضوء من عينيه، وارتخت رأسه على صدره.

قبل أن أجد وقتًا للإحساس بالحزن سمعت صوت رجال ليث يحاولون كسر الباب المؤدي إلى الممر السري. نظرت إلى مهند وقلبي يخفق بشدة. علينا أن نتحرك بسرعة، فالوقت يداهمنا.

اندفع مهند باتجاه السيارة الصغيرة وجلس أمام المقود، بينما جلست على المقعد المجاور. رأيته يمد يده إلى المفتاح الموجود في موضعه بالفعل، ثم أدار المحرك. انطلقنا بأقصى سرعة عبر الباب المفتوح، تاركين خلفنا أصوات الصرخات والرصاصات التي حاولت عبثًا اللحاق بنا.

الفصل الثامن

انطلقت السيارة في النهار عبر أطلال القاهرة، بينما لا أزال أشعر بصدمة تجتاحني بسبب ما حدث لمروان. لطالما شعرت بشيء من الغضب تجاهه، وكان السبب الأساسي هو إحساسي بأنه من يرفض خروجي من الملجأ، ولكن بعد معرفتي أن الفأر هو من طلب منه هذا... تذكرت لحظات أخرى كان مروان يتصرف فيها كأبٍ لكل قاطني الملجأ، وشعرت كأنني فقدت أبًا، وكان الإحساس أكثر قسوة بعد خسارتي للفأر!

حاولت الهرب من أفكاري بتأمل المشهد عبر النافذة، وشعرت كأنني أرى أطلال القاهرة للمرة الأولى، فالمشهد كان مختلفًا تمامًا. كانت الأطلال أكثر وضوحًا بالنهار، فلم تعد تبدو كظلال أشباح تسكن الليل، بل ظهرت بهيئتها الحقيقية؛ بقايا الطوب والخرسانة، ولكنها بشكل ما بدت مخيفة أكثر. حتى هياكل السيارات الصدئة بدت في ضوء النهار كأنها جثث ترفض التحلل.

كانت الشمس الحمراء قد اعتلت كبد السماء، مرسلة أشعتها القاسية عبر الغلاف الجوي الممزق؛ قرصٌ أحمر دامٍ مخيف، منذر بالموت والهلاك. حذرني مهند من النظر ناحيتها مباشرة حتى من وراء القناع، فاكتفيت بلمحة عابرة قبل أن أبعد عينيَّ على الفور.

كان كل منا قد ارتدى قناعه، ولحسن الحظ أننا نرتدي ثيابًا تغطي جسدينا بالكامل رغم حرارة الجو، فلا يفضل أن تصل أشعة الشمس إلى أي جزء مكشوف من الجسم، ولو لفترة قصيرة.

كان مهند لا يزال صامتًا، فسألته: «إلى أين نذهب الآن؟».

قال مهند في وجوم: «معسكر العبيد، هذا هو المكان الذي أخذ إليه رجال منصور الأطفال ومريم على الأرجح». ثم نظر إليَّ وقال: «سنحاول تنفيذ خطتك؛ أن نتسلل خلسة. سنفعل هذا، سنتسلل في وضح النهار بينما لا أحد يشك في وجودنا».

رغم أنها كانت فكرتي، فإنني شعرت في هذه اللحظة أنها فكرة انتحارية، ولكن لم يعد هناك مجال للتراجع!

بعد مرور بعض الوقت صارت السيارة تمشي بمحاذاة نهر النيل، ومياهه البنية الداكنة، وسحابة من الضباب الأخضر تطفو على سطحه، بشكل أثار الغثيان في نفسي. حكى لي الفأر أن النيل في الماضي كان أزرق اللون، مثلما أن السماء كانت زرقاء، ولكني لم أستطع تخيل هذا. ابتسمت في حزن عندما تذكرت الفأر، كنت ألح عليه في سؤاله عن الحياة ما قبل الكارثة، وكان يجيبني أحيانًا، ولكن في أحيان أخرى كان يهرب من السؤال. قال لي ذات مرة: «إن ذاكرتي عن الحياة قبل الكارثة كحلمٍ قد استيقظت منه للتو، تحاول الإمساك بخيوطه ولكنه يراوغك ويهرب من بين أناملك، صورٌ ضبابيةٌ متغيرة، بمرور الوقت تزداد شحوبًا حتى تكاد تشك في وجودها، وتظن أن عقلك قد اختلقها».

انتبهت لأن المكان يبدو ساكنًا للغاية، لا توجد حيوانات - كلاب أو غيرها - ولا يوجد متحولون في أي مكان، أدركت أنهم جميعًا قد حثتهم غريزتهم على الهرب من أشعة الشمس إلى الظلال الباردة للمخابئ تحت الأرض أو بين الأطلال.

كان الصوت الوحيد الذي يشق سكون النهار هو هدير محرك السيارة الصغيرة، ولكني لا أعتقد أن شيئًا سيجرؤ على مهاجمتنا في ضوء الشمس، ولأول مرة أشعر أن الشمس تحمينا بشكل ما. ارتسمت على شفتي ابتسامة ساخرة دون أن أتكلم.

كان مهند شاردًا في أفكاره الخاصة، فسألته: «إذن هل تعرف هذه المحطة التي نتوجه إليها؟».

قال ببساطة: «بالتأكيد، أعرفها جيدًا، رغم أنني لم أدخلها من قبل، لقد دخلت محطات أخرى، ومعظمها متشابهة، لذا أشك أن هذه المحطة ستكون مختلفة».

عقدت حاجبيَّ وقلت: «ولكن ماذا لو أن رجال منصور لم يأخذوا مريم والأطفال إلى هناك؟ ماذا لو أنهم قد أخذوها إليه مباشرةً؟ فهو على أي حال يريد استخدامها من أجل المساومة على... تلك الشريحة التي يبحث عنها؟».

تنهد مهند وقال: «أعتقد أنه يجب علينا المقامرة على أحد الاحتمالين، ومعسكر العبيد يبدو أقربهما، فلن يرغب منصور في إثارة الفوضى في المحطة المركزية بجلب الأسرى إلى هناك». ثم عقد حاجبيه وقال: «ما هذه الشريحة على أيّ حال؟ لِمَ أُصيب الجميع بالجنون هكذا فجأة بسبب شيء كهذا؟».

كان الحمل ثقيلًا للغاية على عاتقيَّ، لذا وجدت نفسي أمد يدي إلى جيبي ببطء، وأخرج منه ذلك الشيء الفضي المستطيل، وخطوطه الذهبية الباهتة. لأول مرة أنظر إليه بتمعن منذ أن أعطاه لي الفأر، قلت بوجوم: «هذه هي الشريحة».

تمايلت السيارة قليلًا ومهند يحدق إليها بذهول، قبل أن يستعيد سيطرته عليها وهو يقول: «ما هذا بحق الجحيم؟ كيف حصلت عليها؟».

أخبرته بكلمات مقتضبة بما حدث مع الفأر قبل موته، وما أخبرني به حينها. لاذ مهند بالصمت قليلًا ثم قال: «وما دخل نادين وأبناء القيامة بهذا؟ وما علاقة الفأر بهم؟».

قلت في ضيق: «ليتني أعرف».

لمعت عيناه فجأة وقال: «ولكن هذا ينهي الأمر، يمكننا أن نعطي منصور الشريحة وننهي كل هذه الفوضى». ثم قال بحزن: «ليت القائد كان حيًّا لنخبره بهذا...».

قاطعته قائلًا: «لا! لن أجعل موت الفأر يضيع هباءً». ثم أضفت في مرارة: «لقد كان بمنزلة الأب بالنسبة إليَّ».

نظر إليَّ مهند نظرة جانبيه وقال: «وماذا عن تضحية القائد مروان؟».

ازدردت لعابي وقلت: «لن تضيع هباءً سننقذ مريم والأطفال».

صمت مهند للحظة ثم قال: «ولكنك بهذا ستكتسب معاداة منصور، من يعرف ماذا سيحدث إن نجحت خطتنا المجنونة في تحرير مريم، أين سنذهب بعدها؟».

قلت وأنا أعيد الشريحة إلى جيبي: «ليتني أعرف! ليت كل هذا لم يحدث!».

فجأة أبطأ مهند السيارة وهو يقول: «لقد اقتربنا كثيرًا من معسكر العبيد، ويجب علينا الآن أن نقرر ما سنفعله». ثم توقفت السيارة تمامًا قبل أن يقول: «سنكمل المسافة المتبقية مشيًا لكيلا يجذب محرك السيارة انتباه أي شخص».

هدأت سحابة الغبار التي كانت تحيط بالسيارة بينما مهند ينظر إليَّ قائلًا: «ماذا سنفعل؟».

حدقت عبر زجاج السيارة الأمامي إلى أطلال القاهرة التي لا تبدو مختلفة عن أي أطلال أخرى، ثم قلت: «لا أعرف». وضعت يدي على جيبي كأنني أتمنى من روح الفأر أن ترشدي قبل أن أقول: «رباه! لا أعرف!».

ترجلنا عن السيارة بالقرب من بعض الأطلال الظليلة بعيدًا عن أشعة الشمس، لكي تساعد الظلال على إخفاء موضع السيارة. بدأنا نتحرك ناحية الوجهة التي أشار إليها مهند، متعمدين السير بين الأطلال، متحاشين أشعة الشمس المباشرة، إلا للضرورة القصوى حينما لا يكون هناك مفر من هذا، وعندها نتحرك بأقصى سرعة لدينا.

كلما تحركنا في أشعة الشمس الساخنة كنت أشعر بحرارتها رغم ما أرتديه من ثياب تغطي جسدي كله، وشعور آخر غريب كأن هناك آلاف الحشرات الضئيلة التي تزحف على جلدي، ولكني بذلت قصارى جهدي لتجاهل هذا الشعور.

بعد مسيرة بضع دقائق أشار مهند إلى الموضع الذي نتجه إليه، ذكرني بمدخل محطة المترو الأخرى، مبنى صغير به سلم يؤدي إلى عمق الأرض، ولم يكن هناك حرس واقفون أمام المدخل، لعل هذا يرجع إلى كوننا بالنهار فيتحاشون أشعة الشمس ككل مخلوق عاقل، أو لثقتهم بأن هجومًا مباشرًا لن يحدث ضد محطة مترو تابعة لمنصور. على أي حال شعرت بالارتياح لعدم وجود حرس، ولكن مهند لم يتوجه ناحيتها مباشرةً. على بعد بضعة أمتار من هذا المدخل المباشرة، كان هناك مبنى صغير متداعٍ، لعله يتسع لشخص واحد فقط، وكانت أرضيته... غير موجودة، بل مجرد فجوة مظلمة تفغر فمها.

تقدمنا نحو المبنى الضئيل بحذر شديد، ونحن نتلفت حولنا خشية أن يكون هناك من يراقبنا. عندما اقتربت من الفجوة ووقفت في ظل المبنى شعرت كأن هناك هواءً باردًا رطبًا يخرج من الفجوة المظلمة من تحت الأرض، فأخذت نفسًا عميقًا.

سألت مهند: «لم يعد هناك مجال للتراجع الآن، هل أنت واثق بأن هذا هو القرار الصائب؟».

أومأ مهند برأسه وقال: «لدي إحساس عميق أننا سنجد مريم هنا، وإن لم نجدها... حسنًا، سنفكر بعدها فيما يجب علينا فعله». ثم نظر ناحيتي بنظرة جانبية وقال: «ما زلت أعتقد أن...».

قاطعته قائلًا: «لا! لن أعطي منصور الشريحة!». ثم صمتُّ قليلًا قبل أن أضيف: «على الأقل ليس قبل أن أعرف ماذا تكون بالضبط، وما سر أهميتها، ولمَ يسعى وراءها الجميع».

قال مهند في ضيق: «وهل هذا هو المهم الآن حقًّا؟!». ثم تنهد وقال: «سنتحدث عن هذا لاحقًا». أخرج حبلًا متينًا من حقيبته وربطه حول قطعة من الحديد البارز من الجدار. قال: «سأهبط أنا أولًا، وعندما أصل إلى الأسفل سأهز الحبل لتعرف أنه دورك».

راقبته ينزل ببطء ممسكًا الحبل بكلتا يديه، حتى ابتلعته الظلمة تمامًا. بعد بضع لحظات رأيت الحبل يهتز بقوة، فازدردت لعابي، ثم أمسكته بكلتا يدي وبدأت أهبط ببطء.

كان ضوء الشمس يقل بينما أهبط لأسفل حتى صار الضوء خافتًا، وعندها لمست الأرض بقدميَّ، فشعرت ببرودة تتسلل من خلال حذائي. كان هناك صوت قطرات مياه تتساقط في مكانٍ ما عبر الممر المظلم الواقفين فيه. كانت الرؤية ضعيفة للغاية، لكن مهند أخرج مصباحه اليدوي ليكشف لنا عن الممر الضيق أمامنا. بدأنا السير بحذر، محاولين ألا نصدر صوتًا، ولكن صدى خطواتنا كان يتردد عبر النفق خافتًا، ممتزجًا مع صوت تساقط قطرات المياه.

رفع مهند كشافه ناحية السقف، فرأيت مواضع تساقط قطرات الماء من السقف، فقلت في دهشة: «من أين تأتي المياه؟».

قال لي مهند: «هذا المكان قريب من النيل، ربما مياه النهر تتسلل عبر التربة، أو أن هناك نظامَ صرفٍ قديمًا يمر من هنا قد أصابه العطب بمرور السنوات».

رأيت أن هناك بعض الآنية البلاستيكية موضوعة في أماكن متفرقة لالتقاط المياه المتساقطة، ولكن لم يكن هناك أحد في النفق، لعلهم سيأتون لاحقًا لجمع الماء، بعد غروب الشمس.

بعد عدة دقائق من السير في الممر المظلم، وصلنا إلى باب معدني كبير. كان مغلقًا بإحكام فأعطاني مهند الكشاف، ثم أخرج من جيبه مديته الحادة وراح يعبث بها في قفل الباب. بعد مرور بضع لحظات عصيبة، سمعت صوت تكة معدنية، تشي بفتح قفل الباب.

أخذ مهند المصباح مني وأطفأه. قال لي هامسًا: «قد يكشف الضوء عن موضعنا». قبل أن يستل مسدسه من حزامه، ويدفع الباب ببطء شديد.

على الجانب الآخر من الباب لم يكن هناك شيء سوى الظلمة، والممر الممتد، ولكن في آخر الممر كان هناك ضوء، فرفع مهند سبابته إلى شفتيه، في إشارة إلى الصمت، ولكني كنت قد حبست أنفاسي بمجرد رؤية الضوء، لا شك أن الضوء يعني وجود بشر هنا.

استللت مسدسي بدوري، وتقدمت إلى جانب مهند في حذر، حتى اقتربنا من نهاية الممر، فألقينا نظرة حذرة عبر الفتحة.

كانت منطقة واسعة، شبيهة بمحطة المترو الأخرى، تتناثر في السقف مصابيح كهربائية صفراء شاحبة، تبعث ظلالًا أكثر منها ضوءً، ولكن بدلًا من عربات المترو في المحطة الأخرى كانت هناك مجموعة من الأقفاص، أشبه بأقفاص الدجاج في الملجأ، التي تكون خالية في معظم الأوقات إلا عندما يمنحنا أبناء القيامة بعض الدجاج المعدل جينيًّا، لنستبدل حساء الدجاج بحساء الفطر لأيام قليلة.

كانت الظلال مخيمة على الأقفاص، ثم أدركت أن هناك أشخاصًا بداخل الأقفاص، معظمهم يبدون مستلقين بلا حراك، ولكن بعضهم يتحركون حركات طفيفة، أو يتحدثون بأصوات هامسة.

في المساحة الفاصلة ما بين الأقفاص رأيت مجموعة من الحراس يجلسون في دائرة ويبدو أنهم يلعبون لعبة ما باستخدام مجموعة من الأوراق، وقد وضعوا أسلحتهم إلى جانبهم.

تحركنا في صمت تام، عبر الظلال التي لا تصل إليها أضواء المصابيح، بينما الحراس منهمكون في لعبتهم. رحت أنقل عينيَّ بينهم وبين المحبوسين في الأقفاص باحثًا في لهفة عن مريم، أو أي من أطفال الملجأ.

كانت الوجوه التي يصل إليها الضوء شاحبة، وهزيلة فتبدو كأنها جلد مشدود على جماجم، ولكن معظمهم كانوا نائمين لحسن الحظ فلم ينتبهوا لنا.

فجأة تعثرت قدمي في حجر، فتجمدت في موضعي، وكذلك فعل مهند. سمعت أحد الحراس يقول: «هل سمعتم صوتًا؟».

قال آخر بعد لحظة من الصمت: «لعله فأر أو شيء كهذا».

فقال الآخر في شك: «ربما».

راحوا يتلفتون حولهم لبضع لحظات، ولحسن الحظ لم يميز أحدهم هيئتنا بين الظلال. فجأة نظرت إلى القفص بجانبي فرأيت طفلًا صغيرًا مستيقظًا ينظر ناحيتي بتساؤل ممتزج باللهفة. رفعت إصبعي إلى شفتي، فأومأ برأسه. لم يكن أحد أطفال الملجأ للأسف، ولكن يبدو أنه قد أدرك أننا لسنا تابعين لهؤلاء الذين يسجنونهم، فراح يتأمل حركتنا بين الظلال في تساؤل.

أذهلني هذا العدد الكبير من الأقفاص، وهذا العدد الكبير من العبيد، كلما ظننت أنني رأيت أسوأ ما في هذا العالم يتضح لي أنه لا يزال هناك الأسوأ. وفكرة أن تواجه مريم مثل هذا المصير، أن تتحول إلى هيكل عظمي شاحب ينتظر من يشتريه... اعتصرت قلبي قبضة ثلجية.

اقترب مني مهند وهمس في أذني: «لا يوجد أثر لمريم... أو الأطفال الآخرين».

أومأت برأسي في حزن، لقد غامرنا بهذه المحاولة، ولكننا فشلنا. أشار مهند ناحية المخرج دون أن يتكلم، ولكني فهمت ما يعنيه؛ يجب علينا أن نتحرك على الفور قبل أن يشعر الحرس بنا.

بدأنا نتحرك متسللين عائدين عبر الظلال، دون أن يشعر بنا الحراس لحسن الحظ، وعندما اقتربنا من الفتحة المؤدية إلى النفق، صاح الطفل من القفص: «لا تتركونا هنا!».

صاح أحد الحراس على الفور: «ما الذي يحدث هنا؟».

على الفور بدأنا نركض ناحية النفق، ومن ورائنا جاء صوت حارس آخر يصيح: «شخص ما في النفق».

ركضنا بكل ما لدينا من قوة حتى وصلنا إلى الباب المعدني، فأغلقناه وراءنا، وواصلنا الركض حتى وصلنا إلى موضع الحبل. قال مهند: «اصعد أنت أولًا».

قلت: «أنت أولًا...».

ولكنه قاطعني على الفور: «لا وقت لنضيعه».

تعالى صوت طرقات على الباب المعدني، وصوت مكتوم لحارس يصيح: «المفتاح! أين المفتاح!».

في منتصف الطريق لأعلى سمعت دوي رصاصة، وصرخة ألم، وصوت أحد الحراس يصيح: «تراجعوا إنه فخ!».

تسارعت نبضات قلبي، وتدفق الأدرينالين في عروقي وأنا أجذب نفسي لأعلى.

بمجرد أن خرجت من الفتحة حتى نظرت إلى الأسفل شاهرًا مسدسي، ولكن سرعان ما خرج مهند من الفتحة قبل أن ينتزع مسدسه من حزامه وهو يقول: «لقد أسقطت واحدًا منهم، ولكن البقية سيلحقون بنا».

أسرعنا راكضين ناحية الموضع الذي خبأنا فيه السيارة. قفز مهند على الفور إلى مقعد السائق، بينما قفزتُ إلى المقعد المجاور له.

تعالى هدير السيارة قبل أن ننطلق عبر أطلال القاهرة.

بعد بضع دقائق تعالى صوت هدير من ورائنا. نظرت عبر الزجاج الخلفي، فرأيت سحابة من الغبار. صرخت: «إنهم يطاردوننا!».

كان هناك سيارتان تلحقان بنا، وعلى متنهما بعض الحراس.

ضغط مهند على دواسة الوقود بأقصى قوته، ونحن نشق طريقنا بين الأطلال في محاولة للابتعاد عن مطاردينا. كانت الطرق المدمرة والمليئة بالحطام تجعل القيادة صعبة للغاية، ولكن مهند كان يتنقل ببراعة بين العقبات.

قال مهند بحدة: «علينا أن نجد طريقة للتخلص منهم. لا يمكننا الاستمرار هكذا».

نظرت حولي، محاولًا التفكير في شيء ما، ثم قلت له: «ربما يمكننا استخدام الأطلال لجعلهم يفقدون أثرنا». أومأ مهند برأسه. فجأة رأيت مجموعة من المباني المتهدمة تشبه متاهة من الأنقاض إلى جانب الطريق. قلت: «انعطف هنا! يمكننا استخدام الأنقاض لمراوغتهم والهرب منهم».

انحرف مهند بسرعة ودخلنا متاهة الأنقاض. كان الطريق ضيقًا ومتعرجًا، ولكن لحقت بنا السيارتان، عبر المسار نفسه.

صرخت: «سيصطدمون بنا!».

في تلك اللحظة، رأيت الطريق يتقاطع إلى مسارين، ولكن مهند ظل يتقدم إلى الأمام حتى ظننت أننا سنصطدم، وفجأة انحرف مهند بسيارته بسرعة إلى اليسار ناحية ممر ضيق، وفي اللحظة الأخيرة اصطدمت إحدى السيارتين بأنقاض الجدار وانقلبت بعنف. سمعت صوت اصطدامها وصيحات الحراس بداخلها، بينما ظلت السيارة الأخرى تطاردنا.

واصل مهند القيادة بسرعة، ونحن نحاول الابتعاد أكثر عن الحراس. فجأة سمعت صوت طلقات نارية، نظرت خلفي ورأيت الحراس يطلقون النار علينا من سيارتهم. صرخت وخفضت رأسي بينما أحنى مهند رأسه بدوره، والرصاصات تصطدم بالأطلال من حولنا.

قلت لمهند: «عليك أن تفعل شيئًا! لن نصمد طويلًا هكذا!».

تلفت مهند حوله بسرعة، ثم قال: «أمسك المقود!». ثم أمسك مسدسه وأخرج يده ورأسه من النافذة، وبدأ في إطلاق النار على سيارة الحراس. رأيت سيارتهم تبطئ قليلًا وهي تنعطف يمينًا ويسارًا لتحاشي الرصاصات، بينما لا تزال تطاردنا.

فجأة رأيت النيل في الأفق أمامنا، ونحن نتوجه ناحيته بكل سرعة، فصرخت في مهند الذي أمسك بالمقود مرة أخرى. كان هناك جسر أمامنا، وأدركت أن مهند ينوي عبوره إلى الناحية الأخرى. أصابت بعض الطلقات هيكل السيارة، وإحداها اخترقت الزجاج الخلفي، محطمة الزجاج الأمامي، فراح الهواء يرتطم بوجهينا في عنف.

فجأة أدركت بينما نعبر الجسر أنه متهدم، كانت هناك فجوة كبيرة في منتصفه، ولكن الجزء المتبقي من الجسر كان يبدو متينًا بما يكفي.

قلت: «مهند...!».

ولكنه قال بحزم: «تشبث جيدًا. سنقفز!». ثم ضغط دواسة الوقود بكل ما لديه من قوة.

اندفعت السيارة عبر الجسر بسرعة كبيرة، شعرت بأنفاسي تتسارع وقبضت بيديَّ على المقعد. انطلقت السيارة من الحافة وقفزت عبر الفجوة. لثوانٍ معدودة شعرت كأننا نطير، ثم هبطت السيارة بقوة على الجانب الآخر. كان الهبوط قاسيًا، لكننا نجونا.

نظرت خلفي ورأيت سيارة الحراس تتوقف عند حافة الجسر المتهدم، فتنفست الصعداء وشعرت بموجة من الارتياح تجتاحني.

قال مهند بلهجة حازمة: «لقد نجونا، ولكن علينا أن نبقى حذرين. لن يستسلموا بسهولة».

ثم بدأ يتحرك بسيارته مرة أخرى فسألته: «إلى أين؟».

قال متجهمًا: «سنعود إلى الملجأ».

قلت على الفور: «لا!». نظر إليَّ مهند في تساؤل فقلت: «سيكون هذا أول مكان يبحث فيه منصور عنا».

قال مهند في تعجب: «أين سنذهب إذن؟».

صمتُّ قليلًا ثم قلت: «إلى أبناء القيامة».

الفصل التاسع

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، واشتدت الحرارة حتى لم أعد قادرًا على احتمال ملابسي، وكدت أن أخلعها لولا خوفي من التعرض لأشعة الشمس المباشرة. كان السكون مخيمًا على كل شيء، لا بشر ولا حيوانات ولا حشرات، كل شيء مختبئ من الشمس.

لقد ابتعدنا عن النيل مخترقين أطلال القاهرة، فسألت مهند: «هل أنت واثق من الطريق؟».

قال مهند: «لم أذهب إلى مقر أبناء القيامة من قبل، ولكني سمعت عنه، إنه يقع في قلب القاهرة، ينبغي أن نصل إليه إن مشينا مباشرةً باتجاه الشرق».

قلت له: «أتمنى أن تكون محقًّا، وألا نضل طريقنا في هذا العالم الموحش».

صمت مهند لحظة ثم قال: «قل لي مرة أخرى ما الذي تخطط لفعله بمجرد أن نصل إلى أبناء القيامة».

تنهدت ثم قلت: «إن كانت هذه الشريحة مهمة حقًّا حتى إن منصور مستعد لفعل كل هذا من أجلها فلا شك أنها بنفس الأهمية لدى أبناء القيامة. إن أخبرناهم أننا سنمنحها لهم إن ساعدونا على إنقاذ مريم وحمايتنا من منصور فلا شك أنهم سيقبلون».

قال مهند: «ولمَ لا نختصر المسافة ونعطيها مباشرة لمنصور؟ لا شك أنه سيمنحنا مريم والأطفال ويتركنا وشأننا».

هززت كتفي ثم قلت: «لا أعرف ما يمكن أن تفعله الشريحة بالضبط، ولكني لن أتركها في يد شخص شرير مثل منصور». ثم عقدت حاجبيَّ وقلت بتصميم: «ليس بعد ما فعله الفأر كي يأخذها منه، ليس بعض أن ضحى بحياته من أجل هذا، لا شك أنها شيء يستحق أن يضحي المرء بحياته من أجله».

زفر مهند ثم قال: «حسنًا، سنفعل ما تريد، وأتمنى أن ينتهي الأمر على خير».

قلت في وجوم: «أتمنى هذا حقًّا».

لذنا بالصمت، والسيارة تقطع الأطلال، ولكن بعد مرور فترة من الوقت بدأت السيارة تصدر أصواتًا متحشرجة، وتباطأت سرعتها قليلًا، فضرب مهند المقود بقبضتيه وقال: «اللعنة!».

سألته في قلق: «ما الأمر؟».

قال في غيظ: «الوقود ينفد من السيارة».

استمرت السيارة في الحركة لبعض الوقت حتى توقفت تمامًا، فقلت في خوف: «ماذا سنفعل الآن؟».

قال مهند: «لا يوجد حل سوى أن نكمل الطريق سيرًا على الأقدام».

نظرت إلى الأطلال من حولنا، بدت فكرة المشي بينها مرعبة، ولكن يبدو أنه لا يوجد حل آخر.

أخرج مهند مسدسه ونظر إلى خزانة الرصاصات عاقدًا حاجبيه، ثم جذب حقيبته من على المقعد الخلفي وأخرج منها خزانة إضافية، استبدلها بالخزانة الفارغة. لم تكن معي خزانة إضافية، ولكني على كل حال لم أُطلق من مسدسي سوى رصاصتين، وقد تبقى لدي بضع رصاصات.

ترجل مهند عن السيارة وهو يعلق حقيبته على كتفه، فلحقت به بدوري. ما إن هبطت من السيارة حتى شعرت أن حرارة الشمس قد تضاعفت، كانت السيارة توفر لنا شيئًا من الظل، ولكننا ونحن نمشي الآن في العراء بدت الشمس لا تطاق.

أسرعنا ناحية أقرب الأطلال إلينا لنحتمي بظلها، ثم بدأنا نتحرك متتبعين الظلال، حريصين على ألا نمشي في ضوء الشمس المباشر، ثم شعرت بالعطش الشديد فتوقفنا في ظل عمود ضخم متهدم لأخرج زجاجة الماء من حقيبتي، لأشرب، وقد حذا مهند حذوي.

تلفتنا حولنا ثم قال مهند: «ربما من الأفضل أن نبحث عن مكان نختبئ فيه حتى حلول الظلام وبعدها نكمل طريقنا، أخشى أن هذه الشمس ستقتلنا».

كنت أعرف أنه محق، ولكن الظلام قد يحمل لنا خطرًا من نوع آخر، كل الأشياء الحية تخرج في الظلام.

فجأة سمعنا صوت زمجرة جعلتنا نتجمد في موضعنا، ثم التفتُّ إلى الوراء فرأيت كلبًا يقف في ضوء الشمس، يسيل اللعاب من فكه وهو يصدر صوت زمجرة مخيفة.

تجمدنا في موضعنا ونحن نحدق إلى الكلب، أدركت من عينيه البيضاوين أنه أعمى، لا يرانا، ولكنه بالتأكيد يشم رائحتنا. ظل المشهد متجمدًا للحظات ثم راح الكلب ينبح بصوتٍ عالٍ، ولكنه لم يتقدم ناحيتنا.

فجأة ظهر من بين الأطلال مجموعة من الرجال المسلحين، خمسة رجال، وجوههم مخفية خلف أقنعة بدائية، وأعينهم مليئة بالعدوانية، وفي أيديهم أسلحة معدنية، سكاكين طويلة وسواطير.

تحدث أحدهم بصوت غليظ متسائلًا: «من أنتما؟ وماذا تفعلان هنا في منطقتنا؟».

أبقيت يدي بجانبي، محاولًا أن أبدو هادئًا، بينما قال مهند: «نحن فقط نمر من هنا. لا نريد أي متاعب».

ضحك الرجل بصوت عالٍ وقال: «في هذه الأيام، كل من يمر من هنا يجب أن يدفع ثمنًا. هل لديكما شيء لتقدماه لنا؟».

تقدم مهند خطوة وقال بحزم: «لسنا هنا للقتال. لدينا بعض المؤن، يمكننا أن نعطيكم بعضًا منها».

ضحك الرجال ثم قال أحدهم: «لن نأخذ بعضها، بل سنأخذ كل ما لديكما، وربما يمكننا بعدها بيعكما إلى سوق العبيد».

شعرت بقلبي ينبض بسرعة، وعرفت أن الموقف يمكن أن ينقلب إلى عنف في أي لحظة، ولكن بعد تفحص سريع أدركت أنهم لا يحملون أسلحة نارية، لن يتمكنوا رغم عددهم من مواجهتنا أنا ومهند.

نظرت إلى مهند نظرة ذات مغزى، ثم استللت مسدسي من حزامي وفعل مهند مثلي. تجمد الرجال الخمسة في موضعهم على الفور.

قال أحدهم بنبرة جامدة: «إنها أسلحة فارغة؟».

أطلق مهند طلقة استقرت في الأرض بين قدمي الرجل، فتراجع خطوة إلى الوراء بشكل غريزي ثم قال: «حسنًا ربما تكون رصاصتكما الأخيرة».

قال مهند: «لن أضيع رصاصة أخرى، المرة التالية ستستقر الرصاصة بين عينيك».

تبادل الرجال النظرات ثم قال أحدهم في غضب مكتوم: «حسنًا، نجوتما هذه المرة، ولكنها لن تكون المرة الأخيرة التي نلتقي فيها».

راقبناهم بحذر وهم يبتعدون بصحبة كلبهم، لم نخفض أسلحتنا حتى اختفوا تمامًا عن الأنظار بين الأطلال، أدركت أن هذا التحذير لم يكن مجرد تهديد أجوف، سنواجه المزيد من المخاطر في هذا العالم القاسي.

قال مهند بصوت منخفض: «علينا أن نتحرك بسرعة، ربما يعودون مع تعزيزات».

أومأت برأسي وبدأنا بالتحرك مرة أخرى، عائدين إلى الظلال لحماية أنفسنا من الشمس الحارقة. صار كل صوت وكل حركة في الأطلال يشكل تهديدًا محتملًا. كنا نسير بحذر، متيقظين لكل ما حولنا.

كانت الأرض متشققة والأطلال المتهدمة تبدو كأنها تحكي قصة مدينة كانت تعج بالحياة، لكننا لم نكن هنا للاستماع إلى القصص. كان علينا الوصول إلى أبناء القيامة، وعرفنا أن الوقت ليس في صالحنا.

فجأة لمحت سياجًا به باب مفتوح يتحرك ببطء مصدرًا صريرًا، ومن وراء السياج بيت يبدو أفضل حالًا من بقية الأطلال، فقلت مقترحًا: «لمَ لا نستريح هنا قليلًا؟».

أومأ مهند برأسه ثم تقدمنا ودفعنا باب السياج لتصدر مفصلاته صريرًا عاليًا من قلة الاستخدام، ثم اقتربنا من الباب الأمامي للبيت ومهند يقول: «كن حذرًا يا عمر، فنحن لا نعرف ما يكمن في هذا البيت بعد».

وضعت يدي على مسدسي بينما مهند يدفع الباب ببطء. انفتح الباب على ممر مظلم يفضي إلى بهو واسع، وأشعة الشمس المتسللة عبر النوافذ المحطمة تعكس ذرات الغبار الطافية في الهواء. خطونا بحذر إلى الداخل، كانت الأرضية تصدر أصواتًا خافتة تحت وطأة خطواتنا.

كنت على وشك أن ألقي بجسدي المتعب على أقرب كرسي ولكن مهند قال محذرًا: «علينا أن نفتش المكان جيدًا أولًا».

أومأت برأسي، ثم تقدمنا ببطء عبر الممر، نتفحص غرف البيت واحدة تلو الأخرى. كانت الغرف خالية، إلا من أثاث قديم مغطى بطبقة كثيفة من الغبار.

دخلنا غرفة تبدو غرفة معيشة، بها أريكة متداعية وطاولة صغيرة مغطاة بالأتربة. جلست على الأريكة قبل أن أقول: «لا أعلم متى كانت آخر مرة جلست فيها على شيء مريح هكذا».

ولكن مهند هز رأسه وقال: «لم نتفحص الطابق العلوي بعد».

تنهدت ثم اعتدلت واقفًا ولحقت به. صعدنا السلالم بحذر، فأصدرت الدرجات صريرًا خافتًا تحت أقدامنا. كان الطابق العلوي مضاءً بشكل خافت من خلال النوافذ المغطاة بالغبار، ومعظم الغرف فارغة، وأَسِرَّتها مغطاة بطبقات كثيفة من الأتربة. تفقدنا الغرف واحدة تلو الأخرى، حتى تيقنا أن المكان آمن.

قال مهند: «يبدو أن المكان مهجور منذ فترة طويلة. يمكننا أن نستريح هنا لبعض الوقت».

عدنا مرة أخرى إلى الطابق السفلي، جلست على الأريكة المتداعية وأخرجت زجاجة الماء لأشرب. شعرت براحة مؤقتة، ولكن عقلي كان لا يزال مشغولًا بما قد يحدث.

قال مهند: «سأتفحص المطبخ، لعلي أجد ماءً جاريًا».

سألته: «ألن يكون ملوثًا؟».

هز كتفيه وقال: «فلنقلق بشأن تنقيته لاحقًا».

بينما مهند في المطبخ، كانت الأفكار تموج في عقلي وأنا أتحسس جيبي، ثم نظرت إلى مكتبة مهملة في الزاوية وفكرة تتشكل في عقلي.

بعد دقائق عاد مهند من المطبخ وهو يسب بصوت خافت قبل أن يقول: «لا يوجد سوى الغبار والصدأ».

تجرعت بعض الماء ثم قلت له: «أظن أن معنا ما يكفي من المؤن حتى نصل إلى أبناء القيامة، وبعدها لن يكون علينا القلق حيال الأمر».

زفر بحرارة، ثم قال: «أتمنى أن تكون محقًّا». قبل أن يستلقي إلى جواري على الأريكة، ويشرب بعض الماء من زجاجته بدوره.

نظرت ناحية أشعة الشمس المتسللة من النوافذ المحطمة، فقال مهند وكأنما عرف ما أفكر فيه: «لن ننتظر حتى حلول المساء بشكل كامل، سننتظر قرب نهاية النهار ونتحرك في أثناء غروب الشمس».

أومأت برأسي، ثم جلسنا في صمت لبعض الوقت، كل واحد منا غارق في أفكاره. راح الوقت يمر ببطء، بينما الشمس تتجه نحو الأفق، مفسحة المجال لظلال الشفق الباردة.

فجأة سمعنا صوتًا يأتي من خارج البيت، صوت نباح كلاب، وأصوات رجال، عدد كبير منهم.

نظرت ناحية مهند في قلق، ثم تسللنا بحذر مقتربين من أحد النوافذ، ونظرت عبر الزجاج المكسور. رأيت مجموعة من الرجال يتحركون بين الأطلال، يرافقهم عدد من الكلاب الشرسة. يبدو كأنهم يبحثون عن شيء أو شخص. لم أميز ملامحهم جميعًا بسبب أقنعتهم البدائية، ولكني ميزت بعضهم من ملابسهم، إنها

العصابة التي واجهتنا في أطلال القاهرة، لقد عادوا وبصحبتهم المزيد من الكلاب، والمزيد من الرجال، ويبدو أن بعضهم يحمل أسلحة نارية! هذه المرة لن تكون الاحتمالات في صالحنا.

كان هناك رجل ضخم الجثة ذو ندوب على وجهه، يتقدم الرجال ويوجه إليهم الأوامر، يبدو أنه قائدهم.

تساءلت للحظة كيف عرفوا أننا نختبئ هنا، ولكن وجود الكلاب معهم يفسر كل شيء، لا شك أنها تميز رائحتنا! كانت الأصوات تقترب؛ نباح الكلاب وصيحات الرجال.

أسرع مهند مبتعدًا عن النافذة، إلى الجهة الأخرى بعيدًا عن الباب الأمامي. أشار إليَّ أن أتبعه في إلحاح ثم قال هامسًا دون أن يتوقف: «هناك باب صغير في المطبخ، أعتقد أنه باب خلفي للخروج من البيت».

لحقت به إلى المطبخ، كان كل شيء مغطى بالغبار كبقية البيت، وهنالك باب يبدو أنه لم يفتح منذ زمن بعيد، فقد قاوم المقبض محاولات مهند لفتحه في البداية، قبل أن يستسلم أخيرًا وينفتح على فناء البيت والسياج من ورائه.

خرجنا إلى الفناء الخلفي، وكانت الظلال قد بدأت تتكاثف مع اقتراب الليل. تسللنا ناحية السياج، محاولين الابتعاد عن أصوات الرجال والكلاب. كنا نعرف أن أي خطأ صغير قد يكلفنا حياتنا.

همس مهند: «سيكون علينا القفز من فوق هذا السياج، فلا يمكننا العودة إلى الباب الأمامي».

أومأت برأسي وتبعته نحو السياج، وساعدني مهند على تسلقه، قبل أن يصعد ورائي.

ما إن صرنا على الجانب الآخر حتى قلت: «لنبتعد عن هذا المكان بأسرع ما يمكن. ربما نجد مأوى آخر في الأطلال البعيدة».

ولكن مهند قال في قلق: «أخشى أن الاختباء سيكون صعبًا بسبب الكلاب التي معهم، ولكن فلنفكر في كل شيء في وقته».

تابعنا التحرك بحذر، متجهين نحو المناطق الأكثر خرابًا، على أمل أن نتمكن من الاختباء حتى يتفرق الرجال. كانت كل خطوة حذرة، وكل صوت نصدره يعيد إلينا شبح الخطر.

فجأة، سمعنا صوتًا قريبًا للغاية، صوت خطوات تقترب بسرعة. تجمدنا في موضعنا، وقد شَهَر كل واحد منا مسدسه، مستعدين لأي مواجهة.

من خلال الظلام، ظهر كلب أعمي، ومن ورائه رجل يحمل بندقية، يغطي أنفه وفمه قناع بدائي، وجبهته تلمع بالعرق. توقف فجأة عندما رآنا، ورفع سلاحه.

صرخت: «احترس!» وأنا أدفع مهند جانبًا، قبل أن يطلق الرجل رصاصة من بندقيته، اخترقت الهواء في الموضع الذي كان مهند يقف فيه.

صرخ الرجل: «إنهم هنا!». قبل أن يشهر بندقيته من جديد، بينما الكلب يسرع ناحيتنا.

من موضعه على الأرض أطلق مهند رصاصة اخترقت صدر الرجل، بينما أطلقت أنا رصاصة اخترقت جسد الكلب، فسقط أرضًا وهو يعوي في ألم.

سألت مهند: «هل أنت بخير؟».

قفز مهند واقفًا على قدميه على الفور وقال: «نعم، لحسن الحظ، ولكن يجب علينا أن نبتعد على الفور، أصوات الرصاص ستجذب الآخرين».

تعالى المزيد من أصوات الصياح والنباح، أصوات تقترب من موضعنا بسرعة، فبدأنا في الركض بكل ما لدينا من قوة، مندفعين ناحية الأطلال القريبة للاختباء بها. اقتربت الكلاب وهي تقتفي رائحتنا. إن مهند محق، لن نتمكن من الاختباء ما دامت هذه الكلاب معهم، يجب التخلص منها بطريقة ما.

انعطفنا ناحية طريق بين مجموعة من المباني المتهدمة، واختبأنا وراء هيكل سيارة قديم نلتقط أنفاسنا، ولكن عند مقدمة الطريق ظهر ثلاثة رجال يتقدمهم كلب مزمجر.

قلت لمهند: «هل يمكنك إصابة الكلب من هنا؟».

أومأ برأسه، ثم أطل برأسه من فوق السيارة وأطلق النار ليصيب الكلب في رأسه.

صرخ الرجال الثلاثة وهم يصوبون أقواسًا بدائية ناحيتنا ويطلقون سِهامًا ارتدت عن هيكل السيارة. تراجعت أنا ومهند إلى داخل المبنى المتصدع بجانب السيارة، وكان ضوء آخر النهار يتسلل من السقف المتهدم.

سمعت صياحًا من الخارج: «إنهما بالداخل! لا تتركوهما يفلتان!».

تراجعنا ببطء عبر المبنى، دون أن نولي ظهرنا للمدخل، وما إن أطل أول الرجال عبر المدخل حتى أطلق مهند النار ليسقطه أرضًا، ثم ظهر رجل ثانٍ فأطلقت النار ليسقط أرضًا بدوره. ظل الرجل الثالث بالخارج وهو يصيح ليلحق به الآخرون، ميزت من الصياح كلمة: «حاصروهما».

تراجعت أنا ومهند على الفور، وكان الجدار الخلفي للمبنى متهدمًا، فاستطعنا الخروج إلى طريق رئيسي واسع، وأدركت أن أقرب الأطلال يقع على مسافة بعيدة.

لم يعد من الممكن التقدم، أو التراجع إلى المبنى، لقد وقعنا في الفخ!

وفجأة ظهر الرجال والكلاب من حول المبنى على جانبي الطريق، وميزت الزعيم الضخم ذا الندوب وهو يقول: «لقد سقطتما أخيرًا».

كنا محاصرين بالفعل. شعرت بتسارع نبضات قلبي، وحاولت التفكير بسرعة في مخرج من هذا الفخ. نظرت إلى مهند الذي كان وجهه متجهمًا ولكن لم يبدُ عليه الخوف الذي أشعر به. اقترب الرجال ببطء، يشهرون أسلحتهم والكلاب تزمجر واللعاب يسيل من بين أنيابها.

قال الرجل الضخم ذو الندوب بصوت عميق: «ألقيا أسلحتكما أرضًا واستسلما. لا مجال للهرب».

قال مهند بحزن: «يبدو أنها النهاية يا صديقي». ثم ألقى بمسدسه أرضًا.

أومأ الرجل الضخم ناحيتي برأسه، فألقيت مسدسي بدوري.

ضحك الرجل ضحكة عالية ثم قال: «كان عليكما أن تستسلما من البداية». ثم بتر ضحكته وهو يقول في غيظ: «لقد كلفتمانا عددًا من الرجال والكلاب، وسأعرف كيف أنتقم منكما لهذا، لن أقتلكما على الفور، سأستمتع بتعذيبكما، وسأجعلكما تتمنيان الموت ولا تنالانه، وعندما أفرغ منكما ستشكلان وجبة شهية لرجالي الذين لم يأكلوا اللحم البشري الطري منذ أيام عديدة».

شعرت برعب مذهول مع كلماته، لقد واجهت أخطارًا عديدة في أطلال القاهرة، ولكن لم يخطر على بالي أن أواجه خطرًا شنيعًا مثل تهديد إنسان بأن يأكل بشرًا مثله. إن حديث الرجل عن الأمر بهذه البساطة - وكأنه شيء معتاد للغاية - جعلني أشعر بغثيان شديد. نظرت ناحية مسدسي وأنا أشعر برغبة حقيقية في قتل هذا الوحش الآدمي، حتى لو كان هذا آخر ما أفعله في حياتي.

قبل أن أجد فرصة لتحويل أفكاري إلى أفعال رأيت الرجل يعقد حاجبيه وينظر ناحية شيء ما وراءنا، لم أجرؤ على الالتفات ولكني وجدت التوتر واضحًا على بقية رجاله. سرعان ما وصل إليَّ صوت من بعيد، صوت هدير محركات، بينما الرجل الضخم يتمتم: «ما هذا بحق الجحيم؟».

لم أستطع مقاومة فضولي، فالتفت لأنظر ورائي. رأيت مجموعة من السيارات تقترب مسرعة وهي تثير من ورائها سحابة من الغبار، وعندما اقتربت أكثر أدركت أنها ليست سيارات متهالكة كتلك التي اعتدت رؤيتها، بل سيارات تبدو نظيفة، وحديثة للغاية، ورأيت من نوافذ السيارات رجالًا يرتدون أقنعة متطورة كتلك التي رأيت أبناء القيامة يرتدونها، ويمسكون في أيديهم أسلحة لا تبدو شبيهة بالأشياء البدائية التي يحملها رجال العصابة.

نظرت من جديد إلى رجال العصابة فرأيت أن نظرات التهديد والعدوان على وجوههم قد تحولت إلى ذعر واضطراب، بينما السيارات تقترب بسرعة، مصحوبة بأصوات هدير محركات عالية.

بدأ رجال العصابة في إطلاق النيران على السيارات المقتربة، فقفزت أنا ومهند جانبًا، ثم نظرت فرأيت أن الرصاصات ترتد عن السيارات، ثم أطلق الرجال نيرانهم في دقة، فتساقط بعض الرجال والكلاب.

صاح الرجل الضخم: «انسحبوا! لا قِبَل لنا بمواجهتهم! انسحبوا!».

بدأ الرجال الناجون يهربون بصحبة كلابهم ورصاصات الوافدين الجدد تلاحقهم حتى اختفى آخر أثر لهم.

أبطأت السيارات حتى توقفت أمامنا تمامًا، ثم هبط مجموعة من الجنود من السيارات، قبل أن تتبعهم امرأة. عرفت أنها امرأة رغم قناعها المتطور بسبب بنيتها، والشعر الطويل المنسدل على ظهرها.

قالت بصوت كان غريبًا بسبب القناع: «حمدًا لله أنكما بخير، أنا سعيدة أنكما بخير».

شعرت بالذهول من كلماتها فقلت: «من أنتِ؟».

ضحكت وقالت: «لعلك لا تذكرني، أنا نادين، من أبناء القيامة».

زفر مهند بارتياح ثم قال: «من حسن حظنا أنكم قد جئتم، يا لها من صدفة سعيدة».

قالت نادين: «لم تكن صدفة، كنا نبحث عنكما».

شعرت بالدهشة من كلماتها، نادين التي طلب مني الفأر أن أذهب إليها قد جاءت إلى هنا من أجلنا؟ شعرت أنها فرصة سعيدة أكثر من اللازم، وبداخلي تنامى شعور بالارتياب.

الفصل العاشر

كانت سيارة أبناء القيامة مريحة للغاية، وباردة رغم الحرارة الشديدة بالخارج، كان هناك هواء بارد ينبعث من مكان ما، وقد أغلقوا النوافذ مما سمح لنا بخلع أقنعتنا، ثم استرخى مهند في كرسيه للوراء في استمتاع مغمضًا عينيه.

لم يكن هناك من صوت سوى المحرك، نظرت عبر النافذة إلى الأطلال التي نقطعها، العالم القاسي الحار المخيف المحطم بالخارج، لقد بدا بعيدًا للغاية في هذه اللحظة وأنا جالس في السيارة الآمنة الباردة.

عندما رأيت نادين تذكرتها على الفور، إنها عالمة أبناء القيامة التي جاءت يوم ولدت خديجة طفلتها، تلك التي أخذها أبناء القيامة. وما زلت حتى اليوم لا أعرف السر وراء أخذهم للأطفال، ولكن يمكن لهذا السؤال أن ينتظر لوقت لاحق، هناك أسئلة أكثر إلحاحًا الآن. ما زلت لا أعرف لماذا طلب مني الفأر أن أعطيها تلك الشريحة التي أصابت الجميع بالجنون!

سألتني نادين: «هل صحيح أن الفأر قد مات؟».

كان هناك حزن عميق في صوتها، حزن صادق، مما أصابني بالدهشة، فقلت متلعثمًا: «أجل... لقد مات...». ثم ترددت قبل أن أسألها: «قلتِ إنكم كنت تبحثون عنا، فلماذا؟ وكيف عرفتم أين تجدوننا؟».

تنهدت نادين ثم قالت: «هذا أمر يطول شرحه، ولكنا كنا نعرف أن الفأر ذاهب إلى الملجأ وبعدها إلى منصور، في الحقيقة كان من المفترض أن يجلب الفأر لنا شيئًا ما، وغضب منصور وما فعله من إرسال رجاله إلى الملجأ يعني أن الفأر قد نجح في مهمته. لقد خاطبنا مروان عبر الراديو وعرفنا منه أن الفأر قد مات، وبعدها انقطع الاتصال مع الملجأ».

قال لها مهند في حزن ممتزج بالغضب: «لقد مات القائد مروان!».

بدا الحزن في ملامح نادين، ولكنها أكملت بنبرة هادئة: «أعرف، لقد توجهنا إلى الملجأ، وهناك وجدنا ليث يسيطر عليه، وقد مثل أمامنا وعرفنا منه بمصرع القائد مروان، وفرار اثنين من العائدين من القافلة».

سألتها في لهفة: «ماذا فعلتم مع ليث؟».

نظرت إليَّ بشيء من الدهشة، ثم قالت: «لم نفعل شيئًا، أنت تعرف أن أبناء القيامة لا يتدخلون في شؤون الملاجئ الداخلية».

زفرت في ضيق، ولكن نادين أكملت كأنها لم تلاحظ: «أنا أعرف الفأر جيدًا، سيحرص على إتمام مهمته حتى النهاية وكان المفتاح هو وجود ناجين من القافلة. أنا أعتقد أن الشريحة مع واحد منكما، فهل أنا محقة؟».

ظل مهند مغمضًا عينيه، في حين أطبقت أنا فمي في صمت، فقالت نادين: «على أي حال تعقبنا مساركما إلى معسكر العبيد، وهناك عرفنا من الآثار المحيطة بالمكان أن اشتباكًا قد وقع، ثم تتبعنا آثار سيارتكما عبر

أطلال القاهرة حتى عثرنا عليها مهجورة. وفي أثناء البحث عنكما سمعنا من الأفق صوت إطلاق نيران، فجئنا إلى هنا، وهذا ما حدث».

فتح مهند عينيه وقال: «من حسن حظنا أنكم قد جئتم في الوقت المناسب».

ابتسمت له ولكنه لم يبادلها الابتسام. قلت لها: «هل لي بسؤال آخر؟».

قالت: «بالطبع، سل ما بدا لك».

قلت لها: «لماذا كان عليكم قتل هؤلاء الرجال؟ أعني أن سيارتكم لم تتأثر بالطلقات، ربما كان بمقدوركم إخافتهم للهرب فحسب».

اتسعت عينا نادين قليلًا، ثم قالت بهدوئها المعتاد: «أتقول هذا بعد أن حاولوا قتلكما؟ على أي حال لو لم نقتلهم لقتلوا شخصًا آخر. إنهم لا يختلفون كثيرًا عن المتحولين أو الوحوش المفترسة التي تجوب الأطلال رغم كونهم عاقلين».

لم تبدُ الإجابة مقنعة تمامًا، وشعرت بغصة في حلقي. كنت أعتقد أن أبناء القيامة قد يكونون أكثر نبلًا من هذا. إن الجميع يتحدث عنهم بتوقير باعتبارهم شعلة الحضارة المتبقية في هذا العالم، ولكن حديثها الآن عن القتل بكل بساطة... ولكن ما يدريني؟ لعلها تكون محقة، لعل هذا هو القانون الذي يحكم العالم الآن.

هززت رأسي لأطرد الفكرة عن رأسي، فقالت لي: «أنت عمر، أليس كذلك؟».

أومأت برأسي فقالت: «لطالما تحدث عنك الفأر، كان... يحبك كثيرًا. لقد ذهبت في ذلك اليوم إلى الملجأ خصوصًا لكي أراك وأعرفك. لقد حاول القائد مروان إبعادك، ولكني عرفتك على الفور من وصف الفأر لك».

قلت في حيرة: «رؤيتي أنا؟ ولكن لماذا؟».

ابتسمت تلك الابتسامة التي تجعلني أشعر بالغيظ وقالت: «ستعرف كل شيء لاحقًا، ولكن علينا أولًا أن نجد الشريحة».

لذت بالصمت فسألتني: «هل أنت واثق بأنك لا تعرف شيئًا عنها؟».

ظللت صامتًا، فقالت بإلحاح: «أنت كنت مع الفأر، وأعتقد أنك آخر من رآه على قيد الحياة».

أشحت بوجهي بعيدًا، ولكنها أكملت كأنما تحاول سبر أعماقي بكلماتها: «وهذا يجعلني أعتقد أنه ربما قد ترك الشريحة معك. هل أنا محقة؟».

نظرت إليها وبادلتها التحديق للحظات، ثم قلت لها: «وماذا لو كنتِ محقة؟».

صمتت بدورها للحظات، ثم قالت: «سأفترض أن إجابتك هذا تعني أنني محقة. لمَ لا تعطيني الشريحة إذن؟».

قلت لها بحزم: «ليس قبل أن أعرف أهميتها أولًا، ولمَ تسعون وراءها جميعًا».

هزت رأسها وقالت: «ليس مسموحًا لي بإخبارك بهذه المعلومات».

قلت في غضب مكتوم: «لا معلومات، إذن لا شريحة!».

نظر إليَّ مهند في دهشة، ولكنه لم يقل شيئًا، أما نادين فقد فاجأتني بضحكتها قبل أن تقول: «يبدو أنك فتى عنيد».

نظرت إليها بحدة، فلوحت بيديها وقالت: «حسنًا، سأخبرك ببعض الأمور، ولكن ليس كل شيء. الشريحة تحتوي على بيانات مهمة تتعلق بأبحاث علمية وتقنية كانت مفقودة منذ زمن طويل. هذه البيانات يمكنها مساعدتنا في إعادة بناء جزء من الحضارة التي فقدناها، وربما إيجاد حلول للمشكلات التي نواجهها الآن. لهذا السبب هي مهمة للغاية، ولهذا السبب يجب ألا تقع في الأيدي الخطأ، مثل منصور ورجاله».

ظللت صامتًا للحظة، ثم قلت: «وكيف يمكنني أن أثق بكم؟».

أجابت نادين بنبرة جدية: «ليس لديك الكثير من الخيارات يا عمر. إذا كنت تريد حقًّا أن تصنع فارقًا، وأن تساعد في بناء مستقبل أفضل، فالشريحة يجب أن تكون بين أيدينا. وإذا لم تثق بنا، فكر في الفأر؛ لقد اختار أن يثق بنا، بل اختار أن يخاطر بحياته من أجل هذه المهمة. ألن تثق بالفأر؟ لقد كان بمنزلة أبٍ روحي بالنسبة إليك كما سمعت».

هنا تدخل مهند قائلًا: «المعذرة يا عمر، اغفر لي تدخلي، ولكن ألم تخبرني أن الفأر قد طلب منك إيصال الشريحة إلى نادين من أبناء القيامة، وكنا متوجهين إلى أبناء القيامة من أجل فعل هذا بالضبط؟».

ابتسمت نادين وقالت: «يبدو قرارًا حكيمًا».

هززت رأسي وقلت: «لقد طلب مني الفأر هذا بالفعل، وسأفعله، ولكن بمقابل». وقبل أن تقول نادين شيئًا قلت لها: «الحقيقة هي أنني كنت قادمًا إليكم لمقايضتكم».

قالت نادين في حيرة: «مقايضتنا؟ بماذا؟».

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت بحزم: «قلتِ إنكم عرفتم بما فعله منصور ورجاله. ما أريده هو عودة مريم والأطفال سالمين، وسأعطيكم الشريحة».

نقلت نادين بصرها ما بيني وبين مهند، ثم قالت: «ما الذي يمنعني من أخذ الشريحة منك الآن بالقوة مهما كلف الأمر؟ أنا لا أرغب في فعل هذا حقًّا، ولكن عندما يكون الأمر متعلقًا بمستقبل البشرية فلا يكون لدى المرء خيارات كثيرة».

قلت بابتسامة عريضة: «ما سيمنعك هو أن الشريحة ليست معي الآن».

اتسعت عينا نادين في دهشة، ثم تحولت الدهشة إلى غضب وهي تقول: «أين الشريحة؟ ماذا فعلت بها؟».

قلت مسترخيًا للوراء: «لقد خمنت أن شيئًا كهذا قد يحدث، لذا خبأت الشريحة في مكان لا يعرفه أحد سواي، حتى مهند لا يعرفه، ولا مجال لاسترجاعها إلا بتنفيذ مطلبي». كنت أتظاهر بالاسترخاء ولكن في

الحقيقة كان قلبي يخفق بعنف شديد، حاولت ألا أظهر شيئًا من هذا على وجهي.

تأملتني نادين وقد استعادت ملامحها هدوءها، ثم قالت: «سأفترض أنك صادق فيما تقوله، فلن تكذب في شيء يمكن التحقق منه ببساطة بتفتيشك جيدًا، وسأفتشك جيدًا بعد وصولنا لا تقلق، ولكن هذا يعيدنا إلى النقطة الأولى؛ أفترض أن ما تطلبه معقول، ولكن لن يكون لي القرار الأخير في الأمر، سنذهب إلى المقر الرئيسي وهناك سيقرر من هم أعلى مني مرتبة ما يجب فعله».

تنفست بعمق ثم قلت: «إذن فلننتظر لنرى ما سيقولونه، ولكني لا أطلب الكثير، تحرير مريم والأطفال لن يكون صعبًا عليكم بكل هذه الإمكانيات».

قال مهند وهو يتأمل عاملة أبناء القيامة: «ربما لا ترغبون في مواجهة مباشرة مع منصور. إن المترو هو القوة الأكبر في القاهرة بعدكم، بالطبع لا يضاهونكم ولكنهم لا يزالون قوة لا يُستهان بها».

تجاهلت نادين تعليقه وهي تسألني: «هل أنت مستعد للمخاطرة بمستقبل البشرية من أجل إنقاذ صديقتك وبعض الأطفال؟».

أثار سؤالها غضبي فقلت بحدة: «إن مريم هي العالم بأسره بالنسبة إليَّ». ثم تمالكت نفسي قبل أن أقول: «كنت أعتقد أنكم ستهتمون بحياة الأطفال، فأنتم تتظاهرون بأنكم تهتمون كثيرًا بشأنهم».

سألتني بجمود: «ما الذي ترمي إليه؟».

قلت لها: «هؤلاء الأطفال الذين تأخذونهم من الملاجئ بين الحين والآخر، لطالما تساءلت ما الذي تفعلونه بهؤلاء الأطفال، ولماذا بعض الأطفال دون سواهم. ولكن... اهتمامكم بالأطفال جعلني دومًا أعتقد أنكم تبالون بهم بطريقة ما».

أشاحت نادين بوجهها وقالت: «هذا أيضًا شيء لا يمكنني أن أخبرك به، ولكني سأقول لك مرة أخرى؛ كل ما يفعله أبناء القيامة يفعلونه من أجل مستقبل البشرية. سأترك لك حرية تصديق الأمر من عدمه».

خيم الصمت على السيارة، فنظرت خارج النافذة من جديد. كان المساء قد زحف على السماء، وخيمت الظلال على كل شيء، فأنارت السيارات مصابيحها الأمامية لتضيء الطريق. *الليل أخيرًا!* بعد رحلة شاقة في النهار الخانق رحبت بمجيء الليل والظلام.

كانت الأطلال غارقة في العتمة، فرحت أتساءل عن الأشياء التي تخفيها الأطلال بداخلها؛ عصابات، متحولين، ذكريات قاطنيها القدامى... كان من الصعب عليَّ تخيل المدينة في الماضي، عندما كانت تعج بالحياة، عندما لم يكن على قاطنيها العيش في خوف دائم بشأن الحاضر، وقلق دائم بشأن المستقبل، وحنين دائم إلى ماضٍ لن يعود.

فجأة وقع ضوء السيارة على شخص يقف على الطريق، تنحى عن طريقها، ثم وقف إلى الجانب يحدق إليها. عندما اقتربنا منه ووقع عليه ضوء السيارة، ورأيت البثور على وجهه عرفت أنه أحد المتحولين. كشر

عن أسنانه في ابتسامة وحشية وهو ينظر إلينا. ظللت أحدق إليه عبر الزجاج الخلفي، ولكني رأيت جنديًا في العربية التالية يخرج سلاحه من النافذة يطلق النار ليرديه أرضًا.

جفلت ثم نظرت إلى نادين وقلت: «هل كان هذا ضروريًّا؟».

سألتني بهدوء: «ألن تقتل متحولًا إن كان يهدد حياتك؟».

تبادلت النظر مع مهند وقد تذكرت المتحولين الذين واجهونا واضطررنا إلى قتلهم، ثم هززت رأسي وقلت: «لم يكن يهدد حياتنا الآن، نحن بداخل سيارات منيعة».

قالت ببساطة: «قد لا يهدد حياتنا الآن، ولكنه سيهدد حياتنا أو حياة شخص آخر لاحقًا». عندما لم تجد مني جوابًا تنهدت وقالت: « قد تبدو أفعالنا قاسية أحيانًا، لكن يجب أن نكون حازمين في هذا العالم القاسي. ربما يكون هذا ما تحلم به. يجب أن تدرك أننا جميعًا نسعى لتحقيق الهدف ذاته؛ أن نبني مستقبلًا أفضل، حيث لا نضطر إلى العيش في خوف دائم».

استرخيت في مقعدي واستغرقت في أفكاري الخاصة، ربما تكون عاملة أبناء القيامة محقة. ما الذي أعرفه أنا عن طبيعة الصراع في هذا العالم الوحشي؟ أنا الذي عشت عمري كله تحت الأرض، ولم أخرج إلى العالم الخارجي إلا قبل يومين.

ألم يمضِ إلا يومان فقط حقًّا؟ لقد بدا لي أن دهرًا قد مضى منذ اللحظة التي قرر فيها الفأر اصطحابي معهم في تلك القافلة المنحوسة.

قالت نادين: «لقد اقتربنا».

شعرت بالتوتر يتزايد بداخلي. ماذا سيحدث بعد ذلك؟ هل سيقبل أبناء القيامة بما أعرضه عليهم؟ هل سأتمكن من رؤية مريم والأطفال سالمين مرة أخرى؟

فجأة أبطأت السيارات من حركتها، فنظرت إلى الأفق، وهالني ما رأيت.

كانت هناك أضواء كثيرة في الأفق، كأنها جزيرة من النور في بحر من الظلمة. توقفت السيارات عند بوابة ضخمة يقف أمامها حرس بأسلحتهم وأقنعتهم المتطورة، وما إن تبادلوا كلمات قليلة مع السائق حتى انفتحت البوابات وتحركت السيارات إلى الداخل.

ما إن عبرنا البوابات حتى رأيت المنشآت الغارقة في الأضواء الصناعية كأنها جزء من عالم لا ينتمي إلى الكارثة. كانت هناك مبانٍ عالية، بعضها مزود بشرفات خضراء مزروعة، وتربط بينها ممرات تعلو عن سطح الأرض. أحسست بالفجوة الهائلة بين ما أراه الآن وما كنت أراه قبل قليل خارج الأبواب. لقد بدت بالفعل كواحة من التكنولوجيا في صحراء من الأطلال والفوضى!

سألت نادين في حيرة: «كيف تكون لديكم مبانٍ فوق سطح الأرض؟ ألا تخشون الشمس؟».

ابتسمت نادين وقالت: «هناك شيء يسمى بخلايا الطاقة، شيء من عصر ما قبل الكارثة، يمدنا بطاقة لا تصدق، باستخدامها نتمكن من تنقية الهواء من أجل التنفس، واستخدام العاكسات لعكس أشعة الشمس الضارة، وتحويلها إلى طاقة مفيدة. بهذه الطريقة نستطيع العيش فوق سطح الأرض بأمان، بعيدًا عن تأثير الشمس المدمر».

كانت نادين تتحدث ببساطة كأنها تصف شيئًا معتادًا، ولكنني شعرت كأنها تصف معجزة من عالم آخر. غير أنني لم أستطع التخلص من شعور القلق الذي يلازمني، كل شيء هنا يبدو مثاليًّا بشكل مخيف، لا يتناسب مع ما رأيته سابقًا في أطلال القاهرة.

رحت أتفحص المكان من حولي بينما السيارة تتقدم عبر طرق بين المنشآت. كانت الأضواء الصناعية تخلق ظلالًا غريبة على المباني الشاهقة، والممرات المعلقة مكتظة بالناس الذين يتحركون بنظام دقيق، وكأن كل شخص هنا يعرف مكانه ومهمته.

توجهت السيارات نحو مبنى كبير خمنت أنه المبنى الرئيسي أو مبنى القيادة، ثم توقفت عند مدخله. فُتِحت الأبواب ونزلت نادين أولًا، ثم قالت بنبرة حازمة «اتبعاني». وهي تشير إلينا بأن نلحق بها.

مشينا في ممرات مضاءة بشكل مريح، حتى وصلنا إلى غرفة واسعة ومضاءة بشكل ساطع وبها العديد من الكراسي التي تبدو مبطنة ومريحة.

قالت نادين: «انتظرا هنا، سأتحدث مع القيادة وأعود لكما قريبًا». ثم تركتنا وحدنا في الغرفة.

جلست على كرسي، فوجدت أنه مريح بالفعل كما يبدو عليه، كأنني أغوص فيه، وشعرت بالنعاس يداعب عينيَّ ولكني قاومته بشدة.

جلس مهند على الكرسي المجاور لي، وبدا عليه الاسترخاء بدوره، ثم نظر إليَّ وقال: «هل تعتقد أن خطتك تسير الآن على نحو جيد؟».

هززت رأسي وقلت: «أرجو هذا».

سألني بصوت هامس: «هل أنت صادق فيما قلته لنادين بشأن الشريحة؟».

قلت على الفور: «بالطبع».

فعقد حاجبيه وقال: «وأين هي إذن؟».

ترددت لحظة، ثم قلت: «سأخبرك لاحقًا».

في هذه اللحظة عادت نادين برفقة حارس من أبناء القيامة، أمرته بتفتيشي جيدًا، وبعد تفتيش صارم هز رأسه في إشارة سلبية، فتنهدت ثم نظرت إليَّ وقالت: «المعذرة، كان يجب أن أتيقن بنفسي».

فهززت كتفي كأن الأمر لا يعني لي شيئًا، ولكن بداخلي كنت أشعر بالانتصار.

قالت نادين: «تعاليا معي».

وهكذا مشينا بصحبة نادين عبر الممرات النظيفة، حتى وصلنا إلى حجرة أخرى، بها مكتب يجلس أمامه رجلان، أحدهما يرتدي ثيابًا سوداء أنيقة، والآخر يرتدي ثيابًا تمزج ما بين اللونين الأخضر والبني بدرجاتهما الداكنة المختلفة.

عرفتنا نادين إليهما، ثم قدمت الرجل الأول قائلة: «هذا هو الدكتور زين، رئيس قسم البحث العلمي». ثم أشارت إلى الثاني وقالت: «وهذا هو القائد سامر، رئيس العمليات الميدانية».

قال الدكتور زين مبتسمًا: «إذن هذان هما الفتيَان الشجاعان! ونود أن نشكركما على الجهد الذي بذلتماه للوصول إلى هنا».

أما القائد سامر فقد قال بصورة عملية: «كنا نتمنى فقط لو أنكما قد جئتما ومعكما الشريحة، كان هذا سيوفر علينا الكثير من الجهد».

قلت له: «لقد أخبرت نادين...».

قاطعني سامر قائلًا: «أعرف ما أخبرتها به. ولكنك بلا شك قد سمعت عن رغبة أبناء القيامة في عدم التدخل بشكل مباشر في السياسات ما بين الملاجئ المختلفة».

قلت في حيرة ممتزجة بالغضب: «ولكنكم قد أرسلتم الفأر لسرقة هذه الشريحة من منصور، ألا يعد هذا تدخلًا؟». أمسك مهند بذراعي كأنه يطلب مني أن أهدأ.

ابتسم سامر ابتسامة خالية من المرح وقال: «كلمة السر هي *بشكل مباشر*. لم يكن الفأر واحدًا منا بشكل رسمي، لذا يمكننا الزعم أن محاولته هذه كانت عملًا فرديًّا».

تدخل زين على الفور قائلًا: «ما يقصده القائد سامر هو أن الشريحة لها قيمة علمية كبيرة ستكون في صالح البشرية، وهذا ما نسعى إليه جميعًا. وكان الفأر يعرف هذا وإلا ما كان ليوافق على التدخل لصالحنا».

قلت بحدة: «الحقيقة هي أن الشريحة لا تمثل لي قيمة حقيقية، لقد طلب مني الفأر منحكم الشريحة بالفعل، وكنت سأفعل هذا، ولكني الآن بحاجة للتيقن من سلامة مريم والأطفال، وهذا هو الشيء الوحيد الذي سيجعلني أمنحكم الشريحة».

نظر القائد سامر إلى نادين، ثم عاد ببصره إليَّ وقال: «نحن نقدر موقفك يا عمر، ولكننا في وضع صعب. لا يمكننا إعطاءك ضمانات، ولكن يمكننا أن نعدك بأننا سنبذل قصارى جهدنا لإنقاذهم».

قلت على الفور: «متى؟».

تأملنا سامر ثم قال: «أنتما في حالة مزرية وبحاجة لبعض الراحة. سيدرس رجالنا الموقف قبل التوصل إلى قرار، وفي هذه الأثناء يمكنكما أن تستريحا قليلًا من عناء السفر».

أومأ لنا د. زين برأسه مبتسمًا، ثم خارج بصحبة القائد سامر، تاركين نادين وحدها معنا.

فركت يديها معًا وأخذت نفسًا عميقًا، ثم قالت: «أنتما لا تعرفان منذ متى يخطط أبناء القيامة لهذه الخطوة من أجل مستقبل البشرية، والآن وقد اقتربنا من الأمر كثيرًا فلا يسعنا التفكير في شيء سوى هذه الخطة العظيمة».

قلت ساخرًا: «الخطة التي لا نعرف عنها شيئًا حتى الآن».

عقدت حاجبيها وقالت: «ليس من الضروري أن تعرفا شيئًا عن الأمر، عليكما فقط أن تثقا بنا».

عقدت ذراعيَّ أمام صدري وقلت: «سأثق بكم عندما أرى مريم بخير».

قالت مبتسمة: «ستراها، صدقني ستراها». ثم أضافت مبتسمة: «والآن عليكما أن تسترخيا كما قال القائد. ما رأيكما في حمام بارد؟».

مال مهند ناحيتي وقال هامسًا: «ماذا تقصد بحمام بارد؟».

الفصل الحادي عشر

دخلت الحمام، وأغلقته خلفي، ثم تأملت المكان. كل شيء يبدو نظيفًا ومريحًا. بدأت في خلع ملابسي التي كانت مغطاة بالعرق والأوساخ بعد قضاء يومين في أطلال القاهرة، ثم مددت يدي وفتحت الماء البارد ووقفت تحته. تدفق الماء البارد بغزارة على جسدي العاري، فانتابني شعور بالاسترخاء لم أشعر بمثله من قبل. شعرت أن الماء يغسل عني كل التوتر والخوف.

كنت معتادًا الاستحمام في الملجأ، ولكن على فترات متباعدة، وبكميات قليلة من الماء من أجل الاقتصاد في الموارد، وعادة ما تكون المياه ساخنة بفعل حرارة الشمس الخانقة بالخارج، ولكن الإحساس بالماء البارد يغمرني كان ممتعًا للغاية، حتى شعرت بالرغبة في البقاء هكذا إلى الأبد.

بعد أن أنهيت الحمام البارد وجدت ملابس جديدة ونظيفة بانتظاري في حجرة تبديل الثياب - ملابس داخلية وسروالًا فضفاضًا وقميصًا بتصميم أنيق - وفوجئت عندما ناسبت جسدي تمامًا! كنت معتادًا أن تكون الثياب واسعة قليلًا أو ضيقة قليلًا، فلا توجد الكثير من الخيارات في الملجأ، لذا انتابني إحساس رائع مع ارتدائها.

ما إن خرجت من الحجرة حتى وجدت مهند واقفًا أمامي مرتديًا ثيابًا نظيفة بدوره، ويبدو مسترخيًا ومنتعشًا مثلي. قال لي مازحًا: «تبدو شخصًا مختلفًا تمامًا عن عمر الذي أعرفه».

بادلته الابتسام قائلًا: «وأنت أيضًا تبدو نظيفًا لأول مرة في حياتك».

وكزني في كتفي ضاحكًا ثم جاءت نادين وقالت: «أرى أنكما قد استمتعتما بالحمام. ما رأيكما في تناول شيء من الطعام والشراب؟».

تبعناها عبر الممرات مرة أخرى، وبدأت أتأمل الأشخاص الذين يذهبون ويجيئون دون أن يلقوا علينا أكثر من نظرة عابرة، وبعضهم يومئ برأسه إلى نادين في تحية، ولكنهم جميعًا يبدون منشغلين بشيء ما أو ذاهبين إلى وجهة ما. سرعان ما وصلنا إلى غرفة طعام صغيرة بها مائدة معدة بأطعمة متنوعة، بدت كلها شهية بشكل لا يصدق وتختلف تمامًا عن الأطعمة التي اعتدتها في الملجأ أو حتى تلك التي رأيتها في المترو.

كان أمام كل كرسي سكين وشوكة من بلاستيك قوي للغاية، لم أعرف الغرض منهما، ولكني وجدت نادين تمسك كلا منهما بيد وتبدأ في تقطيع الطعام بالسكين والتقاطه بالشوكة. حاولت تقليدها ولكني وجدت الأمر صعبًا، فنظرت إلى مهند الذي بدا أنه يعاني مع الأمر مثلي، وسرعان ما استسلم وبدأ يتناول الطعام بيديه، ولكني لم أستسلم بسهولة، لم أرغب في أن تظن نادين أن أبناء القيامة أفضل من قاطني الملاجئ في أي شيء. يبدو أنها لاحظت معاناتي فقالت وهي تتناول قطعة من الطعام من طبقها بأصابعها: «يمكنك الأكل بالطريقة التي ترتاح إليها، هذه مجرد أمور شكلية فحسب».

أومأت برأسي، ولكني واصلت تقطيع الطعام بالسكين ثم التقاطه بالشوكة، بعد بضع محاولات صار الأمر أيسر، فجلسنا نتناول الطعام وقد خيم الصمت على الطاولة.

كان الجدار المقابل لي زجاجيًّا ويطل على شرفة، وكانت هناك نباتات خضراء جميلة في الشرفة، تتحرك قليلًا مع نسيم الليل.

سألتها بينما أتناول طعامي: «كيف تعيش هذه النباتات في جوٍّ كهذا؟ أعني كل الأشجار التي رأيتها كانت يابسة وخالية من الحياة، أقصد تلك التي لم يقتلعها الناس من أجل الحطب. وسمعت أنه لا يمكن لأي نباتات أن تعيش في هذا الجو، ما عدا الفطر الذي ينمو في الظلام في أعماق الأرض».

قالت نادين مبتسمة: «حسنًا، هذا سؤال يمكنني أن أجيبك عنه». ثم تنحنحت قبل أن تقول: «قبل الكارثة كان هناك خوف من وقوع حرب نووية، لذا كان البشر يبذلون قصارى جهدهم من أجل الاستعداد لشيء كهذا. كانت هناك مراكز أبحاث قبل الحرب، مهمتها هي تعديل النباتات والحيوانات من الناحية الوراثية بحيث تتحمل العيش بعد الكارثة، وخصوصًا فترة الشتاء النووي التي تلت الحرب، والآن نحن فيما يسمى الصيف النووي، حيث تضرر غلاف الأرض الجوي بسبب التلوث الإشعاعي، ويبدأ الآن في التعافي ببطء».

ثم أشارت ناحيتي بشوكتها المغروسة في جزء من طعام لم أتبين طبيعته بعد وقالت: «كان هؤلاء العلماء هم نواة ما يسمى الآن بأبناء القيامة. لم تكن الحرب هي نهاية الكارثة بل بدايتها. لقد اجتاحت مصر تمردات، وحروب ما بين القوات النظامية والمتمردين، وصراعات على ما تبقى من موارد الأرض. لقد أحرقوا الأرض في تلك الفترة الكارثية المسماة بالشتاء الأسود من أجل الدفء والنور والطعام. ما تبقى من علماء تحالفوا مع ما تبقى من الجيش النظامي لتشكيل ما يسمى بأبناء القيامة. ومهمتنا كما قلت لك الحرص على أن تعود الحضارة إلى سابق عهدها. إن الحفاظ على الطبيعة واستعادة البيئة جزء لا يتجزأ من إعادة بناء حضارتنا. نعلم أن الطريق طويل، ولكننا نخطو خطوات صغيرة نحو تحقيق هذا الهدف».

قال مهند وهو يمضغ طعامه: «سمعت أنكم من تزودون الملاجئ بالفطر».

أومأت نادين برأسها وقالت: «هذا صحيح. هذا الفطر معدل وراثيًّا لتحمل أكثر الظروف قسوة، وكان من أهم العوامل التي ساعدت البشر على النجاة في أثناء الشتاء الأسود. لقد عمل مجموعة من خيرة العقول البشرية على تعديل الدجاج والماشية وراثيًّا، بالإضافة إلى عديد من أشكال الحياة التي مثلت جزءًا من الحضارة البشرية عبر تاريخها، وهي موجودة في عديد من المقرات التابعة لأبناء القيامة المتناثرة في أرجاء القاهرة، للحفاظ عليها من أجل الأجيال التالية عندما تعيد بناء حضارتنا».

قلت لها باهتمام وأنا أتناول قطعة طعام بشوكتي: «والشريحة؟ ما دورها في كل هذا؟».

كانت نادين على وشك أن تضع الشوكة في فمها، فتوقفت في منتصف الطريق، ثم نظرت إليَّ وقالت: «أتعرف شيئًا يسمى بالكمبيوتر؟».

هززت رأسي نافيًا، ثم نظرت إلى مهند فهز كتفيه في نفي مماثل، قبل أن ينقض بيده على قطعة من اللحم. أو ما آمل أنه لحم.

قالت نادين: «الكمبيوتر هو شيء من عصر ما قبل الكارثة، جهاز إلكتروني يمكنه معالجة عدد ضخم من المعلومات بشكل لا يصدق وفي ثوانٍ معدودة. لدى أبناء القيامة العديد من أجهزة الكمبيوتر التي لا تزال تعمل، لقد استطعنا الحفاظ عليها، وهي تعمل بفضل خلايا الطاقة التي أخبرتك عنها، وتساعدنا كثيرًا في مهمتنا».

عقدت حاجبيَّ وأنا أستوعب هذه المعلومات، ثم سألتها: «والشريحة؟ أهي كو... كمبيوتر من تلك التي الأجهزة التي تتحدثين عنها؟».

هزت رأسها وقالت: «بل هي شيء يسمى بالمعالج، باستخدامه يمكننا تشغيل كمبيوتر قويَّ للغاية. لقد حاولنا تشغيله باستخدام معالجات أخرى بلا فائدة، إنه مبرمج على هذه الشريحة فقط، ومن دونها لن نتمكن من تشغيله».

سألتها باهتمام: «وماذا سيفعل هذا الكمبيوتر عند تشغيله؟».

ابتسمت نادين ابتسامة مقتضبة وقالت: «سيساعدنا كثيرًا في مهمتنا. لا يمكنني إخبارك بالتفاصيل، فهذه الأمور تقع تحت بند سري للغاية، ولكن يكفيك أن تعرف أنه يساعدنا في رسم مسار أفضل لمستقبل البشرية».

شعرت بالضيق ولكني عرفت أنها لن تخبرني بالمزيد، فلذت بالصمت. ***لقد ضحى الفأر بحياته من أجل مساعدتهم، يجب عليَّ أن أثق بهم.***

بعد أن أنهينا طعامنا، قالت نادين: «ربما يجب عليكما النوم قليلًا الآن، وفي الغد سيكون رجالنا على الأرجح قد عرفوا أين يحتفظ منصور بمريم والأطفال، وبعدها سنقرر ما يجب علينا فعله».

أخذتنا نادين إلى غرفتنا، كانت الغرفة بسيطة ولكنها مريحة، بها سريران كل منهما مغطى بملاءة بيضاء نظيفة وأغطية وثيرة. كانت هناك نافذة تطل على المدينة المظلمة بالخارج، ومرشح يبرد الغرفة ويعمل على تنقية الهواء الذي يدخلها، كما عرفت من نادين.

استلقيت على سريري، كان لينًا للغاية، مريحًا للغاية، حتى إنه أغراني بالنوم، ولكني في هذه اللحظة تذكرت معسكر العبيد، والأقفاص، والأسرى المحبوسين بداخلها، فتخيلت مريم في موقف مماثل، وحينها شعرت بالحزن يعتصر قلبي.

سمعت مهند يتنهد طويلًا من السرير المجاور، قبل أن يصمت لبضع لحظات، ثم جاءني صوته وهو يقول: «ما رأيك يا عمر؟ هل تعتقد أنهم سينفذون لك ما يطلبونه؟».

أجبته بصوت خافت: «لا أعرف يا مهند. لكنهم يعرفون الكثير، ولديهم الكثير من الإمكانيات التي لا تخطر على بال، كما أنهم يريدون هذه الشريحة بشدة كما يبدو، لذا أعتقد أنهم في النهاية سيفعلون ما نريد».

زفر مهند وقال: «أتمنى أن تكون محقًّا. أتمنى أن أرى مريم والأطفال سالمين». ثم صمت لحظة قبل أن يقول: «أتعرف؟ رغم ما نحن فيه من نعيم، فإنني أفتقد الملجأ بشدة».

لدهشتي وجدت شعورًا مماثلًا ينتابني. الملجأ، مريم وهي تمازحني أو تعلم الأطفال القراءة والكتابة، سعيد وهو يصرخ في فتيانه، وحتى القائد مروان وهو يوبخني، كل هذا بدا في هذه اللحظة ماضيًا بعيدًا. تمنيت في هذه اللحظة لو أن كل شيء يعود كما كان، تمنيت أن تعود مريم سالمة، ثم تمنيت حقًّا لو أن الفأر لا يزال حيًّا، لو أن القائد مروان لا يزال حيًّا. ***كم تغيرت حياتي في بضعة أيام فحسب!***

حدقت إلى السقف الأبيض، النظيف ككل شيء هنا. راحت الأفكار تموج في عقلي، لكني كنت متعبًا للغاية. أغمضت عينيَّ وحاولت أن أسترخي، ولم أشعر بالنوم عندما زارني أخيرًا.

***

كنت أنظر إلى أطلال القاهرة. الشمس حمراء قانية في قلب السماء، تلقي بوهج قاتم على المباني المدمرة والأطلال الخَربة. الأرض تحت قدميَّ متشققة، ينبعث منها دخانٌ كثيف ورائحةٌ حريق خانقة. الأشجار السوداء محترقة، وأوراقها تتساقط كرماد في الرياح الساخنة، والسماء مغطاة بغيوم رمادية تمنح المدينة جوًّا مظلمًا وكئيبًا.

رأيت مريم هناك، واقفة في وسط هذا الدمار. شعرها يتطاير في الرياح الحارقة وعيناها ممتلئتان بالحزن. ترتدي فستانًا أبيض، تلطخت أطرافه بالدماء والتراب. حاولتُ الجري نحوها، لكن الأرض تحتي راحت تذوب كالرمال المتحركة، تجرفني أكثر كلما حاولت الاقتراب منها.

نادتني بصوت مبحوح: «أنقذني يا عمر!». لكن صوتها كان مسموعًا بالكاد وسط تأجج النيران وعواء الرياح. بذلتُ كل ما في وسعي لأصل إليها، لكن العجز واليأس تسللا إلى قلبي. انفجرت الشمس الحمراء فجأة في السماء، وأطلقت أشعة حارقة دمرت كل شيء حولي. رأيتُ البيوت تنهار والشوارع تلتهمها النيران. الحرارة تتصاعد، وكل شيء يذوب... حتى مريم... وأنا...

***

استيقظتُ وأنا أتنفس بصعوبة، وقلبي يخفق بعنف. العرق يغطي جسدي، وكأن ما عشته كان حقيقيًّا. حاولتُ التخلص من شعور اليأس والعجز الذي غمرني في هذا الكابوس، لكنني لم أستطع.

نهضتُ لأجلس على حافة السرير، محاولًا أن ألتقط أنفاسي وأستجمع أفكاري. نظرتُ حولي فوجدت أنني ما زلت في الغرفة الباردة والمريحة، التي بدت الآن غير واقعية مقارنةً بالجحيم الذي رأيته في حلمي. كان مهند لا يزال نائمًا بسلام، صدره يعلو ويهبط بانتظام، غير مدرك الاضطراب الذي يعصف بي.

احتلت عقلي صورة مريم وهي تناديني: «أنقذني يا عمر!». لا تزال كلماتها تتردد في أذنيَّ.

قلت بصوت خافت بحزم: «سأنقذك مهما كان الثمن».

توجهتُ إلى النافذة، لأحدق عبر الزجاج إلى أطلال القاهرة، بينما الشمس الحمراء تتوسط السماء وترسل أشعتها الحارقة. لقد حل الصباح بينما نحن نيام. كنت قادرًا على النظر بوضوح أكثر إلى مقر أبناء القيامة في النهار. كانت مساحة واسعة محاطة بسور مرتفع، به العديد من الأبراج، وداخل الأسوار توجد العديد من المباني، كنت معتادًا عيش الناس أسفل الأرض، لذا لفت انتباهي هذا العدد من المباني المأهولة فوق سطح الأرض. كانت النباتات في كل الشرفات، والأجهزة التي تستخدم في ترشيح الهواء، وأجهزة أخرى لم أعرف الغرض منها. كان أبناء القيامة متقدمين بشكل يفوق قدرتي على الاستيعاب. رأيت الناس يتحركون هنا وهناك، يرتدون ثيابًا بيضاء أنيقة، وبعضهم يضع على عينيه عدسات زجاجية، كل منهم يبدو منشغلًا بمهمته الخاصة. كانت هناك حركات منظمة وتنسيق واضح، كأن كل واحد يعرف دوره في هذه المنظومة المعقدة.

في أثناء تأملي، لم أستطع تجاهل الشعور المتصاعد في داخلي. هل يمكن أن يكون هؤلاء الأشخاص هم الأمل الأخير للبشرية؟ إنهم يمتلكون التكنولوجيا، والمعرفة، والتنظيم. بدأت أصدق أنهم ربما يكونون بالفعل الحل لإعادة بناء العالم. لعلهم يستحقون بالفعل قيادة مستقبل البشر.

لكن في أعماق قلبي، كنت أعلم أن هناك جزءًا من الصورة لم أَرَه بعد. لم أفهم بعد إصرارهم على السرية المحيطة بالشريحة التي كان الفأر مستعدًّا للتضحية بحياته من أجلها. *لماذا هي بهذه الأهمية؟ ولماذا كل هذا الغموض؟ وماذا عن الأطفال الذين يأخذونهم من الملاجئ؟*

فجأة سمعت صوت طرقات على الباب فجفلت وأفقت من شرودي. التفتُّ ناحية الباب، وهززت رأسي محاولًا التخلص من بقايا الكابوس المزعج، ثم تنحنحت وقلت: «ادخل».

فتح مهند عينيه وهو يقول في نعاس: «ما الأمر؟».

انفتح الباب ببطء، ثم دلفت نادين إلى الغرفة. «صباح الخير يا عمر، وأنت أيضًا يا مهند. لدينا بعض المستجدات».

انتبه مهند فجأة وقال في قلق: «أي مستجدات؟».

نظرت إليَّ نادين وقالت: «لقد درسنا وضع مريم والأطفال. لدينا خطة لإنقاذهم، ولكنها تتطلب بعض الترتيبات، القائد سامر في انتظارنا الآن في غرفة العمليات».

قطعنا ممرات مليئة بأشخاص منشغلين، وكنت أنظر عبر كل باب مفتوح إلى الغرف التي نمر بها، فلاحظت تفاصيل جديدة لم أرَها من قبل؛ شاشات كبيرة تعرض صورًا للأطلال، مخططات بيانية ورسومات معقدة، رجالًا ونساءً يتحدثون بجدية حول أشياء لا أفهمها. كان الجو مشحونًا بالتوتر والترقب.

دخلنا غرفة العمليات كما أسمتها نادين، حيث كان الدكتور زين والقائد سامر في انتظارنا، ورجل آخر أراه للمرة الأولى يرتدي ثيابًا مموهة مثل القائد سامر. كانت هناك خريطة كبيرة على الطاولة أمامهما خمنت أنها خريطة القاهرة، وكانت هناك بعض العلامات.

بعد أن رحب بنا الدكتور زين، وأومأ لنا سامر برأسه، تعرفنا إلى الوافد الجديد؛ قيس قائد فريق الاستطلاع.

رحب بنا قيس باقتضاب، ثم أشار إلى النقاط الحمراء على الخريطة وقال: «هذه هي أماكن الاحتجاز المحتملة». نظرت إلى الخريطة باهتمام بينما قيس يقول: «في أثناء الليل كان رجالي يعملون على جمع أي معلومات متعلقة بمريم والأطفال، ولكن الموقع الأكثر احتمالًا هو إحدى محطات المترو التابعة لمنصور. هذه المحطة بالذات كانت مهجورة لوقت طويل، ولكن رجالنا يقولون إن هناك حركة غير معتادة حول هذه المحطة تحديدًا منذ بضعة أيام، على الأقل يستخدمها الآن منطقة لاحتجاز أسراه».

أومأت نادين برأسها وقالت: «هذا يبدو منطقيًّا للغاية».

قلت: «ولكن يجب أن نعرف على وجه اليقين أنهم موجودون في هذا المكان، وإلا فلن تسفر محاولتنا لتحريرهم إلا عن تنبيه منصور لما نخطط له».

قال سامر: «سننتظر غروب الشمس، بحلول هذا الوقت سنكون قد تيقنا بشكل قاطع من وجود الأسرى هناك، وحينها سيتحرك رجالنا».

قال مهند متسائلًا: «ما هي الخطة لتحرير الأسرى؟».

نظر قيس إلى الخريطة مرة أخرى وأجاب: «الخطة بسيطة ولكنها تتطلب دقة في التنفيذ. سنقسم فريقنا إلى مجموعتين. المجموعة الأولى، بقيادتي، ستتسلل إلى المحطة من مدخل جانبي نعرفه. هذا المدخل يبدو غير مستخدم ولن يكون مراقبًا بشكل مكثف. في الوقت نفسه، ستؤدي المجموعة الثانية، بقيادة نادين، مهمة إحداث تشويش من الجهة الأمامية لجذب انتباه الحراس».

أضافت نادين: «لدينا معلومات تفصيلية حول عدد الحراس وأسلحتهم، كما أننا وضعنا خططًا للتعامل مع أي مفاجآت. ستبدأ المجموعة الثانية بالتشويش بمجرد تحرك المجموعة الأولى، مما سيمنحهم الوقت الكافي للوصول إلى الأسرى وتحريرهم قبل أن يتمكن منصور من الرد».

قلت بقلق: «وماذا عن مريم والأطفال؟ كيف سنتيقن من سلامتهم في أثناء العملية؟».

ابتسمت نادين مطمئنة: «ستكون هناك فرقة طبية جاهزة عند نقطة التجمع. سنقدم الرعاية اللازمة لهم بمجرد إخراجهم من المحطة».

قلت لهم: «وما دوري في كل هذا؟ في أي المجموعتين سأذهب؟».

قال مهند: «نعم وأنا أيضًا؟».

نظر إليَّ سامر ثم قال: «لا يمكننا المخاطرة بك في مهمة كهذا، نحن نحتاج إليك على قد الحياة، فأنت الوحيد الذي يمكنه أن يوصلنا إلى الشريحة بعد نجاح هذه المهمة».

هززت رأسي وقلت: «لا يمكنني البقاء مكتوف اليدين بينما مريم في خطر، يجب أن آتي معكم».

نظر سامر إلى نادين، ثم قال: «حسنًا يمكنك أن تكون في مجموعة الدعم، لن تتدخلوا إلا إن جرى أي شيء على نحو خاطئ، ولكن عدا ذلك لا تتدخلون».

قلت بعزيمة: «يجب أن أكون في الصفوف الأمامية، فأنا من يعرف مريم والأطفال، سأساعدكم على التعرف عليهم».

قال مهند: «يمكنني أن أفعل هذا بدلًا منك، سأذهب أنا في المجموعة الأولى».

نظر سامر إلى مهند، ثم قال ببطء: «حسنًا، إذا كنت مصرًّا، لكن تذكر أننا نحتاج إليكم جميعًا على قيد الحياة. سنبذل قصارى جهدنا لتحريرهم بسلام».

قالت نادين: «إذن سيكون مهند في المجموعة الأولى، وسينضم عمر إلى مجموعة الدعم».

أومأت برأسي، ورغم أنني كنت أشعر بالقلق، فإنني أدركت أن هذا هو أفضل ترتيب ممكن لضمان سلامة الجميع.

قرب نهاية النهار، اجتمعنا جميعًا في قاعة كبيرة بالطابق السفلي، مجموعة كبيرة من الجنود بالملابس الداكنة والأسلحة الحديثة والأقنعة المتطورة، وقد حصلنا أنا ومهند على ملابس داكنة وقناعين متطورين، وسلاحين آليين خفيفي الوزن بشكلٍ مدهش، ولكنهما مميتان كما أعرف جيدًا.

قال قيس بصوت هادئ: «تذكروا أن الهدف هو تحرير الأسرى بأقل خسائر ممكنة. إذا اضطررتم إلى القتال فقاتلوا بسرعة ودقة. نحن فريق واحد وكل منا يعتمد على الآخرين».

نظر إليَّ مهند وقال بثقة: «سننقذهم يا عمر. كل شيء سيكون على ما يرام».

أومأت برأسي وأنا أقول: «أتمنى هذا».

ومع آخر أضواء النهار انطلقت السيارات المحملة بالجنود من مقر أبناء القيامة، متوجهين ناحية محطة المترو القديمة، والقلق يعصف بقلبي.

الفصل الثاني عشر

تقدمت السيارات إلى محطة المترو المحددة على الخريطة، وما إن اقتربنا منها حتى أطفأت السيارات أنوارها ومحركاتها، ثم ترجل الجنود بملابسهم الداكنة، وانقسموا إلى فريقين، انضممت إلى فريق التشويش مع نادين، بينما رأيت مهند ينضم إلى فريق الاقتحام بصحبة قيس.

حمل أحد الجنود مدفعًا على كتفه، وصوب ناحية جزء قريب من الأنقاض، وأطلق صاروخًا صغيرًا، ومض ذيله بالنيران في الظلام، قبل أن ينفجر محدثًا دويًّا عاليًا في سكون الليل. ترددت أصداء الانفجار في المكان، واختلطت بالأصوات المتعاقبة للصخور المتهاوية والزجاج المتحطم.

تعالى صوت انفجارات صغيرة أخرى، وبدأت الفوضى تعم المكان. اندفع رجال منصور من بوابة المترو ناحية الأصوات وهم يشهرون بنادقهم، فتحركت إحدى السيارات لاقتيادهم بعيدًا عن المكان، بينما رأيت قيس يتقدم بصحبة مهند والجنود الآخرين ناحية مدخل المحطة.

وجدت نفسي بدون تفكير أترك نادين وأتقدم ناحية مدخل المحطة. شعرت بجسدي يتوتر وكل حواسي تنتبه. كان القتال الدائر حولي مزيجًا من دخان ونيران، وأصوات طلقات نارية وصرخات. رأيت قيس يقترب من مدخل المترو، وهو يشير إلى جنوده بالتقدم بسرعة وبهدوء.

اندفعوا نحو المدخل فأسرعت وراءهم وأنا أسمع نادين تناديني من ورائي، بينما أصوات الاشتباكات تزداد ضراوة خلفنا. وجدت نفسي أتقدم عبر الممرات الضيقة بالمحطة القديمة، والأضواء الخافتة الكهربائية تومض بشكل متقطع، مما زاد من توتري. كانوا يتقدمون بحذر، وأنا من ورائهم، خطواتنا تتردد بصوت خافت على البلاط المتشقق، حتى وصلنا إلى الساحة الواسعة بمنتصف محطة المترو.

فجأة انطلقت صافرات الإنذار في المحطة، وأضاءت المكان أنوار ساطعة لتكشف عن وجودنا. أدركت في فزع أننا نسير إلى فخ، كان منصور مستعدًّا لمثل هذا الهجوم. سمعت أصوات طلقات بينما أبناء القيامة يبدأون في تبادل طلقات النيران مع رجال منصور من حول عربات المترو القديمة الساكنة في موضعها.

كان الفارق في الخبرة والتسليح ما بين جنود أبناء القيامة النظاميين وجنود منصور واضحًا وكبيرًا، وقد كان أبناء القيامة يتقدمون، حتى صرنا في منتصف الساحة بالضبط ما بين عربات المترو.

كنت أمسك بسلاحي في توتر، غير قادر على إطلاق النار، وعيناي تبحثان عن مهند وسط هذه الفوضى، ولكن فجأة بدأ رجال منصور يتراجعون، والصمت يخيم على المكان، وفي هذه اللحظة رأيت مهند فناديته.

نظر قيس ناحيتي، وعقد حاجبيه، ثم قال: «ما الذي جاء بك...».

فجأة تعالى صوت أبواب معدنية وهي تنفتح، فبتر قيس جملته، والتفت الجميع ناحية عربات المترو في صمت وترقب.

اندفع المزيد من الجنود من العربات، ولكن... مهلًا... هذه الوجوه المشوهة، وهذه البثور، وأعينهم التي تلمع بوحشية غير طبيعية. إنهم... «متحولون!». صرخ قيس بالكلمة بينما الجنود يطلقون النار ناحية المتحولين.

لاحظت شيئًا غريبًا حيال هؤلاء المتحولين، كل واحد منهم يحيط برقبته طوق معدني غريب، ولكني لم أجد وقتًا للتفكير في الأمر، فقد انقض المتحولون بسرعة وقوة مذهلتين. تعالت أصوات الاشتباك من جديد، وأصوات صرخات الألم من الجنود الذين أنشب المتحولون أنيابهم في أجسادهم.

صرخ قيس: «تراجعوا جميعًا!». لكن الأوان قد فات.

اندلعت معركة شرسة بين أبناء القيامة والمتحولين. كانت القوة والبراعة التي يمتلكها المتحولون شيئًا لا يصدق. إنهم يهاجمون بلا رحمة، ولا يمكن وقفهم إلا بقتلهم، فلا يبدو أن الإصابات تردعهم.

رأيت مهند يصرخ وهو يحاول صد أحد المتحولين، بينما يتراجع إلى الوراء، فتعثر وسقط أرضًا، بينما المتحول ينقض ناحيته.

بدون تفكير رفعت سلاحي وأطلقت عدة رصاصات ناحية جسد المتحول حتى همدت حركته، حينها نظر إليَّ مهند وابتسم، ولكني رأيت متحولًا آخر يندفع ناحيتي وعيناه تلمعان بغضب ووحشية. حاولت مقاومته لكنه أمسك رقبتي بقبضته الحديدية. شعرت بأنفاسه الحارقة على وجهي وهو يرفعني عن الأرض. حاولت الصراخ والتملص، لكن بلا فائدة. كانت قوته غير طبيعية، تفوق كل شيء عرفته.

بينما كنت في قبضته، رأيت مهند يحاول التقدم نحوي لإنقاذي، لكن المتحولين كانوا يعيقون طريقه. كانوا يقاتلون بضراوة، وكأنهم خُلِقوا فقط من أجل القتل والتدمير. حاولت مقاومة قبضته، ولكنها كانت أقوى مني، وببطء شعرت بالضوء يتلاشى من عيني، بينما في عقلي تختلط صورًا متعددة، منصور وهو يبتسم في ظفر، مهند يصرخ في يأس، وصوت مريم يتردد في أذني: «أنقذني يا عمر!».

وبعدها... خيم الظلام تمامًا.

الفصل الثالث عشر

استعدت وعيي ببطء، وأنا أشعر بألم حاد في رأسي. حاولت فتح عينيَّ، لكني شعرت أن جفنيَّ ثقيلان للغاية. شيئًا فشيئًا بدأت أشعر بما حولي، كنت مستلقيًا على أرضية باردة وصلبة، وكل جزء في جسدي يؤلمني. حلقي جاف تمامًا، وأشعر بعطش شديد.

رفعت رأسي ببطء وتلفت حولي. كانت الغرفة مظلمة باستثناء ضوء خافت ينبعث من مصباح قديم معلق في زاوية بعيدة. رأيت قضبانًا حديدية تفصلني عن بقية الغرفة، ففهمت على الفور أنني في زنزانة. حاولت تذكر ما حدث، فتوالت الأحداث في ذهني: الانفجارات، الاشتباكات، المتحولون...

تناهى إلى مسمعيَّ صوت خطوات تقترب. نظرت نحو مصدر الصوت، فرأيت ظلًا يتحرك نحو الزنزانة. كان رجلاً طويل القامة، عريض المنكبين، وجهه مشوه ببعض الندوب، وعيناه تحملان نظرة قاسية. أدركت على الفور أنه أحد جنود منصور.

قال بصوت خشن: «ها قد استيقظت أخيرًا أيها الجرذ».

حاولت الوقوف، لكن الألم كان شديدًا، فاضطررت إلى البقاء جالسًا على الأرض. سألته بصوت جاف ومتعب: «أين مريم؟ أين البقية؟ ماذا فعلتم بهم؟».

ابتسم الجندي بسخرية وقال: «ستعرف قريبًا، بعد أن تلتقي القائد منصور».

شعرت بالقلق يعتصر قلبي. ***ماذا يريد مني منصور؟*** ثم تذكرت الشريحة. ***هل يعرف أن الفأر قد ترك الشريحة معي؟***

قبل أن أستطرد في أفكاري فتح الجندي الزنزانة وأمسكني من ذراعي بقوة، مجبرًا إياي على الوقوف. قال: «هيا، القائد ينتظرك.» ثم دفعني نحو الممر، حيث كانت الأنوار الخافتة تلقي بظلال مخيفة على الجدران الرطبة والمتشققة.

تقدمت معه وخطواتنا تتردد في الممر الطويل. كنت أشعر بالضعف والتعب، لكن الفضول والخوف يدفعانني للاستمرار. ***ماذا ينتظرني هناك؟ هل سأتمكن من رؤية مريم والأطفال؟***

وصلنا إلى باب معدني ضخم، فتحه الجندي بحركة سريعة، ودفعني إلى الداخل. كانت الغرفة مضاءة بشكل أفضل، ورأيت منصور جالسًا خلف مكتب كبير، وعلى وجهه ابتسامة باردة.

قال بصوت هادئ لكنه يحمل نبرة تهديد واضحة: «مرحبًا يا عمر. عمر إن لم تخني ذاكرتي، أليس كذلك؟ لقد كنت أنتظر هذه اللحظة بفارغ الصبر».

كنت أشعر بالتعب والحيرة والدوار، حاولت التماسك وأنا أسأله: «ماذا تريد مني؟».

ابتسم منصور وقال: «أريد الشريحة، أعلم أنها بحوزتك، وإذا تعاونت معي فقد تكون لديك فرصة للبقاء على قيد الحياة».

قلت في عناد: «لا أعرف عن أي شيء تتحدث».

اعتدل منصور واقفًا وتقدم نحوي ببطء، ثم قال: «لا تعبث معي يا عمر. أنا أعرف أكثر مما تتصور، لذا أنصحك بالتعاون».

حدقت إلى عينيه وقلت: «لن أسمح بوقوع شيء كهذا في يد شخص شرير مثلك».

ضحك منصور ضحكة عالية وقال: «أنا؟ شرير؟ ومن أخبرك بهذا؟ أبناء القيامة؟».

تساءلت في هذه اللحظة أين هم أبناء القيامة، وأين مهند؟ يبدو أن منصور قد شعر بما يدور في ذهني فقد قال مبتسمًا في سخرية: «لقد هربوا بعد أن تخلوا عنك، كنت أعرف أنهم سيلتقطون الطعم وكنت مستعدًّا لهم. لقد تفاجأوا بأن لدي نوع خاص من الجنود المتحولين فلاذوا بالفرار. يعتقد أبناء القيامة أنهم وحدهم من يمتلكون تكنولوجيا متطورة. باستطاعتي التحكم في هؤلاء الوحوش باستخدام ترددات راديو معينة. ولكن دعك من هذا الآن... أنت تتساءل الآن بالتأكيد عن صديقك مهند. إنه بصحبة عزيزتك مريم والأطفال الآخرين، وإن أعطيتني ما أريد فستخرج معهم من هنا وتعود إلى ملجئك أو إلى أي مكان ترغب في الذهاب إليه». ثم اتسعت ابتسامته وقال: «ما رأيك في هذا العرض السخي؟».

رحت أفكر فيما قاله، ثم سألته: «وما الذي يجعلك تعتقد أنك تستحق الحصول على هذه الشريحة؟».

هز كتفيه وقال: «لأنني أستحق ما هو ملكي، لقد كانت الشريحة بحوزتي لسنوات، قبل أن يسرقها الفأر. كل ما أريده هو أن أبقيها بعيدًا عن أيدي أبناء القيامة».

سألته في حيرة: «لماذا؟».

عاد منصور إلى كرسيه وجلس مرة أخرى، ثم نظر إلي وقال: «ما رأيك في أبناء القيامة؟».

باغتني السؤال، فقلت: «لا أعرف شيئًا محددًا، لقد كانوا يساعدون الملاجئ لسنوات، ويقولون إنهم يرغبون في مستقبل أفضل من أجل البشر».

تنهد منصور، ثم قال: «إذن فهم الأخيار في هذه الحكاية وأنا الوغد الشرير، أليس كذلك؟».

لذت بالصمت وأنا أنظر إليه، بينما أحاول تبليل حلقي الجاف بلساني.

بعد لحظات من الصمت قال لي منصور: «أبناء القيامة ليسوا ملائكة كما تعتقد؛ إن لديهم خططهم الخاصة، ولا يختلفون عني من حيث السعي للسيطرة والنفوذ، ولكني أختلف عنهم في نقطة جوهرية، أنني لا أسعى من أجل قيامة جديدة، فالعالم يعجبني كما هو».

اتسعت عيناي في دهشة وسألته: «ماذا تقصد؟». ثم حركت لساني على شفتي مرة أخرى.

قال منصور: «يبدو أنك عطش للغاية، هل تريد بعض الماء؟».

أومأت برأسي ببطء، فصاح مناديًا الرجل الضخم الذي كان واقفًا بالخارج متأهبًا كما يبدو، وطلب منه جلب بعض الماء المرشح. سرعان ما عاد الرجل بقنينة من الماء أعطاها لي، فتجرعتها في نهم، ثم مسحت فمي بكم قميصي، قبل أن أنظر إلى منصور في ترقب.

تأملني منصور للحظة، ثم قال: «حسنًا، فلنبدأ بسؤال مختلف، ما الذي يفعله أبناء القيامة بالأطفال الذين يأخذونهم من الملاجئ؟ هذا السؤال قد جال في ذهنك من قبل، أليس كذلك؟».

اتسعت عيناي في دهشة؛ لم أتوقع هذا السؤال، ثم أومأت برأسي فقال: «أتعرف ما الذي يبحث عنه أبناء القيامة؟ لمَ يأخذون بعض الأطفال، ويتركون البعض الآخر؟».

هززت رأسي في حيرة وقلت: «لا أعرف».

قال لي: «حسنًا، سأخبرك بمعلومة صغيرة، بعدما حدث التلوث الإشعاعي بعد الحرب بدأ يصيب الجينات البشرية بعض التحور، بعضها لا يكاد ملحوظًا، والبعض الآخر يكون واضحًا للغاية، وهؤلاء هم من نطلق عليهم اسم المتحولين. لقد عرف أبناء القيامة هذا منذ البداية، ويرون أن هذا سيجعل مسار المستقبل البشري ينحرف، سيكون مستقبلًا مليئًا بالتشوهات الجينية، ومن يعرف أين سينتهي المطاف بالبشرية إن سلكت مسارًا كهذا؟ والحل؟ الحرص على النقاء الجيني».

كنت أحاول استيعاب كل هذه المعلومات، ولكن منصور لم يتمهل، بل أكمل حديثه.

«أبناء القيامة يبحثون عن الأطفال الذين يولدون دون أي تشوهات جينية مهما كانت ضئيلة، لهذا يدعمون الملاجئ، لكي يستمروا في الإنجاب، وبعدها يأخذون من بينهم الأطفال الصالحين، ويتركون من يرونه غير صالح من أجل المستقبل البشري، بعبارة أخرى، إنهم يستخدمون الملاجئ كحظائر للتفريخ».

اتسعت عيناي في صدمة فتابع منصور قائلًا: «نعم، حظائر للتفريخ. الملاجئ ليست سوى مزارع للأطفال المثاليين. مجرد قطعة في لعبتهم الكبيرة».

شعرت بالغثيان، وبقبضة باردة تعتصر معدتي، ثم قلت له في غضب: «وأنت قتلت الفأر، واختطفت مريم والأطفال، وتسببت في مقتل القائد مروان بهجومك على الملجأ. كيف تختلف أنت عنهم؟!».

هز كتفيه وقال: «لم يكن شيء من هذ ليحدث لو لم يسرق الفأر الشريحة». ثم ابتسم وقال: «على أي حال أنا لا أسعى لحرق الأرض وقتل الغالبية العظمى من البشر مثل أبناء القيامة. أعتقد أن هذا يجعلني أقل سوءًا بقليل، ألا ترى هذا؟».

رحت أفكر فيما قاله، ثم قلت بصوت مرتعش: «أنت تكذب». ولكني شعرت بالشك يتسلل إلى قلبي.

ابتسم منصور ابتسامة باردة وقال: «صدقني أو لا تصدقني، هذا يعود إليك. لكن فكر في هذا؛ لماذا يريدون الشريحة بشدة؟ إنها ليست مجرد قطعة تقنية. إنها مفتاح لخطة أكبر بكثير مما تتصور. خطة لإعادة تشكيل العالم وفقًا لرؤيتهم الخاصة. وهم لن يترددوا في التضحية بأي شخص لتحقيق هذه الرؤية».

رفعت يدي إلى صدغي محاولًا التخفيف من الألم النابض، ثم سألته: «ما هذه الشريحة؟ ما دورها في كل هذا؟».

قال لي منصور: «ما الذي قالوه لك؟ أشعر بالفضول حيال معرفة أكاذيبهم».

قلت بعينين زائغتين: «أنهم سيستخدمونها لإعادة بناء الحضارة وحماية الناجين».

ضحك منصور من جديد وقال: «يا له من هراء! الحقيقة هي أنهم يريدون استخدامها للتحكم في مستقبل البشرية. الشريحة ستتيح لهم تشغيل سلاح قديم، منذ ما قبل الكارثة. قمر صناعي يستخدم أشعة الشمس كسلاح. لم تجد الحكومة القديمة فرصة لاستخدام هذا السلاح قبل الحرب، ولكن بعض العلماء من بين أبناء القيامة يعرفون بشأنه، والآن بينما الغلاف الجوي مدمر، وأشعة الشمس مهلكة، فسيكون سلاح كهذا قويًّا للغاية، وقد بنوا خطتهم عليه».

صمت قليلًا فنظرت إليه متسائلًا وقلت: «ما هي خطتهم؟».

مط شفتيه ثم قال: «خطتهم هي الحفاظ على بعض البشر من أصحاب الجينات النقية، ثم إشعال كارثة أخرى، قيامة أخرى كما يقولون، وهذه المرة سيدمرون كل شيء يرونه غير نقي، لوضع البشر على المسار الصحيح».

شعرت بالدوار وأنا أحدق إلى منصور، فقال وقد تلاشت الابتسامة عن وجهه: «نعم يا عمر، إنهم يلعبون دور الآلهة، يقررون من يستحق الحياة ومن يجب أن يتخلصوا منه، وأنا وأنت من بين الهالكين لا الناجين».

بعد أن أنهى منصور حديثه، حاولت استجماع شتات أفكاري، ثم سألته أخيرًا: «وكيف عرفت أنت كل هذا؟».

ابتسم منصور ابتسامة شاحبة ثم قال: «لأنني كنت ذات يوم واحدًا من أبناء القيامة».

قلت في دهشة: «أنت؟ مستحيل!».

قال بجدية: «كنت واحدًا من الضباط الذين حاربوا ضد التمرد، وقد حظيت بمكانة كبيرة بين أبناء القيامة، ولكن لم تعجبني هذه الخطة المجنونة، قد تكون هذه الخطة هي نهاية البشر، قيامتهم الحقيقية. لذا أخذت معي المخلصين من جنودي، وبمساعدتهم تمكنت من إنشاء مملكتي الصغيرة في المترو، كانت محطات المترو مجتمعات صغيرة متشظية، ولكني استطعت جمعها وتوحيدها تحت قيادتي».

سألته: «والشريحة؟ كيف وصلت إلى حوزتك؟».

هز كتفيه وقال: «لقد سرقتها قبل هربي، واحتفظت بها منذ ذلك الحين».

سألته في ريبة: «لماذا لم تدمرها إذن؟ لِمَ احتفظت بها كل هذه السنوات؟».

نظر منصور إليَّ متأملًا ثم قال: «لا يمكن تدميرها، لقد صُنِعت قبل الكارثة من معدن لا يمكن تدميره بالوسائل المعروفة. كما أنني لم أرغب في تدميرها، كنت أعرف أن الاحتفاظ بها يعني الاحتفاظ بورقة ضغط

قوية ضد أبناء القيامة. لا أريد أن يستخدمها أحد ضد البشرية، وأردت أن أكون قادرًا على منع أبناء القيامة من تنفيذ خطتهم».

إن خطة أبناء القيامة مجنونة حقًّا، وإن كان ما يقوله منصور حقيقيًّا فيجب وقفهم، ولكن إن كان الأمر هكذا فلماذا طلب مني الفأر أن آخذ الشريحة إليهم! نظرت إلى منصور وسألته: «هل كان الفأر يعرف بشأن هذه الخطط؟».

قال منصور: «لم يكن الفأر واحدًا من أبناء القيامة، ولكنه كان متعاطفًا معهم، على الأرجح ملأوا عقله بهرائهم عن تغيير مستقبل البشرية للأفضل، وفي النهاية صدقهم. هذا مؤسف، كنت أحب الفأر ولم أرغب في موته، ولكني في الوقت ذاته لم أتوقع منه أن يسرقني».

لا أصدق أن الفأر سيعرف بحقيقة شيء كهذا ويشارك فيه. *لا شك أنه كان مخدوعًا مثلي.*

قال منصور بحزم: «والآن إن كنت ترغب في الحفاظ على كل شخص وكل شيء تحبه فيجب أن تعطيني الشريحة».

سألته في عناد: «ولمَ يجب أن يحصل عليها واحد منكم؟».

تنهد منصور بعمق وقال: «لأنني الوحيد الذي يمكنه منعهم من استخدام الشريحة. إذا بقيت في يدي، فلن يتمكن أبناء القيامة من تنفيذ خطتهم المجنونة».

هززت رأسي وقلت: «وكيف يمكنني أن أثق بك؟ قد تكون لديك خططك الخاصة، وقد تكون أسوأ منهم!».

ابتسم منصور وقال: «ليس لديك سبب للثقة بي، أعلم ذلك. ولكن انظر إلى الواقع، إن أصدقاءك بين يدي، وعدم منحي الشريحة يعني تعريضهم للخطر. بمجرد أن تمنحني الشريحة سأطلق سراحهم».

كنت أعرف أنني في موقف ضعيف للغاية، ولا أملك المساومة، ولكني في الوقت ذاته حاولت التظاهر بالشجاعة وأنا أقول: «سأعطيك الشريحة، ولكني أحتاج إلى ضمانات. كيف أتيقن أنهم سيكونون بأمان؟».

تنهد منصور، ثم قال: «حسنًا، إليك هذا؛ سأرسل الأطفال إلى الملجأ، وسيبقى معنا مهند ومريم، أعرف أنك تبالي بشأنهما كثيرًا، ولكني صدقني، بمجرد منحي الشريحة لن يكون هناك سبب لإيذائهما».

ترددت وقد شعرت بأنني في فخ لا مهرب منه. إذا رفضت سأعرِّض الجميع للخطر، وإذا قبلت قد أضع الشريحة في يد شخص لا يمكنني حتى الآن الثقة به.

قلت له: «أريد أن أراهما أولًا، مريم ومهند».

هز منصور كتفيه وقال: «لك هذا».

تقدم نحو الباب وأشار إلى حارسه بإيماءة سريعة، ثم التفت إليَّ وقال: «اتبعني».

تبعته عبر ممر طويل مضاء بمصابيح خافتة. كان الصمت يخيم على المكان، إلا من صوت خطواتنا على الأرضية المعدنية.

وصلنا إلى زنزانة أخرى، فتح الحارس الباب وأشار إليَّ منصور بالدخول. بالداخل رأيت مريم ومهند جالسين على الأرض، وبصحبتهما الأطفال من الملجأ، مريم تبدو منهكة وعيناها محاطتان بهالتين سوداوين وهي تبكي، بينما مهند إلى جانبها يحاول طمأنتها بيد مرتجفة. عندما رأتني اتسعت عيناها واندفعت نحوي.

صرخت مريم وهي ترتمي في حضني: «عمر! لقد مات أبي يا عمر! أخبرني مهند بهذا! قل لي إن هذا غير حقيقي».

ضممتها إلى صدري وأنا أشعر بقبضة ألم باردة تعتصر قلبي، ثم قلت هامسًا: «أنا آسف يا مريم... لقد بذل قصارى جهده لإنقاذنا، وكانت وصيته الأخيرة أن أنقذك. أعدك أنني سأخرجك من هنا بأمان».

انهارت مريم في بكاء صامت، ودموعها الساخنة تسيل على كتفي بينما أضمها إليَّ. لم يكن هناك ما يمكنني قوله ليخفف الألم الذي يمزق قلبها، أو الحزن العميق الذي يعصف بنا جميعًا.

ابتعدت مريم عني أخيرًا وهي تمسح دموعها بيدها، ثم سألني مهند بقلق: «ما الذي يريده منصور يا عمر؟».

قبل أن أستطيع الرد، دخل منصور الحجرة قائلًا: «الوقت يمر يا عمر. هل اتخذت قرارك؟».

نظرت إلى مريم ومهند، ثم إلى منصور. كنت أعلم أنني قد أضطر إلى اتخاذ قرار خطير، قرار قد يغير مصير البشرية.

قال مهند في ريبة: «ما الذي يرمي إليه يا عمر؟ أشعر أنه يحاول أن يخدعك».

نظر منصور إلى مهند ببرود وقال: «أعلم أنك لا تثق بي، وهذا طبيعي. لكن دعني أذكرك بأن الوقت ليس في صالحكم. أنا أعرض صفقة عادلة؛ الشريحة مقابل حياتكم».

شعرت بتردد شديد، ثم قلت: «سترسل الأطفال إلى الملجأ أولاً كما اتفقنا».

أومأ منصور برأسه وقال: «سأرسل الأطفال الآن». ثم أشار إلى حارسه مرة أخرى، وبدأ الأطفال بالتحرك ببطء خارج الزنزانة. كنت أراقبهم بحذر، وأنا أشعر بثقل القرار الذي اتخذته.

بعد دقائق قليلة، عاد الحارس وقال لمنصور: «الأطفال في طريقهم إلى الملجأ».

نظر منصور إليَّ وقال: «والآن يا عمر، الشريحة».

الفصل الرابع عشر

تحركت السيارات من المترو في ظلام الليل، متوجهة إلى موضع الشريحة. كنت بصحبة مهند ومريم في إحدى السيارات، وحكيت لهما ما حكاه لي منصور بشأن أبناء القيامة، فقال مهند: «لا أعرف يا عمر، لسنا في موضع يسمح لنا بالجزم بحقيقة الأمور».

قالت مريم: «إن منصور هو السبب في موت أبي. لن أسامحه أبدًا، ولن أثق بكلمة يقولها!».

أومأ مهند برأسه وقال: «هذا صحيح، منصور يحاول أن يخدعنا، ويزرع الشكوك في نفوسنا».

زفرت وقد شعرت بالإحباط ثم قلت: «حتى لو كان الأمر هكذا فلا يوجد لدينا خيار آخر، إن حياتنا في قبضة منصور، وإذا لم نمنحه الشريحة، فقد يعرض حياتنا للخطر. نحن مجبرون على السير في هذا الطريق، على أمل أن نتمكن من إيجاد طريقة للنجاة».

بينما السيارات تقطع أطلال القاهرة، إلى الموضع الذي خبأتُ فيه الشريحة، عادت ذاكرتي إلى البيت الذي اختبأت فيه بصحبة مهند قبل أن تهجم علينا العصابة، عندما أخبرني مهند أنه سيتفقد المطبخ، حينها راودتني فكرة أن احتفاظي بالشريحة قد يكون خطرًا، وفكرت في أن أخبئها في مكان لا يعرفه أحد سواي.

بعد مرور بعض الوقت، توقفت السيارات، ثم انفتح باب سيارتنا ورأيت منصور واقفًا أمامنا وهو يرتدي قناع غاز، ويشير إلينا أن نترجل عن السيارة.

أشار منصور إلى البيت وقال: «يجب أن تكون الشريحة هنا وفقًا لما وصفته لي».

نظرت إلى البيت الذي يشير إليه، إنه البيت ذاته المحاط بالسياج. شعرت بالشك يتسلل إلى نفسي مرة أخرى، ولكن لم يعد هناك مجال للتراجع الآن.

تقدمت ببطء نحو البيت القديم، وأنا أشعر بأعين الجميع تراقبني، حتى دلفنا عبر الباب. أخذت نفسًا عميقًا وأنا أتلفت حولي، كانت المكتبة في الزاوية، تمامًا كما أذكرها.

تقدمت ناحية المكتبة، وفجأة، سمعنا صوت إطلاق نار من خارج المستودع. تراجع الجنود في حالة من الفوضى، وأمسك منصور بمسدسه وصاح: «ما الذي يحدث؟».

صرخ أحد الجنود: «إنهم أبناء القيامة، إنهم يهاجموننا».

أسرع منصور إلى الخارج بصحبة رجاله. كانت المعركة مشتعلة، وطلقات النار تملأ الأجواء.

فتحت الدرج على الفور، كانت الشريحة الفضية هناك، فأخذتها ووضعتها في جيبي على الفور، ثم أسرعت إلى الخارج حيث المعركة لا تزال مستعرة. أبناء القيامة بسيارتهم وأسلحتهم يتبادلون إطلاق النار مع رجال منصور، والفوضى التامة تعصف بالمكان.

التقطت مسدسًا من أحد الجنود الواقعين أرضًا، ثم تلفت حولي حتى وجدت مريم ومهند مختبئين وراء إحدى سيارات المترو، ومريم تصرخ في خوف.

صحت فيهما: «مريم! مهند! يجب علينا الهرب من هنا».

أفاقا من ذهولهما وهما ينظران إليَّ، ساعدت مريم على الصعود إلى المقعد الخلفي، ثم قفزت إلى المقعد المجاور للسائق، بينما مهند يقفز أمام مقود، ويشعل محرك السيارة قبل أن نسرع مبتعدين عن المعركة وقلبي يخفق بقوة من شدة التوتر والخوف.

كدت أعتقد أننا قد هربنا سالمين، ولكننا لمحنا أضواءً تسرع وراءنا، وتقترب منا بسرعة، فقال مهند في توتر: «هل هم رجال منصور؟ أم أبناء القيامة؟ ما الذي يجب علينا أن نفعله؟».

نظرت إلى الضوء الذي يقترب بسرعة من خلفنا، كان من المستحيل تحديد هويتهم في هذا الظلام. قلت: «لن نكون قادرين على الهرب إلى الأبد، سيكون علينا الاستسلام في النهاية. توقف يا مهند».

أبطأ مهند من حركة السيارة، حتى توقفت تمامًا في النهاية، والأضواء تقترب بسرعة.

توقفت إحدى السيارات بجانبنا، ثم ترجلت منها نادين، التي نظرت عبر النافذة ثم قالت: «عمر، مهند، حمدًا لله أنكما بخير». ثم نظرت إلى المقعد الخلفي وقالت: «وأنتِ مريم بلا شك».

أومأت مريم برأسها وقالت: «وأنت نادين، أليس كذلك؟».

قالت نادين: «تعالوا معي، لا وقت لإضاعته، إن أصدقاءنا مشتبكون مع رجال منصور، ولكن أخشى أن يتمكن منصور ورجاله من النجاة وملاحقتنا مرة أخرى».

ترجلنا عن سيارتنا لنستقل سيارة من سيارات أبناء القيامة بصحبة نادين.

كانت نادين جالسة بالمقدمة إلى جوار السائق، بينما جلست بالخلف إلى جانب مريم ومهند، وأنا أنظر ورائي عبر الزجاج الخلفي طيلة الوقت، متوقعًا أن أرى منصور أو رجاله يلاحقوننا، ولكن لم يظهر شيء في الأفق.

بعد فترة من الصمت، قالت نادين: «أنا سعيدة أنكم بخير، خشيت أن منصور قد أوقع بكم الأذى».

قال مهند مازحًا: «لقد جئتم في الوقت المناسب كالعادة».

نظرت نادين إلى مريم وقالت: «تقبلي خالص عزائي في وفاة والدك».

قالت مريم في حزن: «شكرًا لكِ، ولكن لا فائدة من كلمات العزاء، فهي لن تعيد من فقدناهم».

قالت نادين مبتسمة: «أنتِ جميلة للغاية. أعتقد أنني فهمت لماذا كان عمر يسعى بشكل محموم لإنقاذك». ثم التفت إليَّ وقالت: «هل استطعت الحصول على الشريحة؟».

ترددت قليلًا ثم قلت: «أجل، ولكن... لقد قال لي منصور...».

قاطعتني قائلة: «فلنؤجل الحديث عن الأمر حتى نصل إلى مكان آمن. لن يستسلم منصور بسهولة».

نظرت عبر النافذة، جميع الأطلال تبدو متشابهة، ولكني بشكل ما شعرت أننا لسنا متوجهين ناحية المقر الرئيسي لأبناء القيامة. سألتها: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

أجابتني وهي تنظر عبر المرآة الجانبية: «إلى أحد المراكز التابعة لأبناء القيامة، حيث يمكننا أن نتبادل الحديث بأمان».

سألها مهند: «ولماذا لا نتوجه إلى المقر الرئيسي؟».

أجابته: «إن منصور يعرف أن الشريحة بحوزتكم بالتأكيد. لن يغامر بمهاجمة المقر الرئيسي، ولكنه بالتأكيد سيحاول مراقبة كل الطرق التي تؤدي إليه».

لذنا بالصمت بينما سيارات أبناء القيامة تقطع الأطلال والخرائب، وأنا غارق في أفكاري الخاصة. ما الذي يجب أن أفعله بالشريحة؟ من يجب أن أصدق، أبناء القيامة أم منصور؟ تبدو نادين صادقة بما يكفي، ولكنها في الوقت ذاته لا تزال تبدو كأنها تخفي شيئًا ما.

فجأة رأيت السيارة تقترب من نفق، يبدو متماسكًا وليس متداعيًا كأنفاق أخرى قد مررنا بها. ولكني فوجئت عندما وجدت نهاية النفق مسدودة ببوابة معدنية تبدو صلبة. توقفت السيارات تباعًا أمام الباب، ثم ترجل سائق سيارتنا ليقترب من البوابة، ورأيته يضغط على شيء ما في الباب، وبدا أنه يتبادل الحديث مع شخص على الجانب الآخر.

انتظرت بقلق حتى رأيت السائق يعود إلى السيارة ويجلس وراء المقود. نظرت إلى نادين وسألتها: «ما الذي حدث؟».

أجابت نادين بثقة: «إنه إجراء أمني، يجب عليهم التيقن من هوياتنا قبل أن يسمحوا لنا بالدخول. وهكذا لا يمكن لأحد غير مرغوب فيه أن يدخل».

بعد لحظات قليلة سمعت صوتًا ميكانيكيًا يأتي من البوابة المعدنية، وبدأت البوابة تفتح ببطء، كاشفة عن ممر مظلم يمتد إلى أعماق النفق. تحركت السيارات ببطء إلى الداخل، والشعور بالقلق يتزايد بداخلي.

تابعنا السير عبر الممر حتى وصلنا إلى منطقة مفتوحة مضاءة بمصابيح خافتة. كانت هناك مجموعة من الأشخاص ينتظروننا يبدو عليهم الترقب.

ترجلت نادين عن السيارة واقتربت منهم، وتبادلت الحديث معهم، ثم أشارت إلينا، فترجلنا عن السيارة بدورنا.

أشارت نادين إلى أحدهم، رجل أشيب الفودين، يبدو أكثر أهمية من الباقين، وقالت: «هذا العقيد خالد، المسؤول عن هذا المقر».

ثم التفت إليَّ وقالت: «وهذا عمر».

أومأت برأسي ولكني فوجئت بخالد يصافحني بحرارة وهو يقول: «تسعدني مقابلتك حقّا، لقد سمعت كثيرًا عنك، ولا أصدق أنني رأيتك أخيرًا».

جذبت يدي من يده، وأنا أفكر في شيء لأقوله، ولكنه أضاف في حزن: «يؤسفني ما حدث للفأر. لقد كان صديقًا عزيزً، وإنسانًا صالحًا حقًّا».

التفتت نادين إلى مهند ومريم وقالت: «هذان صديقاه؛ مهند ومريم».

التفت العقيد خالد إليهما وقال: «مرحبًا بكما بين أبناء القيامة».

قالت نادين: «نحتاج إلى مكان هادئ لتبادل الحديث».

قال خالد: «أجل بالطبع». ثم أشار إلينا أن نتبعه. تقدمتنا نادين، وتبعها ثلاثتنا، عبر ممرات مضيئة وقاعات. كان المكان مختلفًا عن المقر الرئيسي لأبناء القيامة، فقد كان تحت الأرض مثل الملجأ والمترو، ولاحظت وجود أشياء أخرى لم أعتد رؤيتها، حظائر للحيوانات والطيور. كانت هناك ماشية وأغنام ودجاج وحيوانات أخرى مختلفة لم أعرفها.

تقدمت لأمشي بمحاذاة نادين وقلت لها: «لم أتخيل مثل هذا المشهد من قبل».

قالت مبتسمة: «أتذكر عندما أخبرتك من قبل عن الحيوانات المعدلة جينيًّا؟ هذه الحيوانات يمكنها النجاة في الظروف القاسية، ونستخدمها لتزويد الملاجئ بالبروتينات الحيوانية اللازمة، ولكن دورها الرئيسي أن تكون جاهزة عندما يستعيد البشر حضارتهم. يمكن أن تقول إنها مثل فلك نوح. ولكنه ليس فلكًا واحدًا، يوجد العديد من هذه المراكز في أرجاء القاهرة».

راح مهند ومريم يتأملان كل شيء بانبهار بدورهما، وكان هناك الكثير من الأشخاص يذهبون ويجيئون، بعضهم يرتدي الملابس البيضاء المميزة للعلماء وهم يكتبون أشياء في لوحات ورقية بعد تفحص هذا الحيوان أو ذاك، وبعضهم يومئ برأسه إلى خالد في أثناء مرورنا، أو ينظرون إلينا بفضول، ولكن لم يطرح أحد أسئلة. يبدو أنهم معتادون الزوار الغرباء.

وقف العقيد خالد أمام أحد الأبواب، وأدار المقبض ليفتحه، لندلف إلى غرفة جيدة الإضاءة، وبها طاولة، وعدد من الكراسي البسيطة، ويوجد أيضًا مكتب يبدو فارهًا، ومن ورائه كرسي مبطن.

لم يجلس العقيد على الكرسي المبطن كما توقعت، بل جلس أمام الطاولة على أحد الكراسي البسيطة، وأشار إلينا كي نجلس، فجذب كل واحد منا كرسيًّا.

راح خالد ونادين يتبادلان الحديث لبعض الوقت عن الأحوال في المقر الرئيسي، ثم جاء رجل يحمل صحفة عليها إبريق وأكواب وضعها على الطاولة، قبل أن يرفع يده إلى صدغه فيما يبدو أنه تحية عسكرية ثم انصرف.

راحت نادين تصب السائل الموجود في الإبريق في الأكواب، ولم يكن ماءً، بل مشروبًا أصفر فاقعًا.

قدمت إليَّ نادين الكوب، فرفعته إلى أنفي متشممًا، فقال لي خالد: «لا تقلق، هذا المشروب معد من الفاكهة الطازجة، من أحد مراكز أبناء القيامة المتخصصة في العناية بالأشجار والنباتات».

ارتشفت رشفة من الكوب فوجدته حلوًا للغاية، فتجرعت السائل كله في نهم فقد كنت أشعر بالعطش الشديد.

وبعد أن تناول الجميع مشروباتهم، قالت لي نادين: «والآن، ما الذي قاله لك منصور؟».

نقلت نظري بينها وبين خالد في تردد، فقالت: «يمكن أن تتحدث بصراحة ولا تخشَ شيئًا».

أخذت نفسًا عميقًا ثم حكيت لهما كل ما قاله منصور عن خطة أبناء القيامة. بعد أن أنهيت حديثي قالت نادين ببطء: «ما قاله منصور صحيح».

اتسعت عيناي في دهشة، توقعت أن تنكر ما قاله، ولكنها قد اعترفت بهذه البساطة!

أضافت نادين على الفور: «ولكنه لم يخبرك بالحقيقة كاملة».

سألتها في حيرة: «ما الذي أخفاه؟».

هزت كتفيها ثم قالت: «الكثير».

رحت أفكر في الأمر، ثم سألتها: «ولكن... إن كان منصور محقًّا فيما قاله، فهذا يعني أن أبناء القيامة يأخذون فقط الأطفال الذين لا يحملون تشوهات جينية، فهل هذا يعني أنني ومهند ومريم نحمل تشوهًا جينيًّا؟ لهذا تركتمونا في الملجأ؟».

هزت رأسها وقالت: «لا أعرف بشأن مريم ومهند، فلم يكن هذا القطاع تابعًا لي حينها، ولكني أعرف بشأنك، فالحقيقة أنك قد ولدت بجينات نقية. كما أنك لم تُولد في الملجأ».

اتسعت عيناي في دهشة، وبدت الدهشة كذلك على وجهي مهند ومريم.

قالت نادين: «أجل هذا صحيح، لم تولد هناك، لقد ولدت بين أبناء القيامة».

الفصل الخامس عشر

لم أستطع استيعاب الكلمات التي قالتها نادين. ولدت بين أبناء القيامة؟ كيف يُعقل هذا؟ نظرت إلى مهند ومريم، وبدت عليهما نفس الدهشة والحيرة اللتين شعرت بهما.

قالت نادين: «هذا ما لم يخبرك به منصور. كانت خطة أبناء القيامة – المنطوية على تدمير كل أشكال الحياة البشرية خارج أبناء القيامة – معروفة للجميع، ولم يكن الجميع راضين عنها. لم يكن منصور وحده المتمرد على هذا القرار حينها، كان أبوك وأمك من كبار العلماء بين أبناء القيامة، وقد رفض أبوك هذه الخطة، وكان الفأر صديقًا لأبيك، وقد طلب منه أن يأخذك إلى أحد الملاجئ لحمايتك في أثناء التمرد».

كنت أستمع إليها غير مصدق، أبي وأمي اللذان لم أعرف عنهما شيئًا طيلة حياتي كانا من أبناء القيامة!

أكملت نادين حديثها قائلة: «ولكن أباك قد فعل شيئًا لم يتوقعه أحد؛ قبل بدء التمرد استخدم جيناته لجعل الكمبيوتر الذي يشغل القمر الصناعي لا يمكنه العمل إلا باستخدام بصمته الجينية، وهكذا يضمن ألا يستخدم أبناء القيامة القمر الصناعي حتى إن عثروا على الشريحة». ثم اكتسى وجهها بالحزن وهي تقول: «لقد مات أبوك وأمك في أثناء التمرد، وهرب منصور بالشريحة ليؤسس إمبراطوريته الخاصة في المترو. كان الفأر يعلم أنك الوحيد الذي تحمل جينات أبيك، ويمكن لجيناتك تشغيل القمر الصناعي، لذا هرب بك إلى ملجأ لم يخبر به أحدًا من أبناء القيامة، ومنذ ذلك الحين يبحث عنك أبناء القيامة لأنك المفتاح لتشغيل القمر الصناعي، ومنصور أيضًا، ويستخدمون الفحص الجيني للبحث عن أي طفل يمكن أن تقترب جيناته من جينات أبيك لاستخدامه في تشغيل القمر الصناعي. ولكن الحقيقة الأكيدة هي أنه لا أحد سواك الآن يمكنه تشغيل القمر الصناعي، لذا لا أعتقد أن منصور كان سيطلق سراحك بعد أن تسلمه الشريحة، بل كان سيحتفظ بك، ليستخدمك مع الشريحة ورقة ضغط على أبناء القيامة وطريقة لبسط نفوذه. لهذا السبب كان الفأر يحرص على عدم خروجك من الملجأ، لأنه يعرف أن هذا سيعرض حياتك للخطر، ولم يسمح لك بالخروج في النهاية إلا بصحبته».

طيلة هذا الوقت كنت أشعر بالغضب لأن مروان يرفض خروجي من الملجأ، وغضبت من الفأر عندما عرفت أنه من طلب منه هذا، والآن أعرف أنه قد فعل كل هذا من أجل حمايتي!

شعرت بيد مريم تربت على كتفي، بينما مهند يقول: «ولكن أنتم من أبناء القيامة، أليس كذلك؟ هل ستأخذون عمر والشريحة لتشغيل قمركم الصناعي هذا؟».

هزت نادين رأسها وقالت: «قلت لكم إنه ليس هناك إجماع على خطة أبناء القيامة، ولم يرحل جميع المتمردين مع منصور، لقد بقي بعضنا بداخل أبناء القيامة لتنفيذ خطة أخرى».

سألتها: «وما هي هذه الخطة؟».

تبادلت نادين النظر مع خالد، الذي أومأ برأسه، فقالت: «كنت شابة صغيرة عندما حدث التمرد، ولكني لم أقتنع أنه يمكن ببساطة القضاء على كل أشكال الحياة حتى لو كانت تحمل شيئًا من التشوه الجيني، هذا قدرنا جميعًا، ويجب أن نسعى نحو مستقبل أفضل بتعاون الجميع، وليس بنجاة فئة واحدة وفناء الجميع. كان الفأر واحدًا من المقتنعين بهذه الفكرة، وقد أقنعني بفكرته. الشريحة لا يمكن تدميرها بالوسائل المعتادة كما أخبرك منصور، ولكن يمكن تدميرها بشيء واحد، بالقمر الصناعي نفسه. إن مقر القمر الصناعي يستخدم خلية طاقة كتلك التي أخبرتك عنها، وإن وجهت سلاح القمر الصناعي ناحيته فسيحدث انفجار نووي مصغر، ونحن نعتقد أن هذا كافٍ لتدمير الشريحة، وتحييد القمر الصناعي. كان الفأر ينتظرك كي تكبر، كي تكون قادرًا على الاقتناع بهذه الفكرة، وأن تستخدم القمر الصناعي لتدمير مركز التحكم فيه، بالشريحة والكمبيوتر وكل شيء».

ظللت صامتًا وأنا أفكر فيما تقوله نادين، فابتسمت وقالت: «لقد أراد منك الفأر أن تأتي بالشريحة إليَّ، كان يعرف أننا – المتمردين – سنرشدك في نهاية المطاف، لتتمكن من إنقاذ الجميع من قيامة أخرى».

هززت رأسي بقوة، كلما شعرت أنني فهمت ما يحدث حولي يزداد الأمر تعقيدًا، ويزداد الحمل الذي أشعر به على كاهلي ثقلًا. في نهاية المطاف قلت في خفوت: «لا أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله».

تنهدت نادين: «وقالت أنت تحظى الآن بفرصة ذهبية، يمكنك أن تمنح الأمل للبشرية، أن تمنحهم بداية جديدة».

سألني خالد بحزم: «القرار بيدك الآن؛ هل أنت مستعد لتدمير مقر التحكم في القمر الصناعي وحماية البشر من الهلاك؟».

كان القرار صعبًا. نظرت إلى مريم ومهند، إن نجحت خطة أبناء القيامة فهذا يعني هلاك الملجأ، وكل قاطنيه، وكل الملاجئ الأخرى، المترو النابض بالحياة، حتى لو كان خاضعًا لسيطرة منصور، فإن به بشرًا كثيرين يحاولون شق طريقهم نحو المستقبل.

ولكن ماذا لو أن أبناء القيامة محقون؟ ماذا لو أن هذا التشوه الجيني سيجعل البشر ينجرفون إلى مستقبل أكثر ظلامًا؟

شعرت أنني أغرق في بحر من الحيرة والتردد. كلما فكرت في الخيارات المطروحة أمامي، ازداد العبء ثقلًا، ولم أكن قادرًا على حسم قراري.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت: «أحتاج إلى وقت للتفكير في الأمر».

تبادلت نادين النظر مع خالد، ثم قالت لي: «حسنًا، فلتأخذ وقتك، ولكن تذكر أن العالم بالخارج يعتمد على قرارك».

قال خالد: «لا شك أنكم متعبون، ربما من الأفضل أن تستريحوا قليلًا».

ذهبت مريم بصحبة نادين، بينما اصطحبنا خالد - أنا ومهند - إلى حجرة بها أَسِرَّة، ثم تركنا وحدنا. سرعان ما خلد مهند إلى النوم، ولكني بقيت مستيقظًا طوال اليوم. جلست على السرير، متكئًا بظهري على الجدار، أحرك الشريحة الفضية بين أصابعي وأنا أتأملها في شرود. راحت الأفكار تتصارع في عقلي كأنها أمواج عاتية تتلاطم في بحر عاصف. سألت نفسي في شرود: *كيف يمكن لشخص مثلي أن يقرر مصير البشرية؟*

تمنيت لو أنني لست مسؤولًا عن هذا القرار، تمنيت لو أنني لا أزال في الملجأ ولم أخرج منه يومًا. شعرت أنني أفتقد حياتي القديمة في الملجأ بالفعل، الإحساس بالأمان الذي كان يغلفني دون أن أشعر به، لقد شعرت الآن بقيمته بعد أن حرمته. تذكرت عندما كانت مريم تجلس مع الأطفال تعلمهم القراءة والكتابة، تحكي لهم بعض الحكايات التي نجت من الكارثة. لطالما سخرت من فعلها هذا، ولكني الآن أتمنى لو كنت هناك، جالسًا بجوارها، أتأمل ملامحها دون أن تشعر بي.

تذكرت الفأر عندما يعود إلى الملجأ من رحلاته في أرجاء القاهرة، حاملاً إليَّ أحيانا بعض الهدايا من الأشياء التي يعثر عليها بين الأطلال. كل شيء قد تغير إلى الأبد، لقد مات الفأر، ومات القائد مروان، ولا يمكنني الآن العودة إلى الملجأ.

تذكرت وجه مريم وهي تبكي بعد أن سمعت خبر وفاة والدها، وفي الوقت ذاته تذكرت العائلات التي أصابها الحزن عندما أخذ أبناء القيامة أطفالهم، ثم فكرت في حديث نادين عن والدَيَّ اللذَين لم أعرفهما، وكيف كان أبي يحاول إنقاذ العالم من قيامة جديدة.

من على صواب؟ منصور أم أبناء القيامة؟ رحت أسترجع رحلتي منذ خرجت إلى أطلال القاهرة، تذكرت المتحولين الذين واجهناهم، إن هذا الانحراف الجيني يبدو مخيفًا حقًّا! ولكني في هذه اللحظة تذكرت تلك المرأة المتحولة وهي تضم إليها أطفالها، إنهم بشر أيضًا، بشر قد وُهبوا فرصة للحياة، ولا يحق لأحد أن يسلبهم إياها.

غلبني النوم وأنا غارق في أفكاري، فرأيت كابوسًا؛ موجة من الدمار تجتاح العالم، نيرانًا تلتهم المدن، وأصوات صراخ تعلو من كل مكان! رأيت أبناء القيامة يضعون عدسة عملاقة أمام الشمس الحمراء الدامية.

ثم وجدتني أحدق إلي منصور، واقفًا فوق برج من حديد، الدخان يتصاعد من سيجاره، وهو يضحك بينما يشير بيده فتندفع أشعة حمراء من الشمس لتحول كل شيء إلى رماد.

صرخت فيه أن يتوقف، فضحك ساخرًا وقال: «لا أحد يمكنه الهروب من القدر».

استيقظت مذعورًا، عرقي يتصبب، وقلبي ينبض بعنف.

تناولت وجبة الإفطار بصحبة خالد ونادين ومهند ومريم، كان هناك جبن ولبن وبيض على سبيل التغيير، وهي الأشياء التي لم نكن نراها في الملجأ إلا نادرًا، ولكن يبدو أن هذا المكان لاحتوائه على العديد من الطيور والماشية فإنهم يحظون طيلة الوقت بمثل هذه الأطعمة اللذيذة.

رغم أفكاري القاتمة فإنني استمتعت بهذه الوجبة.

بعد الإفطار شعرت برغبة في استكشاف هذا المكان، فقررت التمشية وحدي قليلًا، أنظر إلى حظائر الماشية، وأعشاش الطيور، وأتأمل الناس وهم يحاولون عيش حياتهم في هذا العالم المدمر. شاهدت مجموعة من الأطفال يلعبون بكرة مصنوعة من القماش. كانوا يركضون خلفها بضحكات بريئة، كأنهم غير عابئين بالعالم السوداوي من حولهم.

كانت هناك امرأة عجوز تجلس وتراقب الأطفال، وعندما اقتربت منها نظرت إليَّ وقالت بصوت متعب: «أنت الذي يتحدثون عنه، أليس كذلك؟».

نظرت إليها بتعجب وسألتها: «عمَّ تتحدثين؟».

ابتسمت بحزن وقالت: «لقد سمعت عنك. سمعت أنهم ينتظرون منك أن تنقذهم أو تحكم عليهم بالهلاك».

شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي. كل هذا يقع على عاتقي وحدي!

تابعت وهي تنظر إلى الأطفال: «أتعرف؟ لقد عشت طويلًا بما يكفي لأفقد كل من أحب، لكن عندما أنظر إلى هؤلاء الأطفال، أرى الأمل في أعينهم. لا أحد يستحق أن يُحرم هذا الأمل».

ظللت أراقب الأطفال وهم يركضون ويضحكون، بدا لي أن براءتهم هي الشيء الوحيد المتبقي في هذا العالم المحطم. نظرت إلى عيني العجوز اللتين تحملان حكمة السنين علني أجد فيها جوابًا للأسئلة المعتزلة في صدري، ولكنها اكتفت بأن ابتسمت لي ابتسامة مشفقة.

واصلت المشي عبر الممرات التي لا يضيئها إلا الضوء الصناعي، حتى شعرت بالتعب فجلست على مقعد منفرد في زاوية. أخذت نفسًا عميقًا وأغمضت عينيَّ، مستمعًا لأصوات الحديث أو الضحكات، أو أصوات الحيوانات المختلفة.

فجأة شعرت بيد خفيفة تُوضع على كتفي. فتحت عيني ببطء، لأجد مريم واقفة بجانبي، تنظر إليَّ مبتسمة. جلست بجواري دون أن تتحدث، ولبثنا صامتين لبعض الوقت.

أخيرًا قطعت مريم الصمت قائلة: «أنا أعرف أن القرار صعب، ولا أحسدك على موقفك، ولكني واثقة بأنك ستفعل الصواب في النهاية».

سألتها بصوت خافت: «لكن ماذا لو كنت مخطئًا؟».

هزّت رأسها وقالت: «لا أحد يستطيع أن يتوقع المستقبل. كل ما يمكننا فعله هو اتخاذ أفضل قرار استنادًا إلى ما نعرفه. نحن معك، لن تواجه الأمر وحدك».

نظرت إليها مبتسمًا في امتنان، ووضعت يدي على يدها. لقد حسمت أمري أخيرًا، لا يمكنني السماح لأحد - سواء أبناء القيامة أو منصور - بالسيطرة على مستقبل البشرية.

اعتدلت واقفًا، ومشيت بصحبة مريم، حتى وصلنا إلى حجرة خالد، وهنالك كان بصحبة نادين ومهند. نظر إليَّ ثلاثتهم في ترقب فقلت: «سندمر مقر القمر الصناعي!».

ارتسم الارتياح على وجه نادين، وقال خالد مبتسمًا: «دعونا نضع الخطة إذن». نظر إليه الجميع بانتباه فقال: «لدينا هنا فرقة من الجنود المستعدين للتضحية بحياتهم في سبيل ما يؤمنون به. كل ما نحتاج إليه هو التسلل إلى مقر القمر الصناعي في أثناء النهار - حيث يكون القمر الصناعي ذا فاعلية في هذا النصف من الكرة الأرضية - وتشتيت انتباههم، حتى تتمكن نادين من مساعدة عمر في تشغيل الكمبيوتر وتوجيه القمر الصناعي».

قال مهند: «سآتي معكم».

وقالت مريم: «وأنا أيضًا».

هززت رأسي وقلت: «هذه ليست نزهة، بل مهمة خطيرة للغاية».

قال مهند: «أنا أكثر خبرة منك في القتال».

وقالت مريم بعناد: «وأنا لن أقف مكتوفة اليدين بينما تعرضون جميعًا حياتكم للخطر».

قالت نادين: «لا بأس، لا تقلق. نحن سنستخدم هويتنا للتسلل إلى المقر، ولن يعترض طريقنا أحد، وبمجرد أن ينتهي الأمر لن يكون بوسع أبناء القيامة أو منصور فعل أي شيء».

سألتها: «ولكن ألن يحاول منصور منعنا؟ لا شك أنه يمشط أطلال القاهرة الآن بحثًا عنا».

قال العقيد خالد: «سنتحرك في أثناء النهار، على الأرجح لن يواجهنا العديد من البشر نهارًا، ولكن على أي حال سيكون جنودنا مستعدين للتعامل مع رجال المترو في حال ظهورهم».

أضافت نادين: «سنتحرك بسرعة ودقة، لن ندع فرصة لأي أخطاء، كل خطوة مدروسة وكل شخص يعرف دوره».

شعرت بالقلق يتعاظم بداخلي، ولكن في الوقت ذاته شعرت بالعزيمة والإرادة. لم يعد هناك مجال للتراجع. نظرت إلى مريم ومهند ورأيت الدعم والإصرار في أعينهما.

قلت: «حسنًا، دعونا نبدأ. سنفعل ما يجب علينا فعله».

وهكذا بدأت التحضيرات للخطوة الأخيرة في رحلتنا. المعركة من أجل مستقبل البشرية على وشك أن تبدأ، وأنا مستعد لتحمل المسؤولية واتخاذ القرار الذي سيغير مصير الجميع.

الفصل السادس عشر

بدأنا التحرك في ساعة مبكرة من الصباح، بينما أشعة الشمس الأولى تتسلل عبر السحب المكتسية بالحمرة، ملقية بظلال طويلة على أطلال القاهرة، وقد انعكس لون السماء الأحمر على المدينة المحطمة من تحتها.

تحركت السيارات خارجة من النفق، لتقطع الشوارع المتصدعة والمباني المنهارة، وقد تألفت قافلتنا الصغيرة مني أنا ونادين، ومهند، ومريم، وخالد، بالإضافة إلى فرقة من الجنود الموالين لقضيتنا. كانت العربات تتحرك بهدير مرتفع، جعل قلبي يخفق بعنف، وأنا آمل ألا يجذب الصوت أحدًا.

كانت الأطلال التي نعبرها شاهدة على حضارة عظيمة قد انتهت؛ المباني الضخمة المتداعية، والشوارع المغطاة بالحطام، والأعشاب التي نمت بشكل عشوائي، كل ذلك كان يعكس حجم الدمار الذي لحق بالمدينة. كان هناك هدوء غريب يخيم على المكان، كأن القاهرة في حالة حداد دائم على ما فقدته.

كان خالد في السيارة الأولى يتحدث بصوت هادئ عبر جهاز اتصال لا سلكي، يعطي التوجيهات ويؤكد أهمية الحذر. كنت في السيارة الثانية أفكر في المهمة التي تنتظرنا وفي الحمل الثقيل الذي أشعر به على كاهلي. في المقعد الأمامي تجلس نادين بجانب السائق ومعها جهاز لا سلكي آخر تتواصل به مع خالد. على يميني مهند الذي يراقب الأرجاء بعينين حادتين، بينما مريم على الجانب الآخر تتبادل الحديث معي، وتخبرني أن نادين وعدتها بفرصة لتعليم المزيد من الأطفال في حال نجاح مهمتنا.

مررنا بمناطق يبدو أنها كانت مأهولة في يوم من الأيام، حيث رأينا بقايا متاجر ومقاهٍ، ومقاعد مهشمة تغطيها الأتربة. شعرت أن روح الماضي تخيم على المكان، كأنني أسمع أصوات الناس وضحكات الأطفال التي كانت تملأ هذه الأماكن قبل الكارثة.

مع تقدم النهار اشتدت أشعة الشمس، وبدأنا نشعر بالحرارة رغم أجهزة التبريد في السيارة، وتمنيت أن نصل إلى وجهتنا سريعًا. كان التوتر يتصاعد داخل السيارة، وكل منا غارق في أفكاره ومخاوفه.

فجأة سمعت صوتًا في الأفق، وعندما نظرت عبر الزجاج الخلفي رأيت سيارات تقترب منا بسرعة كبيرة، وعلمت على الفور أنها ليست سيارات عادية.

صاحت نادين عبر اللا سلكي: «هناك من يلاحقنا».

لم يكن أحد بحاجة إلى التحذير فقد انتبهنا جميعًا للصوت.

قال خالد عبر اللا سلكي: «استعدوا لمواجهة! إنهم على الأرجح رجال منصور! سنحاول الابتعاد عن الطريق الرئيسي والانعطاف إلى شوارع جانبية».

تحولت القافلة بسرعة إلى مسار جانبي، محاولة الابتعاد عن الطريق المكشوف. كان السائقون يتحركون بالسيارات بسرعة وحذر في آن واحد، ولكن بدا عليهم أنهم متمرسون، فقد راحوا يتجنبون الركام

والأنقاض المتناثرة في الطريق. ولكني رأيت سيارات المترو تقترب بسرعة، مصممة على اللحاق بنا.

ازدادت الأصوات وضوحًا، فعلمت أن المواجهة لا مفر منها. اقتربت سيارات المترو من القافلة وبدأت الطلقات تتطاير من حولنا. بدأ جنود العقيد خالد في الرد على الهجوم، لكن الوضع كان صعبًا للغاية.

قالت نادين عبر اللا سلكي: «علينا الوصول إلى منطقة يمكننا فيها الدفاع عن أنفسنا، هذا الطريق لن يوفر لنا حماية كافية!».

أشار خالد بيده إلى مبنى كبير منهار جزئيًّا على جانب الطريق وقال: «هناك! لنتحصن داخل هذا المبنى!».

انعطفت السيارات بسرعة ودخلت ساحة المبنى. توقفت السيارات واندفع الجميع خارجها بسرعة وقد ارتدوا أقنعة الغاز بسرعة احترافية. اتخذ الجنود مواقعهم بسرعة حول الساحة، محاولين تأمين المنطقة.

بدأت الطلقات تتطاير مرة أخرى، فاختبأت وراء جدار متهدم، ثم اختلست النظر نحو رجال منصور وهم يتقدمون نحو المبنى. كانت الأعداد غير متكافئة، لكن كانت لدينا ميزة الموقع.

تحرك خالد برشاقة بين الجنود، يوجههم ويصدر إليهم الأوامر بحزم. نظرت ناحية نادين وأنا أشهر مسدسي، فالتفتت إليَّ وقالت: «أرجوك لا تحاول الاشتباك معهم، إن حياتك هي أثمن حياة في القاهرة الآن».

ترددت قليلًا، ثم خفضت سلاحي ببطء وأنا أفكر أنها ربما تكون محقة.

قفزت مريم إلى جانبي، تحمل مسدسًا، ولكنها لم تكن متمرسة في استخدامه، فقلت لها: «ابقي مختبئة، ولا تستخدمي السلاح إلا إن اضطررتِ تمامًا إلى هذا».

استمر القتال لبعض الوقت، بينما الوضع يزداد سوءًا. رأيت مهند يطلق النار من موقعه إلى جانب الجنود، الذي يبذلون قصارى جهدهم للدفاع عن المكان، وفجأة وسط الفوضى سمعت صوت انفجار كبير. التفتُّ لأرى أحد رجال منصور يطلق قذيفة أخرى باتجاه المبنى.

صرخت: «احذروا!». لكن الانفجار كان سريعًا وقويًّا. تناثرت الأنقاض في كل مكان، وسقطت على الأرض بقوة.

نهضت بصعوبة، محاولاً تقييم الوضع. كان الجنود لا يزالون يقاتلون، لكن الأضرار فادحة. أدركت أنه لا يمكننا الاستمرار هكذا لفترة طويلة.

نظرت إلى نادين وصحت: «علينا أن نجد طريقة للخروج من هنا، لن نتمكن من الصمود طويلاً».

اقترب خالد منا وقال: «هناك شبكة من الأنفاق تحت هذا المبنى، يمكننا أن نستغلها ليهرب بعضنا من هذا المكان بينما يشتت الباقون انتباه المهاجمين».

أسرعت نحو مدخل النفق الذي أشار إليه خالد ممسكًا بيد مريم، لاحقًا بخالد ونادين، ومن ورائنا مهند وبعض الجنود، ثم فتح الجنود الباب الحديدي الثقيل. هبطنا بسرعة إلى نفق رطب ومظلم، ولكن بعض

الجنود استخدموا الكشافات لإضاءة المكان، بينما أصوات القتال تأتينا من الأعلى.

قال خالد: «ابتعدوا». ثم أخرج من جيبه جسمًا كرويًّا ألقاه ناحية مدخل النفق، وسرعان ما دوى انفجار وانهارت الأنقاض لتسد المدخل، وتصاعد الغبار.

سعل خالد ثم قال: «هكذا نضمن أن أحدًا لن يتبعنا».

سرنا بحذر من نفق مظلم عطن إلى آخر، يتقدمنا خالد الذي يبدو أن لديه خبرة بهذه الأنفاق، بينما أصوات القتال تخفت من ورائنا حتى تلاشت الأصوات تمامًا.

سألت خالد: «أليست هذه جزءًا من أنفاق المترو؟».

أجابني: «بلى، ولكنها أنفاق غير مطروقة، ولا تؤدي إلا لمحطات مهجورة لا تخضع لسيطرة منصور. يمكن أن تقول إنها تقع ضمن نطاق نفوذ أبناء القيامة».

خيم الصمت علينا ونحن نتقدم عبر الأنفاق، حتى خرجنا من أحد الأنفاق إلى محطة مهجورة بالفعل، وكان التراب مكومًا على العربات الصدئة هناك.

فجأة أدركنا أنها لم تكن مهجورة تمامًا، فقد جاءتنا أصوات متحشرجة من الظلمة، وعلى ضوء كشافات الجنود رأينا عددًا من المتحولين يهجمون ناحيتنا، ولكن جنود خالد أردوهم صرعى بطلقات سريعة. ثم توقفنا للحظات لنتيقن من عدم وجود أصوات أخرى.

قال خالد: «تحركوا!». فتحركنا تاركين المحطة وصاعدين السلم متوجهين نحو الضوء، حتى وصلنا إلى السطح مرة أخرى.

شققنا طريقنا عبر الشوارع المتصدعة، ونحن نتلفت حولنا طيلة الوقت خشية حدوث هجوم آخر، ولكن لحسن الحظ لم يظهر أحد من رجال منصور.

بعد سير طويل رأيت مبنى كبيرًا في الأفق، يعلو من فوقه هيكل غريب أشبه بطبق مقعر موجه ناحية السماء. قال خالد: «هذا هو مبنى التحكم في القمر الصناعي».

وصلنا إلى المدخل الرئيسي، واقتربت نادين من الباب، وتحدثت عبر جهاز اتصال داخلي لتخبرهم بهويتها. سرعان ما فُتح الباب وظهر من ورائه حارسان، بديا مدهوشين لرؤيتها، ورؤية خالد والجنود من ورائها، وكذلك أنا ومريم ومهند، فلم نبدُ جزءًا متسقًا مع المجموعة. ولكنهم بالتأكيد يثقون بنادين، فقد سمحوا لنا بالدخول، وأغلقوا الباب من ورائنا، مما سمح لنا أخيرًا بخلع الأقنعة.

قالت نادين مخاطبة الحارسين: «نحن هنا في مهمة استكشافية للتيقن أن كل شيء على ما يرام».

قال أحدهما: «بالطبع يا سيدتي، كل شيء بخير هنا».

قالت مبتسمة: «لن يضير المزيد من التيقن».

تبادل الحارسان نظرات القلق، ولكن لم يكن لديهما سبب للاعتراض. تحركنا بسرعة عبر الممرات المضاءة بشكل خافت، حتى وصلنا إلى غرفة التحكم الرئيسية. كانت الغرفة مليئة بأجهزة غريبة، وشاشات أشبه بأجهزة التلفاز القديمة التي رأيت بعضها من قبل والتي كانت حينها شاشات سوداء، أما هذه فكانت تظهر صورًا لم أفهمها، ولكني خمنت أنها أشياء لها علاقة بالقمر الصناعي.

أشار خالد إلى نادين وقال: «لنبدأ الآن».

قالت لي نادين: «الشريحة يا عمر».

ترددت للحظات، ثم مددت يدي إلى جيبي، وأخرجت ذلك المستطيل الفضي الصغير، ونظرت إلى خطوطه الذهبية الباهتة، ذلك الشيء الذي يتقاتل عليه الجميع، ولديه القدرة على إفناء جزء كبير من البشرية.

لم يتحرك أحد، وخيم الصمت على المكان للحظات، ثم تقدمت إلى الأمام وأعطيتها الشريحة.

اقتربت نادين من شاشة مظلمة، متصلة بجهاز غريب خمنت أنه الكمبيوتر، ثم فتحت جزءًا معينًا من الجهاز، وكانت على وشك أن تدخل الشريحة فيه، عندما انفتح الباب ودلف رجل غاضب، يصحبه الحارسان اللذان قد فتحا لنا الباب، ويبدو من هيئته أن له سلطة في المكان.

قال الرجل على الفور: «لقد تواصلت مع المقر الرئيسي يا نادين وأخبروني أنه لا توجد أي جولات تفقدية». ثم أشار ناحيتي وقال: «كما أخبروني أن شابًّا تنطبق عليه نفس هذه الأوصاف مطلوب لدى المقر الرئيسي لأبناء القيامة هو والشريحة التي يحملها».

اعتدلت نادين واقفة على الفور وهي لا تزال تمسك بالشريحة في يدها، ثم قالت: «مراد، مهلًا، يمكنني أن أشرح لك كل شيء...».

ولكن قبل أن تكمل حديثها دوى صوت انفجار قوي بالخارج ارتج على إثره المكان.

الفصل السابع عشر

«ما الذي يحدث بحق الجحيم؟». صاح بها الرجل الذي خاطبته نادين باسم مراد.

قال خالد في قلق: «أعتقد أنهم رجال منصور».

رفع مراد حاجبيه، ثم قال في غضب: «ما الذي يفعله منصور ورجاله هنا؟».

قال له خالد: «أعرف أنك ترتاب بنا الآن، ولكننا لا نفعل شيئًا إلا لصالح البشرية، عليك أن تصدقنا الآن».

قال له مراد: «أنا لا أعرف ما الذي أصدقه الآن، ولكن يجب عليكم إعطائي الشريحة ومغادرة هذه الحجرة الآن، وبعدها سنترك القادة يقررون ماذا يجب فعله».

دوى انفجار آخر، فقال خالد: «أرجوك يا مراد، لا وقت لهذا الآن».

استل مراد مسدسه من غمده، وصوبه ناحية نادين وهو يقول آمرًا: «الشريحة الآن». ثم شهر حارساه بندقيتيهما بدورهما.

وفي اللحظة ذاتها استل خالد مسدسه، وشهر جنوده أسلحتهم، وتوتر الموقف.

قال خالد: «نحن مستعدون للتضحية بحياتنا في سبيل البشرية، بينما أنت ستضحي بحياتك في سبيل شيء لا تستوعب هوله بعد. اتركنا نفعل ما جئنا لأجله، من أجل مصلحة البشرية».

فجأة جاء حارس إلى الحجرة وقال: «الأعداء اقتحموا المحطة يا سيدي». جاء من ورائه صوت طلقات نارية، فقال على الفور: «وجنودنا اشتبكوا معهم».

راح مراد ينقل عينيه فيما بيننا، ثم جز على أسنانه وقال: «اللعنة! سأتعامل مع رجال منصور أولًا وبعدها سأعود إليكم».

راقبنا مراد ينصرف مع جنوده ثم قال خالد على الفور: «بسرعة يا نادين، ليس لدينا الكثير من الوقت».

بدأت نادين بإدخال الشريحة في الجهاز، وعملت بسرعة ودقة في الضغط على مجموعة من الأزرار في لوح مستطيل، بدأت الشاشة التي أمامنا في إظهار بيانات معقدة، وكان هناك مستطيل يمتلئ بشكل تدريجي.

دوى صوت انفجار آخر في الخارج، ثم سمعنا صرخات الجنود وطلقات النيران. كنا محاصرين بين الخطر الخارجي والضغط الداخلي لإكمال المهمة.

بدأت أتحرك بعصبية في المكان، وقلبي ينبض بسرعة. نظرت إلى مريم ومهند اللذين كانا يقفان بجانبي، وقلت: «أتمنى أن أكون قد اتخذت القرار الصائب».

اقتربت مني مريم، وأمسكت بيدي، ثم قالت لي: «سنكون بخير، كل شيء سيكون على ما يرام».

فجأة دخل جندي الغرفة، وجهه ملطخ بالدماء والرماد، وقال بصوت مضطرب: «لقد اخترقوا الدفاعات الأولى، نحن بحاجة إلى تعزيزات هنا».

نظر خالد إلى جنوده وقال: «اذهبوا وساعدوهم في صد رجال منصور».

تبادل الرجال النظر، ثم اندفعوا إلى الخارج على الفور بصحبة الجندي.

نظر خالد إلى نادين وقال: «هل اقتربتِ من إنهاء الأمر؟».

أجابت نادين: «نعم، تقريبًا، أحتاج إلى بضع دقائق أخرى فحسب».

كانت أصوات تبادل الطلقات تقترب بشكل منذر بالخطر، وكنت أنقل بصري ما بين نادين والباب في خوف، وفجأة قالت نادين: «تعالَ يا عمر، يجب عليك الآن إكمال هذا وحدك، باستخدام بصمتك الجينية».

اقتربت من الجهاز، وفعلت ما تأمرني به نادين. تفحص الجهاز بصمة يدي، وخرج شعاع من الشاشة ليتفحص بصمة عيني، ثم وخزني شيء في إصبعي لتسيل نقطة من دمي. جززت على أسناني، أوشك كل شيء على الانتهاء.

قالت نادين: «لقد حددت إحداثيات القمر الصناعي على هذا الموقع، بمجرد إنهاء التحقق الجيني كل ما عليك أن فعله هو أن تضغط هذا الزر وسيدمر القمر الصناعي هذا المكان».

فجأة انفتح الباب بقوة ودخل مراد وجهه متجهم وعيناه مشتعلتان بالغضب. رأى نادين بالقرب من الجهاز، ورأى الجهاز وهو يتحقق من بصمتي الجينية. لم يتردد، وهو يشهر سلاحه مرة أخرى، ويصرخ: «توقفوا عن هذا فورًا! أنتم لا تعرفون ما الذي تفعلونه».

شهر خالد مسدسه وهو يقول: «لقد حُسم الأمر يا مراد، مستقبل البشرية بين أيدينا الآن».

توترت إصبع مراد على الزناد وهو يجز على أسنانه، وفجأة دوت رصاصة، ورأيت رأس مراد يتفجر أمامي فصرخت في رعب.

ولكن خالد قال بوجه شاحب: «لم أفعلها! لم أطلق النار».

تهاوت جثة مراد على الأرض، ومن ورائها ظهر وجه مألوف؛ وجه منصور.

تقدم منصور وهو يقول: «لقد أتعبتموني كثيرًا، ولكني قد عثرت عليكم أخيرًا. القاهرة مملكتي، ولا يمكن لأحد أن يفلت مني فيها».

تجمّدنا جميعًا في مكاننا للحظة، رأيت الذعر على وجوه الجميع، لقد انهار كل شيء في لحظة.

تقدم منصور خطوة نحو نادين، موجهًا سلاحه نحونا، ثم قال بصوت هادئ ولكنه مليء بالتهديد: «أعطِني الشريحة، وإلا فسأقتلكم جميعًا الآن».

فجأة سمعت صوت تبادل طلقات نارية من جديدة، فعقد منصور حاجبيه وهو ينظر وراءه في حذر. جاء أحد رجاله راكضًا وهو يصرخ: «أبناء القيامة! لقد جاءتهم تعزيزات!».

قال منصور في غضب: «سأقتلكم جميعًا قبل أن يصلوا إليكم».

ولكن خالد قفز ليقف أمامي وهو يشهر مسدسه، وفي اللحظة ذاتها تلقى رصاصة في كتفه، فسقط أرضًا في ألم، بينما يتناهى إلى مسامعنا صوت اشتباكات بالخارج. قفز منصور جانبًا وهو ينظر إلى رجاله يسقطون واحدًا تلو الآخر. لقد تحولت الغرفة والممرات المحيطة بها إلى ساحة حرب حقيقية. كان صوت الرصاص يدوي في كل مكان. الجنود يصرخون، والطلقات النارية تملأ الهواء برائحة البارود.

كانت عينا منصور مشتعلتين بالغضب والوحشية، وهو يصرخ بأوامر لرجاله، بينما يحاولون صد تقدم أبناء القيامة بكل ما لديهم من قوة.

نظرت ناحية شاشة الكمبيوتر، لم أفهم شيئًا من كل المؤشرات المرسومة، ولكني فهمت أن القمر الصناعي ليس مستعدًّا بعد.

اندفع واحد من أبناء القيامة إلى الغرفة تجاه منصور مباشرة، لكن منصور أطلق عليه وابلًا من الرصاصات، فأرداه قتيلًا في الحال. لطخت دماؤه الجدران، ولكن زملاءه لم يتوقفوا. كانوا جيشًا لا يعرف الخوف، مستعدين للتضحية حتى الرمق الأخير.

بدت المعركة محسومة لصالح أبناء القيامة، ولكن لم يبدُ أن منصور سيستسلم. أصدر مسدسه تكات معدنية تدل على نفاد ذخيرته، فألقى به أرضًا واستل خنجرًا من حزامه، بينما عيناه تمسحان ساحة المعركة التي تحولت إلى جحيم مليء بالجثث والدماء. كانت الرصاصات لا تزال تنطلق في كل اتجاه، والصرخات ترتفع مع كل ضربة نارية.

انكمشنا على أنفسنا، ممسكًا بيد مريم، نراقب هذا الجحيم في رعب شديد.

فجأة اقتحم مجموعة من أبناء القيامة الغرفة، وقفز أحدهم ناحية منصور، ولكنه استدار كالنمر الجريح، وأمسك به من معصمه، ليسقطه أرضًا بحركة سريعة، ثم غرز خنجره في صدره، ليتدفق الدم من جسده ويختلط بالدماء التي تلطخ الأرضية بالفعل.

وقف منصور بشموخ، صدره يرتفع ويهبط بسرعة من فرط المجهود، وعيناه تبرقان بتحدٍّ لم يعد يخفيه. صاح قائلًا: «ستسقطون جميعًا هنا اليوم! القاهرة ملكي، ولن أسمح لأحد بأن ينتزعها مني!».

فجأة قفز القائد سامر إلى الحجرة بصحبة بعض جنوده، ليقف أمام منصور مباشرة. التقت عيناه عيني منصور في تحدٍّ صامت، وكأن المعركة الحقيقية بدأت الآن.

صرخ منصور في غضب: «سامر! أنت وراء كل هذا!».

شهر سامر مسدسه، وأطلق النار، ولكن منصور تنحى جانبًا في اللحظة ذاتها وقفز ناحية سامر، ولكن قائد أبناء القيامة استطاع تفادي النصل المميت بحركة جانبية سريعة.

فجأة صاحت نادين: «الآن يا عمر». نظرت ناحية الشاشة التي كانت تنبض، وفهمت أن التحقق الجيني قد اكتمل، والآن القمر الصناعي صار في زاويته الصحيحة، كل ما عليَّ فعله هو أن أضغط هذا الزر وينتهي كل شيء. شعرت بقلبي ينبض في عنف، والدماء تتدفق في عروقي، هذه هي اللحظة الحاسمة! يجب أن أفعلها الآن!

ولكني ترددت، شعرت بساقيَّ لا تقويان على حملي، لن نخرج من هذا الجحيم أحياء.

الصراع ما بين سامر ومنصور، ما بين أبناء القيامة ورجال المترو، الجثث في كل مكان، الدماء، النار!

سمعت صوت طلقة نارية، ورأيت منصور في اللحظة ذاتها يغرز خنجره في عنق سامر. اتسعت عيناي في ذعر وأنا أشاهد منصور يعتدل وهو يلهث، ولكني رأيته يمد يده إلى صدره، ثم يرفعها إلى عينيه ملطخة بالدماء. نظر منصور ناحيتي نظرة أخيرة، ثم سقط أرضًا مفارقًا الحياة.

تجمد الزمن لحظة، ثم سمعت صوت مريم يخترق الحجب ليتردد في عقلي. «عمر!». وفي اللحظة ذاتها هوت يدي لتضغط على الزر.

الفصل الثامن عشر

تعالى صوت من الكمبيوتر يقول: «تفعيل ناجح. سيبدأ تدمير القمر الصناعي خلال خمس دقائق».

أسرعت نادين لتساعد خالد على الوقوف ثم صاحت: «يجب أن نخرج الآن، هذا المكان سيتحول إلى جحيم».

سمع من تبقى من الجنود صرختها، وفهموا ما تعنيه على الفور فأسرعوا هاربين، جنود أبناء القيامة ورجال منصور - وقد فقدوا قائديهم - لم يعودوا راغبين في شيء سوى النجاة بحياتهم.

قطعنا جميعًا ممرات المبنى، ولكن خالد كان يبطئنا، فقال لنادين: «اتركيني، لن أفعل شيئًا سوى تعطيلكم، سنموت جميعًا هكذا، انجوا بحياتكم».

صاح مهند: «لن نفقد شخصًا آخر!». ثم حمل خالد على كتفيه، وأسرعنا جميعًا راكضين وسط طوفان البشر الهاربين من المبنى.

بالخارج كانت هناك العديد من السيارات الفارغة، بعضها ينتمي إلى أبناء القيامة. أسرعنا ناحية واحدة منها. وضع مهند خالد في المقعد الخلفي ثم قال: «يمكنني القيادة».

جلست إلى جانبه، بينما جلست نادين ومريم إلى جانب خالد، ثم أسرعت السيارة هاربة.

نظرت ورائي ناحية المبنى، ثم نظرت إلى السماء. كانت السماء تتوهج بلون أحمر ساطع، وفجأة هوى عمود من النور على المبنى ليدمره، وشاهدت تصاعد النيران على هيئة فطر عيش الغراب فاتسعت عيناي ذهولًا.

اندفعت موجة من الدمار لتلحق بنا، فقلت في فزع: «لن ننجو!».

ولكن مهند ضغط دواسة الوقود بكل قوته لتندفع السيارة بجنون بين الأطلال، في محاولة يائسة للهرب من موجة النيران المندفعة كإعصار.

فجأة توقفت النيران عن ملاحقتنا، وبدأت تنحسر ببطء، ثم هدأ كل شيء.

توقف مهند بسيارته، وترجلنا لنحدق إلى الدمار الهائل من ورائنا.

قال مهند في مرح: «لقد نجونا!».

قلت بمرارة: «نعم نجونا ولكن... بأي ثمن؟».

كانت السماء لا تزال مضاءة بلون أحمر، والنيران متصاعدة من أماكن عديدة، وبعض المباني التي كانت لا تزال قائمة قد تحولت إلى ركام، أما مقر القمر الصناعي فلم يعد هناك أثر له سوى النيران التي لم تنطفئ بعد.

اقتربت مني نادين ووضعت يدها على كتفي وقالت: «ربما لا ترى هذا الآن، ولكنك أنقذت الكثير من البشر بفعلتك هذه».

قال مهند: «أنت بطل يا صديقي، كان أبوك ليفخر بك... والفأر أيضًا».

أما مريم فقد قالت لي: «أنا متيقنة أنك لم تفعل سوى الصواب، ولو كان أبي حيًّا لقال الشيء ذاته».

نظرت إليها في امتنان، ثم سمعت العقيد خالد يتأوه فنظرت إليه وقلت: «يجب علينا الاعتناء بالعقيد خالد».

قال وهو يمسك بكتفه في ألم: «لا تقلقوا بشأني إنها مجرد إصابة بسيطة». ثم تنهد وقال: «لا أصدق أننا قد حققنا أخيرًا ما عملنا من أجله لسنوات».

قال نادين: «لا تزال أمامنا مهمة صعبة، فأبناء القيامة قد انهارت خطتهم، وسيكون علينا العمل لإعادة تنظيم صفوفنا، ووضع خطة جديدة لتتعافى القاهرة، ومن يدري، ربما يأتي يوم تعود فيه الحضارة إلى العالم من جديد».

تنهدت وقلت: «أتمنى هذا؟». ثم نظرت إلى مهند وقلت: «والآن أين نذهب؟».

قالت مريم في حزن: «لا يمكننا العودة إلى الملجأ الآن».

قالت نادين: «يمكنكم العودة معنا، لا شك أن أبناء القيامة سيعيدون ترتيب أوراقهم، وتحديد أولوياتهم. لا تزال مسؤوليتنا صنع فلك من أجل البشرية لتتكمن من الاستمرار بعد انتهاء الكارثة، أن نمنحهم الوسيلة لاستعادة الحضارة من جديد».

قالت مريم: «سآتي معكم لأتمكن من تعليم الأطفال القراءة من جديد».

وقال مهند مازحًا: «وأنا سآتي معكم لأن الطعام لذيذ».

نظر الجميع إليَّ، فقلت مبتسمًا: «هيا بنا، لدينا حضارة لنعيد بناءها».

الخاتمة

انطلقت السيارة تخترق أطلال القاهرة، مبتعدة عن البقعة المحترقة التي كانت شاهدة على نهاية المعركة. في داخلها يتبادل الركاب المزاح، وكأن ثقل العالم قد أزيح عن كاهلهم بعد انتهاء مهمتهم. كانت السماء لا تزال مشتعلة باللون الأحمر من فوقهم، وتحتها مدينة ممزقة تحاول النهوض من بين الرماد.

في أعلى الأسطح حدّق بعض من يجوبون الأطلال نحو السماء المتوهجة، غير مدركين تمامًا لمعنى الضوء الأحمر الذي شق السماء أو الانفجار الذي سمعوه من بعيد. أما في الملاجئ تحت الأرض فقد سمع قاطنوها دوي الانفجار وارتجفت جدرانهم، فانتظروا في صمت وترقب، قبل أن يعودوا بحذر إلى حياتهم اليومية، غير مدركين أن هناك من اتخذ قرارًا يحدد مصيرهم ومستقبلهم.

في أعماق المترو ترددت أخبار عن موت منصور، وانتشرت بين المحطات انتشار النار في الهشيم، وبدأ صراع جديد على زعامة هذا العالم السفلي. الجميع ينتظرون في ترقب لمعرفة من سيملأ الفراغ الذي خلفه منصور وراءه.

في الزوايا المظلمة من أطلال القاهرة، كان المتحولون يختبئون في الظلال، وأخطار أخرى تجوب شوارع القاهرة وأطلالها.

لكن في سماء القاهرة، فإن اللون الأحمر الذي طغى على الأفق بعد الانفجار كان يتلاشى ببطء، تاركًا خلفه سماءً رمادية باهتة، كأنه يعلن نهاية هذا العهد، وبداية حقبة مختلفة، تحمل معها آمالًا جديدة... وتحديات جديدة.

عن رحلة الكتابة

بدأت في كتابة هذه الرواية في عالم 2019 لتكون الجزء الثاني من الشتاء الأسود، وبالفعل كان من المفترض أن يدور الجزء الأول من الرواية في عصر الشتاء النووي قبل الانتقال إلى الصيف النووي ومشاهدة مرحلة التحول.

ولكني انشغلت بعدها بمشاريع عديدة، ومنها روايتي السابقة لعنة جانب التل، وظلت أبناء القيامة مسودة تنتظر الاكتمال، حتى شجعتني زوجتي على إكمالها، فأعدت قراءتها من جديد ولكن بزاوية جديدة. أردت أن تكون الرواية من منظور شخص لم يشهد الكارثة، ويعيش في ملجأ تحت الأرض، والعالم الخارجي بالنسبة له مجرد حكايات تمامًا مثل الماضي وعصر ما قبل الكارثة.

وهكذا حذفت جزء كبير من المسودة، وشرعت في الكتاب من الصفر، مستخدمًا أسلوب الشخص الأول، وهذه هي روايتي الأولى التي أستخدم فيها هذا المنظور، الذي لم أستخدمه من قبل إلا في القصص القصيرة. لذا أتمنى أن تكونوا قد استمتعتم برحلتكم في أطلال القاهرة، وأنه كان معكم ما يكفي من الماء البارد أثناء مغامرتكم تحت أشعة شمس الصيف النووي الحارقة.

شكر وعرفان

شكرًا لزوجتي منار لتشجيعي على كتابة هذه الرواية، وهي قارئتي الأولى التي تقرأ كل ما أكتبه قبل أي شخص آخر، وشكرًا لأخي محمود المهدي المصحح اللغوي الذي أعتمد عليه دومًا في مراجعة الرواية (وأحيانًا للعثور على بعض الثغرات في الحبكة التي تفلت مني بعد كتابة عدة مسودات)، ولصديقي أحمد السيد أبو مكي الذي يشجعني دومًا على الكتابة رغم أنه لا يفعل الشيء ذاته لنفسه، والصديق معتز حسانين وأكوام أوراق الملحوظات التي صارت معتادة بعد كل رواية.

شكرًا لوكالة بيرز فاكتور الأدبية، وعلى رأسها الصديق باسم الخشن وكيلي الأدبي، ولكل ما يبذله من جهد كبير لإثراء محتوى الخيال العلمي والفانتازيا باللغة العربية. (رغم أنه يطلب مني ترجمة مجموعة من الروايات الضخمة، ثم يتذكر أنني كاتب فيسألني أين الرواية الجديدة؟)

شكرًا للأصدقاء الذين قرأوا مسودات الرواية وساعدوني بملاحظاتهم القيمة في تطوير هذا العمل: محمد محيي طلبة، دينا هيكل، أحمد أبو سيف، سلمى الشرقاوي، عارف فكري، عمار المصري، مصطفى عمار، مريم لطفي، كريم عبد الناصر، حسن السيد.

شكرًا للجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي لما تبذله من جهد لإثراء محتوى الخيال العلمي المصري والعربي، وأخص بالشكر د. حسام الزمبيلي، المهندس محمد نجيب مطر، الأستاذ الناقد خالد جودة، د. قدرية سعيد، د. عماد الدين عيشة.

شكرًا لعائلتي، الداعمين لي دومًا، والصغار: فرح، صفية، فريدة، صهيب، إياد، مصطفى. يومًا ما ستكبرون وتقرؤون هذه الرواية.

شكرًا لدار كيان للنشر وكل القائمين عليها، وعلى وجه الخصوص محمد جميل ونيڤين التهامي، ومنار عبد الحميد.

عن المؤلف

أحمد صلاح المهدي كاتب ومترجم وناقد مصري، تخرج في كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، نشرت له ست روايات ما بين الفانتازيا والرعب والخيال العلمي آخرها رواية لعنة جانب التل. ترجمت اثنتان منهم إلى اللغة الإنجليزية وهما «ريم» و»ملاذ: مدينة البعث»، وقد ترجمت «ملاذ: مدينة البعث» إلى اللغة الإيطالية. نُشر له عدد من القصص القصيرة والمقالات الأدبية والنقدية باللغتين العربية والإنجليزية، وترجمت بعضها إلى لغات أخرى كالرومانية والإسبانية. حائز على جائزة الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي لأفضل قصة قصيرة. صدر له ترجمات العديد من الروايات المختلفة، مثل سلسلة «القاعدة» من تأليف كاتب الخيال العلمي الشهير أيزاك أزيموف التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أبل تي في، و»عين العالم» الجزء الأول من سلسلة «عجلة الزمن» من تأليف روبرت جوردن التي تحولت مؤخرًا إلى مسلسل على منصة أمازون.